



**Return to Off-Site
Place on Off-Site Return Shelf**

DO NOT COVER

Elmer Holmes Bobst
Library



Donated by
the Massoud Family
of Egypt and the United States
in honor of
YEHIA MASSOUD
and
MUHAMMAD MASSOUD
from whose library this book comes

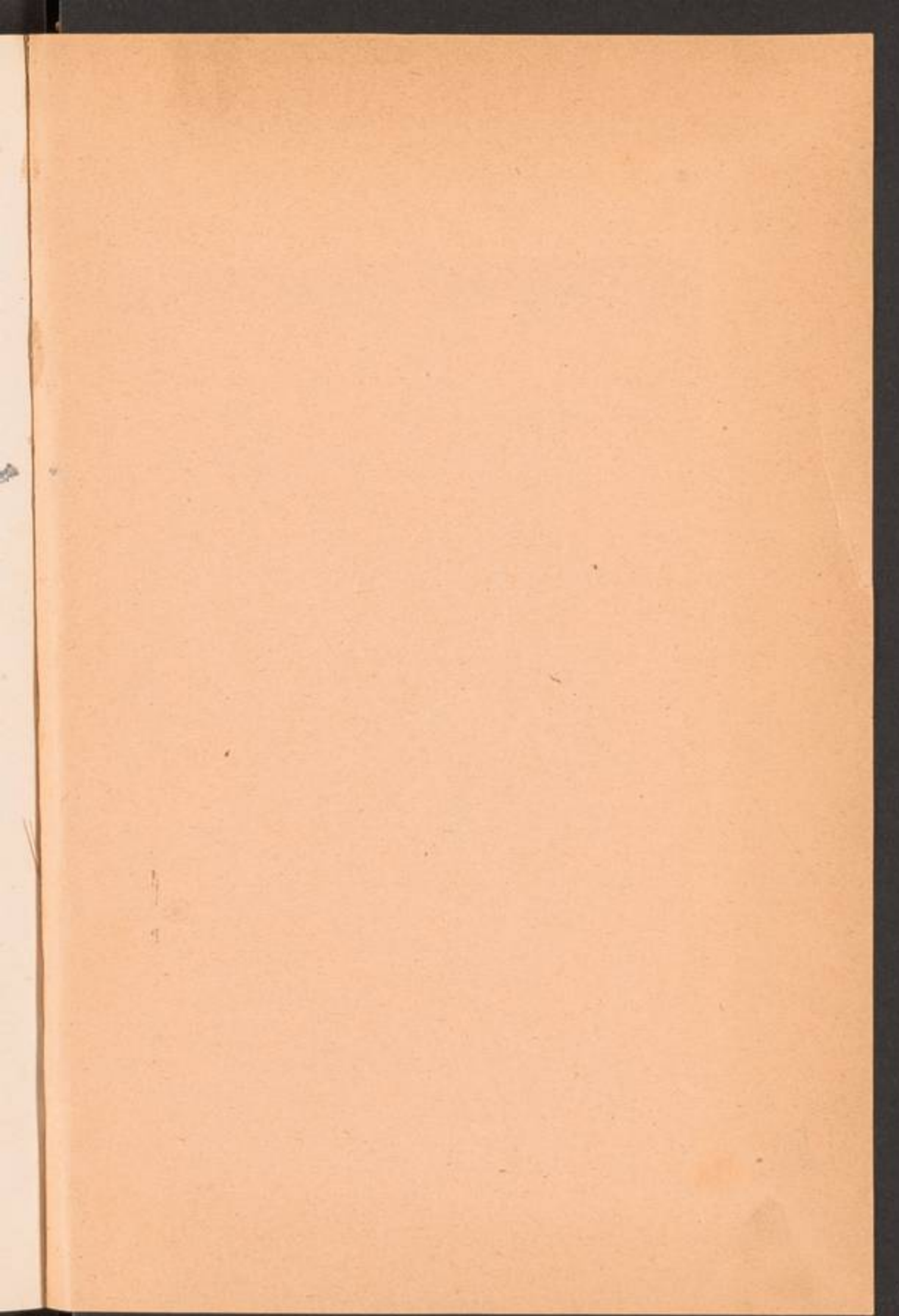
New York University
Bobst, Circulation Department
70 Washington Square South
New York, NY 10012-1091

Web Renewals:
<http://library.nyu.edu>
Circulation policies
<http://library.nyu.edu/about>

THIS ITEM IS SUBJECT TO RECALL AT ANY TIME

DUE DATE APR 1 2007 RETURNED JAN 24 2007		RETURNED CIRCULATORY LIBRARY DEC 02 2013 NOV 16 2013 BOBST LIBRARY DUE DATE

NOTE NEW DUE DATE WHEN RENEWING BOOKS ONLINE



كتاب
المسألة الشرقية

Kitab
al-Mas'alah al-Shargīyah /

مصطفى كامل
م

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

(الطبعة الاولى)

١٧٥-
طبع بمطبعة الآداب بمصر سنة ١٨٩٨

D

374

.M84

c.1



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة على نبيه خير الانبياء والمرسلين . { وبعده }
فقد شهد هذا العام فوز الدولة العلية في حربها مع اليونان فوزا عظيما
وانتصارها نصرا ميمنا ورأى العالمون بين أصدقاء للدولة وأعداء براهين
حياتها ودلائل شبيبتها . فانتعشت نفوس أبنائها وأصدقائها وطمس الله على
قلوب خصومها وأعدائها حيث قضى لها بما قضى من القوز والنصر
والسمو والرفعة

وقد طلب مني بعد انتهاء الحرب بعض أصدقاء يحسنون الظن بشخصي
الضعيف ان أكتب تاريخ هذه الحرب الشهيرة فأجبت الطالب لاعن شعور
بمقدرتي على ذلك بل عن سرور جزيل وحبور نادر المثل بما نالت الدولة
العلية حماها الله

وقد أحييت أن أقدم للقراء الكرام قبل تاريخ الحرب ملخصاً عن
المسئلة الشرقية التي هي موضوع اشتغال الشرقيين والغربيين . واني أسأل
القراء الكرام عذراً اذا كنت اضطررت للايجاز في بيان المسئلة الشرقية فقد
قضي على الوقت بذلك . وأؤمل العودة لموضوعها في فرصة أخرى مع
بيان أوفى وأشفي

واني أضرع الى الله فاطر السموات والارض من فؤاد مخلص وقلب
صادق أن يهب الدولة العلية القسوة الابدية والنصر السرمدي ليعيش
العثمانيون والمسلمون مدى الدهر في سؤدد ورفعة . وأن يحفظ للدولة
العثمانية حامى حماها وللاسلام أمامه وناصره جلالة السلطان الاعظم
والخليفة الاكبر الغازى (عبد الحميد الثانى) وأن يحفظ لمصر في ظل جلالته
عزيزها المحبوب وأميرها المعظم سمو الحديو (عباس حلمى باشا الثانى)
ان ربي سميع مجيب

١٨٩٨ سنة ١٣١٥ - يناير سنة ١٨٩٨

(مصطفى كامل)





المسألة الشرقية

اتفق الكتاب والسياسيون على ان المسألة الشرقية هي مسألة النزاع القائم بين بعض دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها وبعبارة أخرى هي مسألة وجود الدولة العلية نفسها في أوروبا . وقد قال كتاب آخرون من الشرق ومن الغرب بأن المسألة الشرقية هي مسألة النزاع المستمر بين النصرانية والاسلام أي مسألة حروب صليبية متقطعة بين الدولة القائمة بأمر الاسلام وبين دول المسيحية . الا أن هذا التعريف وان كان فيه شيء من الحقيقة فليس بصحيح تماما . لأن الدول التي تنازع الدولة العلية وجودها لاتعاديها باسم الدين فقط بل في الغالب تعاديها طمعا في نوال شيء من أملاكها . وقد أرانا التاريخ أحوالا كثيرة لم يستعمل الدين فيها الاسلحا أو وسيلة لنوال غرض جوهرى فهو ستار تخفى وراءه أغراض شتى وأطماع مختلفة

والذى يراجع تاريخ الدولة العلية ويقب صحائف أمورها من أول وجودها الى اليوم يرى ان المسألة الشرقية نشأت مع الدولة نفسها . أى انه منذ

وطأت أقدام الترك ثرى أوروبا وأسسوا دولتهم الفخيمة قام بينهم وبين بعض الدول الأوروبية النزاع الشديد ودارت الحروب العديدة . وبالجملة فانه منذ ظهرت صولة الترك في أوروبا أخذت بعض الدول على عهدها معاداة الدولة ومطاردتها والعمل على اخراجها من هاته القارة . ولكنها أعمال حبطت وآمال خابت إذ أصبح أمر بقاء دولة آل عثمان من أول الامور الضرورية اللازمة لسلامة بني الانسان

وقد وهب الله الدولة العثمانية سلطة عالية ورهبة عظيمة حينما طويلا من الزمان فاخضعت لسلطانها الامم والدول وأرهبت بقوتها وعظمتها كل قوى وكل عظيم ورفعت رايتها المملالية الجليلة على أصقاع شاسعة وأقطار واسعة . فابقت فتوحاتها وانتصاراتها في نفوس الامم المقهورة بغضاء كامنة وعداوة لدودة . فكان ذلك السبب الاول في الحروب العديدة التي وجهت ضدها وأقيمت في وجهها

ولما كانت البلاد الواقعة تحت سلطة الدولة العلية من أجل بلاد العالم وأغناها فقد تآقت نفوس أصحاب الدول الأوروبية لاخراج الترك من هذه البلاد وتقسيمها بينها . فكانت هذه الدول تحارب الدولة العلية بأمل تقسيمها شياً فشيئاً والاستيلاء على أجزائها جزءاً جزءاً . وهذا هو سبب آخر لعداوة بعض الدول الأوروبية للدولة العلية

وإذا دققنا النظر في سبب العداوة المشهور وهو مسألة الدين وجدنا ان الدولة العلية هي الدولة الوحيدة في دول الارض التي عاملت رعاياها الذين يدينون بغير دينها بالتسامح والتساهل والاعتدال . فقد اتبعت أوامر

الشرع الشريف وتركت للمسيحيين حرية دياناتهم وعقائدهم وتقاليدهم واحترمت عقائدهم كل الاحترام. فعاشوا طويلا متعين بهاته الحرية على حين ان مسيحي اسبانيا قتلوا المسلمين لانهم مسلمون وهتكوا أعراض نسائهم وحرمة بيوتهم ومارحوا انسانا

ولم تكثف الدولة العلية حماها الله بحسن معاملة المسيحيين واحترام اديانهم وعقائدهم بل عاملتهم كأغز ابناءها المسلمين ولم تميز بين هؤلاء وبينهم وسلكت مع الكل طريق المساواة وعينت الكثيرين من المسيحيين في المناصب السامية والوظائف العلية وإتمتتهم على أمورها وجعلتهم محل ثقها. وبقاء المسيحيين الي اليوم في الدولة العلية اكبر شاهد على اعتدالها الديني في الماضي وفي الحاضر بل بقاء الجنسيات المختلفة كالبلغار والصرب واليونان وغيرها دليل ساطع وبرهان قاطع على أن الدولة العلية احترمت من نفسها وبمحض إرادتها دين الذين وقعوا تحت سلطتها ولم تقهر أحداً على اعتناق الدين الاسلامي. ويعترف الكتاب والمؤرخون جميعاً بل ويعترف كل انسان في الوجود مجرد عن الغرض الاعمى ان الدولة العلية كان في قدرتها يوم كانت أقوى دول الارض أن تجبر كل المسيحيين في بلادها على اعتناق دين الاسلام أو أن تطردهم من أراضيها اذا خالفوا رغبتها. ولكنها احترمت الشرع الشريف فاحترمت الدين المسيحي وأصحابه

وهي حقيقة يقررها التاريخ وينطق بها كل منصف محب لها. ولكن من غرائب أحوال هذا الوجود أن هذه الفضيلة السامية وهذه المكرمة

القيمة كانت أكبر سبب لكل ما لحق الدولة العلية من الضرر والاجحاف
وأصلاً لكل ما حل بها من المصائب والبلايا . فاحترامها لعقائد المسيحيين
على اختلاف أنواعهم أقام أمامها بعض دول أوروبا بحجة المسيحيين أنفسهم
وكان سبباً لحروب جمة

فمسئلة اختلاف الدين في الدولة العلية التي هي نتيجة الاعتدال الديني
والعدل والانصاف كانت ولا تزال الداء الدفين الذي يهدد حياة الدولة
من وقت الى آخر . فتسداخل الدول الأوروبية في شؤون الدولة العلية
باسم المسيحيين المحكومين بها . ومضايقة أوروبا بالدولة باسم هؤلاء المسيحيين
واضطرابات الدولة تقوم باسم هؤلاء المسيحيين . والاندازات التي توجه
للدولة توجه باسم هؤلاء المسيحيين بل وأغلب الحروب التي جرت مع الدولة
جرت باسم هؤلاء المسيحيين . ويعلم الله أنهم سعداء الحظ في الدولة العلية
وان تداخل أوروبا بحجة نصرتهم لالزوم له البتة

ولو أنصفت الدول الأوروبية قليلاً لاعترفت بهذه الحقيقة الواضحة
وهي ان المسيحيين في الدولة العلية لا ينقصون عن المسلمين في حسن المعاملة
ان لم يكونوا من الراجحين . وهاهم اليهود لا يثورون ولا يهيجون
ولا يشتكون ولا يتألمون بل يحمدون الدولة ليلاً ونهاراً في السراء والضراء
ويسبحون في كل آونة بنعمها عليهم وحسن رعايتها لهم . وما ذلك الا
لأنه لا يوجد في الدول الأوروبية دولة تدعى الدفاع عنهم والعمل لمصالحهم
فهم ليسوا بآلات في الدولة ضد الدولة بل هم يعرفون من أنفسهم أنهم
عثمانيون ممتعون بكل الحقوق العثمانية . وأما العناصر التي كالارمن تستعملها

بعض الدول كانكثرا فهي تشور بعوامل الدين وبدسائس دينية . وقد ثبت ذلك جليا في المسئلة الارمنية وشوهد أن الارمن الكاثوليك كانوا على سكينه امة بينما كان البروتستانت يثورون ويدبرون المكاذ ضد الحكومة العثمانية فمسئلة الدين في الدولة العلية هي الآلة القوية التي يستعملها أصحاب الدسائس والغايات وأولئك الذين يثورون بدسائس أعداء الدولة انما يثورون ضد أنفسهم ويقضون على حياتهم وسعادتهم بعينهم وجنونهم واتباعهم لا واصر أعداء الدولة المحركين لهم . فالذين ماتوا من الارمن في الحوادث الارمنية انما ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية . والذين ماتوا في كريدما توافريسة الدسائس الانكليزية . بل والذين ماتوا من جنود اليونان في تساليا ماتوا فريسة الدسائس الانكليزية نفسها ومن يعمل بنصيحة أعداء الدولة ويتبع أوامرهم فجزاؤه مانال الارمن واليونان

وبديهي ان دولة مثل دولة انكثرا التي تدعى محبة المسيحيين في الشرق والعمل لراحتهم وسعادتهم لو كانت صادقة في دعواها لرات من الواجب عليها أن تصافي الدولة العلية حتى تنال منها متمناها بشأن المسيحيين . والا فن الجنون في السياسة أن تدعي انكثرا محبة المسيحيين ثم تعادي الدولة العلية القابضة بيديها على زمام أمور المسيحيين . فهل يقبل العقل البشري ان دولة قوية كالدولة العلية تعمل في بلادها على خلاف رغبتها وتتل أصدقاء الانكليز أي أصدقاء أعدائها الراحة والسعادة والهناء ؟ هل يقبل العقل البشري ان المسيحيين المدافعة عنهم انكثرا يعادون المسلمين ثم يسألونهم معاملتهم بالرقه والالطف وحسن العناية بهم ؟

ان الاتفاق والوفاق بين المسلمين والمسيحيين في الدولة العلية لا يكون
نتيجة الضغط والقوة بل نتيجة الميل المتبادل وحسن النية من الجانبين
والاخلاص والوفاء للدولة العلية . واذا كانت دول أوروبا تريد حقيقة
سعادة المسيحيين في الشرق فأول واجب عليها هو أن تأمرهم بالامثال
لاوامر الدولة والتعاقبها والاخلاص في خدمتها : والا فالدولة أوفالدول
العامة على القاء بذور الشقاق والعداوة بين المسلمين والمسيحيين لا تجنى
ويستحيل أن تجنى شيئاً آخر غير العداوة المرة والخصومة الشديدة
وغنى عن البيان ان المسلمين في الدولة العلية متى رأوا فريقاً من أخذانهم
المسيحيين يعمل بأوامر الاجنبي عدهم خاناً للوطن العثماني ناكثاً لعهد
الدولة العثمانية أي عدواً دخيلاً في الوطن والملة والندوة . ووجب عليهم
العمل ضده بكل مافي استطاعتهم قياماً بواجباتهم الوطنية . وهذا هو الشأن
في كل أمم العالم فلو فرضنا أن فريقاً من الانكليز قام يوماً في انكلترا
باحداث الاضطرابات والثورات تنفيذاً لاوامر دولة أجنبية كالروسيا
أو المانيا أو فرنسا . فأبي واجب تحتمه الوطنية عندئذ على بقية الانكليز
أليس القضاء على هؤلاء الخونة المنفذين لاوامر دولة أجنبية بكل الوسائل
القائمون بالثورات الاضطرابات في الدولة العلية خونة منفذون لاوامر
أعداء الدولة يجب على العثمانيين الصادقين اعلان العداوة لهم والانتقام
منهم بكل مافي الجهد والاستطاعة
ويستحيل الوصول كما قدمنا الى الاتفاق السليم الصحيح بين المسيحيين
والمسلمين في الدولة العثمانية الا باخلاص الجميع لها اخلاصاً تاماً

هذه هي الحقيقة وحدها دون غيرها

وإذا كان اختلاف الدين في الدولة العلية هو داء من أدولها بل هو أكبر أدولها فالدخلاء في الدولة العلية داء عضال وبلية لا يعادلها بلية . فان الذين كانوا سببا في هزيمة الدولة في حروب متتلفة هم الدخلاء والذين ساعدوا الدسائس الاجنبية هم الدخلاء . فلقد دخل في جسم الدولة العلية كثير من الاجانب نساء ورجالا وغيروا أسماءهم بأسماء اسلامية وعملوا على الارتقاء في المناصب حتى وصل بعضهم الى أسماها وصاروا من أقرب المقربين فمرضوا بالدولة للدمار وأطلعوا أعداءها على أسرارها . وقد انتشر الدخلاء في الزمن السالف في كل فروع الدولة العلية حتى في الجيش نفسه وصارت لهم سلطة عظيمة ونفوذ كبير وكنت تجد من وزراء الدولة العلية من يعمل لصالح الروسيا مدعيا انه رومي السياسة ومن يعمل لصالح انكلترا مدعيا انه انكليزي السياسة ولكن ليس منهم من كان عثمانى السياسة ولولا أن الأمة العثمانية أمة حية قوية عظيمة الشهامة والوطنية لكنت تلاشت اليوم بدسائس الدخلاء ولو كان للدخلاء في دولة أخرى ما كان لهم في الدولة العلية من السلطة والحول لكانت تقوض بنيانها وتداعت أركانها . وان أعظم سلطان جالس على أريكة ملك آل عثمان ووجه عنايته لا يبطال مساعي الدخلاء وتطهير الدولة من وجودهم هو جلالة السلطان الحالي . فلقد تعلم من حرب سنة ١٨٧٧ وما جرى فيها أن الدخلاء بلية البلايا في الدولة ومصيبة المصائب ، فعمل بحكمته العالية على تبيد قوتهم وتربية الرجال الذين يرفعون شأن الدولة ويعملون

لاءلاء قدرها . وقد برهنت الحرب العثمانية اليونانية على ان للدولة اليوم رجالا من أبنائها الصادقين يخدمونها بالامانة والوفاء ويتفانون في محبتها وأن ليس للدخلاء من سبيل لنوال مآربهم السيئة . فأمثال صاحب الدولة ه أدهم باشاء الذي كان مجهول الاسم عند الكثيرين من العثمانيين قبل الحرب كثيرون في الدولة العلية تظهرهم الحوادث وتعرفنا بهم وبقدرهم

المشكلات

وان أغرب شيء في أحوال الدولة العلية وفي تاريخها يدعش أعداءها ويحير الكتاب الكارهين لها هو بقاؤها حية بعد كل المصائب التي تساقطت عليها والبلايا التي نزلت بها . فلقد رأيت هذه الدولة العثمانية مالم تره دولة من دول الارض القديمة والحديثة فقد كانت تحالف معها بعض الدول كالتنسا مثلا وتعمل وهي متحالفة معها على الاتفاق مع روسيا على تقسيمها . وقد كانت تتظاهر انكنازها بالصداقة والوفاء وتسمى وهي متظاهرة كذلك على ضياع أملاكها من يدها وسقوطها في قبضتها . وقد كانت دول أوروبا كلها تجتمع وتتحد على ما تسميه بالمبدأ المقدس مبدأ حماية استقلال الدولة العلية وسلامتها : ثم كانت هي بعينها أوروبا تجزىء الدولة العلية باسم هذا المبدأ المقدس نفسه . وقد كان العاملون على تقويض أركان الدولة وحلها عديدين أقوى . ومع ذلك كله لا تزال الدولة العلية حماها الله قوية ثابتة الاركان تخافها أقوى الدول ويخطب ودها امبراطور شهد العالم كله بقوته وعظمته وبأسه

ولقد يندعش الانسان غاية الاندهاش عندما يقرأ ما كان يكتب من

نحو مائة وعشرين سنة عن الدولة العلية . فقد كان الكتاب والسياسيون يتناقشون في مشروعات تقسيمها فالبعض كان يريد أن يؤسس مكان الدولة العلية «الاتحاد البلقاني» والبعض الآخر كان يريد إعادة ملك بيزانتان وكان سياسيو روسيا والنمسا يتباحثون في مشروع تقسيم الدولة بين دولتيهما فكل كان يضع مشروعا والجميع كانوا متفقين على ان الدولة قصيرة الاجل وأكثرهم أملا في حياتها كان يجود عليها في مشروعه بمشرة من السنين أو عشرين عاماً . ولو بعث اليوم من القبور كتاب أو اخر القرن الماضي وسواسه ورأوا الدولة العلية قائمة عزيزة تحارب في أوخر القرن التاسع عشر وتتنصر وتجتاز العقبات عقبه بعد عقبه وتصرف المصائب مصيبة بعد أخرى لكذبوا أعينهم وما صدقوا بالحقيقة

ولكن الحقيقة هي ان بقاء الدولة العلية ضروري للنوع البشري وان في بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق . وان الله جل شأنه أراد حفظ بنى الانسان من تدمير بعضهم البعض ومن حروب دينية طويلة بحفظ سياج الدولة العلية وبقاء السلطنة العثمانية . فقد لاقت هذه الدولة العثمانية في حياتها الطويلة أخطاراً هائلة كانت تكفي لتداعي بنيان أقوى الممالك . وصرت عليها ملات كانت تندك لها الدول القوية والممالك القاهرة بدون أن تمس حياتها الحقيقية بسوء بل بقيت حية تدهش العالم بشيبتها

وقد أحس الكثيرون في أوروبا من رجال السياسة ومن رجال الانلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام وان زوالها (لا قدر الله)

يكون مجلبة للاخطار أكبر الاخطار ومشعلة لنيران يمتد لها بالارض شرقها
وغربها شمالها وجنوبها . وان هدم هذا المملكة القائمة بأمر الاسلام يكون
داعية لثورة عامة من المسلمين وحرب دموية لا تمتد بعدها الحروب الصليبية
الامعارك صليبية

وان الذين يدعون العمل خير النصرانية في الشرق يعلمون قبل كل
انسان أن تقسيم الدولة العلية أو حلها يكون الضربة القاضية على مسيحي
الشرق عموما قبل مسلميه . فقد أجمع العقلاء والبصيرون بعواقب الامور
على أن دولة آل عثمان لا تزول من الوجود الا ودماء المسلمين والمسيحيين
تجري كالانهار والبحار في كل واد

وهي الملمة التي يجب على محبي الانسانية الصادقين في محبتهم العمل لمنع
وتوعها ودفعها بتعضيد الدولة العلية وتقوية - اجانها
ولقد اعتقدت الآن الروسية كما اعتقدت النمسا - وقد كانتا العدويتين
القديمتين للدولة العلية - بأن تقسيم الدولة العلية أمر مستحيل فعملت
كلاهما على المحافظة على السلام العام بالمحافظة على سياج الدولة العثمانية
فقد رأت النمسا أن حروبها مع الدولة العلية أضرت لها ضررا بليغا وظهرت
النتائج المشؤومة لهذه الحروب . فقد ضمنت النمسا من حروبها مع الدولة
العية وانتهى بها الامر أن فقدت أملاكها الايطالية التي تكونت منها
ايطاليا الحالية وفقدت كذلك أمام روسيا جزءا عظيما من مقاطعاتها الالمانية
ولقد عملت النمسا في عهد عدائها للدولة العلية على تهيج أمم البلقان
ضد السلطنة السنية باسم مبدأ الجنسيات لانها بصفتها دولة كاثوليكية كان

لا يمكنها أن تهيج هذه الامم الارثوذكسية باسم الدين . فكانت نتيجة تهيج النمسا لمام البلقان باسم الجنسيات وبالاعليها ، وذلك ان مبدأ الجنسيات نفسه وجد أنصارا كبارا في قلب المملكة النمساوية فقامت الحجة ونالت حريتها واستقلالها النوعي باسم مبدأ الجنسية الجبرية . وهامى أمة البوهيم قائمة اليوم بالمطالبة باستقلالها النوعي باسم مبدأ الجنسية البوهيمية . وقد أصبح من الظاهر للعيان أن دولة النمسا تنازع نزاع الموت في الايام الحالية بفضل مبدأ الجنسية

أما روسيا فقد قامت دائما في المسئلة الشرقية باسم الدين الارثوذكسي فعملت لاخراج الرومانيين واليونانيين والصربيين والبلغاريين وأهل الجبل الاسود من تحت سلطة الدولة العلية باسم الدين الارثوذكسي . فنشأ عن ذلك مع استقلال هذه الامم الصغيرة عداوة شديدة بينها وبين بعضهم الما وجدت في نفسها من الطمع لتوسيع دائرة أراضيها . ذلك فضلا عن ان الكنيسة اليونانية التي هي أم الكنائس الارثوذكسية أصبحت غير معتبرة عند البلغاريين والصربيين . والنزاع القائم بين هذه الجنسيات المختلفة في مقدونيا يبين جيدا درجة عداوتها لبعضها ودرجة الخطر الذي صارت اليه بلاد البلقان بسبب مسئلة الجنس والدين

واذا بحثنا فيما اكتسبته روسيا من حروبها مع الدولة العلية نجد انها عادت تركيا قرنا ونصف قرن وحاربها المرار العديدة وفقدت الرجال والمال بكثرة عظيمة في كل حرب . ولم تنل في الحقيقة من كل حروبها الا بلاد القرم والقوقاز . وقد رأت روسيا مالم تكن تظنه أبدا وهو

ان بعض البلاد الصغيرة التي حررتها كصربيا وبلغاريا واليونان ورومانيا
عادتها أشد العدا . ولا تزال صربيا ورومانيا واليونان سائرة في سياسة
لا ترضي روسيا . وعلى الاخص رومانيا التي تمكن بينها وبين المانيا والنمسا
والدولة العلية الصفاء والوداد . ولم تعتدل بلغاريا نفسها في سياستها مع روسيا
الا في هذه السنين الاخيرة من يوم اعتناق البرنس بوريس ولي عهد بلغاريا
للدين الارثوذكسي

وقد رأت روسيا من جهة أن حروبها مع الدولة العلية لا تفيد
غير انكسار التي قوي مركزها في آسيا وفي الشرق الاقصى والتي لها
أعظم مصلحة في إضعاف قوة روسيا واضاعتها الوقت والمال والرجال
في حروبها مع الدولة العلية . ورأت كذلك من جهة أخرى انه يستحيل
عليها أن تأخذ الاستانة وتنفذ وصية بطرس الاكبر لما تلاقيه في القيام
بهذا الامر من قبل الدولة العلية ومن دول أوروبا نفسها وفي مقدمتها
فرنسا حليفها ، ولذا فضت روسيا الاهتمام بمسائل الشرق الاقصى
ومسألة تركيا . وقد تحقق العثمانيون من هذه المسألة في المسألة الارمنية
وفي مسألة الحرب الاخيرة

وقد شهد السياسيون بأنه لا يوجد في تاريخ علاقات الدولة العلية مع
روسيا مثال للمسألة والصدقة مثل التلغراف الذي بعث به جلالة القيصر
الي جلالة السلطان يرجوه فيه أن يصدر أمره بإيقاف الحرب مع اليونان
أما الدولة التي أصبحت في هذه السنين الاخيرة حاملة لراية العدوان
ضد الدولة العلية فهي انكسار عدوة الاسلام وعدوة مصر

فلقد قضت هذه الدولة أزمانا طويلة ظهرت فيها للدولة العلية بمظهر الصديقة الوفية والحليفة الامينة . وكانت تكسب من هذه الصداقة الكاذبة بقدر ما كانت تخسر تركيا . فان لانكترا مصاحبة عظمى دائمية في أن روسيا تحارب تركيا لتضعف قواها فلا تستطيع مطاردة الانكليز في الهند والشرق الاقصى ولتضعف تركيا فتستولى انكترا على شيء من أملاكها بحجة الدفاع عنها . وفوق ذلك فان انكترا كسبت كثيرا من صداقة تركيا لها - بقطع النظر عن المكاسب المادية والتجارية والصناعية - بما كانت تنيلها هذه الصداقة من النفوذ عند المسلمين ومن السلطة التامة على مسلمي الهند . فلقد كاد أهل الهند يطردون الانكليز من بلادهم في ثورة سيياي الشهيرة لولا صداقة تركيا لهم هذه الصداقة التي حملت المرحوم السلطان (عبد المجيد) على اصدار منشور لمسلمي الهند أمرهم فيه بالركون الي السكينة والهدوء وعدم القيام باحداث الاضطرابات ضد حكومة صديقتهم ملكة بريطانيا .

فاذا كان الانكليز في الهند عاشوا طويلا آمنين شر المسلمين فما الفضل في ذلك الا للدولة العلية . وهامهم اليوم يدعون ان تركيا عدوتهم الحالية ، وصديقتهم القديمة أو عزت الي الهنود المسلمين بالثورة فثاروا ولا يزالون ثأرين وسواء كانت ثورتهم بايعاز من تركيا - وهو مالا أظنه لان الثورة قائمة بها قبائل - أو لومة - ولو كانت الدولة العلية أو عزت بالثورة لثار مسلمو الهند جميعا - أو بايعاز من ضمائرهم ونفوسهم . فدعواهم هذه دليل ساطع على أنهم استفادوا كثيرا من تظاهرهم بالصداقة للدولة

العلية واز اشبارهم العداوة لتركيا لا يضر الابهم
ولقد أدركت الحكومة العثمانية من يوم أن تولى أمور الدولة العلية
جلالة السلطان الاعظم (عبد الحميد الثاني) ان انكلترا خداعة في ودها وانها
تضر بمن تتظاهر لهم بالصدافة أكثر مما تضر باعدائها الظاهرين . فقد
أخذت من الدولة العلية قبرص بدعوى مساعدتها ضد روسيا في مؤتمر
برلين ثم دخت المؤتمر وخرجت منه بدون أن تستفيد تركيا من هذه
المودة الانكليزية الكاذبة أقل فأدة . بل ان الدولة العلية فقدت في هذا
المؤتمر ما لم تفقده قط في مؤتمر آخر

وقد شعرت روسيا كذلك بمد حرب سنة ١٨٧٧ أنها لا تستفيد من
حروبها مع تركيا ما يعرض عليها خسائرها العظيمة في هذه الحروب ففضت
سياسة مسالمة الدولة على سياسة العدا . فكان هذا التاريخ مبدأ للشقاق
والعداوة بين الدولة العلية وبين انكلترا . وقد ظهرت هذه العداوة بمظهرها
التام الواضح بعد احتلال الانكليز لمصر . حيث رأى جلالة السلطان في
هذا الاحتلال وفي خطة الانكليز فيه وفي خداعهم لجلالته ما علم منه ان
الانكليز لا صديق لهم وانهم اكبر أعداء تركيا وأن صداقتهم القديمة
المزعومة لم تكن الا حجابا ستروا وراءه عداوتهم المرة وأطاعهم الشديدة
ضد دولة آل عثمان

ومن ذلك الحين عملت انكلترا على دس الدسائس ضد السلطنة السنية في
كل أنحاء الاملاك المحروسة فأهاجت الارمن والكرديين والدروز . ولكن
دسائسها لم تأت بغير نتيجة واحدة . وهي اضعاف هذه العناصر التي اتخذتها

انكثرت آلاتها وظهرت قوة الدولة العلية أمام الملاكه . وقد علمت اليوم كل العناصر على اختلافها وجميع الامم صغيرة كانت أو كبيرة أن عدو اليونان الحقيقي ليس بتركيا التي صبرت على رذائلها طويلا بل انكثرت التي شجعتهما على الحرب وساعدتها في السر والجهر ومازالت مقدونيا من الاسلحة والذخائر الانكليزية مؤتملة قيامها في وجه تركيا أثناء الحرب فخابت آمالها وحبطت مساعيها ورجعت مخذولة خذلا ما سياسيا دونه خذلان اليونان الحربى

وقد حسب الانكليز أنهم يبلعون متناهم من مصر ووادي النيل ويضعون بذلك أيديهم على الحجر الاساسى للخلافة الاسلامية والساطنة العثمانية . ولكن مالاريب فيه هو أن نصيهم في مصر الفشل عاجلا أو آجلا . ولا يفرن القراء سيرهم الخالى في بلاد وادي النيل فانما هو نتيجة ضعف رجال مصر الذين سلمت اليهم مقاليد الامور . واستيلاء الانكليز على الادارات المصرية لا يؤثر مطلقا على جوهر المسئلة نفسها . وحيث فشل نابليون الاول يفشل الانكليز ولا محالة

وقد علمت انكثرت أن احتلالها لمصر كان ولا يزال ويكون مادام قائما سببا للعداوة بينها وبين الدولة العلية وان المملكة العثمانية لا تقبل مطلقا الاتفاق مع انكثرت على بقلتها في مصر . إذ أن مسئلة مصر بالنسبة لتركيا والخلافة تعد مسئلة حيوية . ولذلك رأت انكثرت أن بقاء السلطنة العثمانية يكون عقبة أبدية في طريقها ومنشأ للمشاكل والعقبات في سبيل امتلاكها مصر . وان خير وسيلة تضمن لها البقاء في مصر ووضع يدها على وادي النيل هو هدم السلطنة العثمانية ونقل الخلافة الاسلامية الى أيدي رجل

يكون تحت وصاية الانكليز وبمثابة آلة في أيديهم .. ولذلك أخرج سياسة بريطانيا مشروع الخلافة العربية مؤمليين به استماله العرب لهم وقيامهم بالعصيان في وجه الدولة العلية . ولكن العرب وغير العرب من المسلمين أرشد من أن يخدمهم الانكليز بمد ماصر من الامور وما جرى من الحوادث . ولذلك أيضا كنت ترى الانكليز ينشرون في جرائدهم أيام الحوادث الارمنية مشروع تقسيم الدولة العلية حماها الله جاعلين لانفسهم من الاملاك المحروسة مصر وبلاد العرب أى السلطة المامة على المسلمين

والذى يبغيض الانكليز على الخصوص في جلالة السلطان الخالى هو ميله الشديد الى جمع كلمة المسلمين حول راية الخلافة الاسلامية . وهو أمر يحول بينهم وبين أسمى أمانيتهم أى ايجاد الشقاق بين المسلمين وبعضهم وخروج بعض المسلمين على السلطنة العثمانية . ومن ذلك يفهم القارىء سبب اهتمام الانكليز بالافراد القليلين الذين قاموا من المسلمين ضد جلالة السلطان الاعظم وسبب مساعدتهم لهم بكل مافى وسعهم وانكثرا تعلم علم اليقين أنها لو استطاعت أن تجعل خليفة المسلمين تحت وصايتها أى آلة لها يكون لها سلطة هائلة ونفوذ لا حد له فى سائر انحاء المعمورة . فلنأتمتع عندئذ (لا قدر الله) أن تنفذ رغائبها عند المسلمين النابعين لها وغير النابعين بواسطة هذا الخليفة . ولذلك فهي بمماها على هدم السلطنة العثمانية تعمل على تحقيق غرض بعيد هو أكبر اغراضها وأمنية سياسية دونها كل الامانى

وكما ان مشروع الاستيلاء على السودان بواسطة مصر هو من المشروعات القديمة عند الانكليز - ويثبت ذلك ارسال غوردون وساويل باكر الى آخر السودان بواسطة حكومة مصر التي أحسنت الظن بالانكليز فان مشروع جعل الخلافة الاسلامية تحت وصاية الانكليز وحمائهم هو مشروع ابتكره الكشيريون من سواسهم منذ عهد بعيد . وقد كتب كتاب الانكليز في هذا الموضوع ومنهم المستر بلانت المعروف في مصر فقد كتب كتابا قبل احتلال الانكليز لمصر في هذا المعنى سماه (مستقبل الاسلام) وأبان فيه أغراض حكومة بلاده وأمانى الانكليز في مستقبل الاسلام وقد كتب في فاتحة كتابه مانصه

لا تقنطوا فالدر ينثر عقده ليعود أحسن في النظام وأجلا

أى أن هدم السلطنة العثمانية لا يضر بالمسلمين بل ان هذا لعقد العثماني ينثر ليعود عقدا عربيا أحسن وأجمل - ولكن ما لم يقله المستر بلانت هو ان قومه يريدون هذا العقد العربي في جيد بريطانيا لا في جيد الاسلام

ويبين المستر بلانت في كتابه هذا قوة العالم الاسلامي وكيف ان المدير لاموره يكون قويا واسع السلطنة ويبين كذلك مشروع نابليون الاول وكيف انه اراد أن يكون خليفة المسلمين وان يقود قواهم - وهو يريد بذلك استلقات أنظار قومه الى مشروع هم القائمون به الآن وبين المستر بلانت ايضا ، أن مركز الخلافة الاسلامية يجب ان يكون مكة وان الخليفة في المستقبل يجب ان يكون رئيسا دينيا لملك ادنيويا ، أي ان الامور الدنيوية

تترك لانكترا تدبر أمورها كيف تشاء! ويعقب المستر بلانت ذلك بقوله « ان خليفة كهذا يكون بالطبع محتاجا لحليف ينصره ويساعده وما ذلك الحليف الا انكترا! » وبالجملة فحاضرة المؤاخذة كتاب مستقبل الاسلام بري - وما هو الا مترجم عن آمال أبناء جنسه - أن الاليق بالاسلام أن ينصب انكترا دولة له ولم يبق للمستر بلانت الا أن يقول بأن الخليفة يجب أن يكون انكليزيا !!

يتضح جليا للقارىء مما قدمناه أن ليس للسلطنة العثمانية وبالطبع للخلافة الاسلامية في هذه الايام عدو يجاهر بالعدوان لها ويمل على ذلك أركانها وتقويض بنيانها غير انكترا. ويمكن تعريف المسئلة الشرقية اليوم بأنها مسئلة النزاع القائم بين انكترا وبين بقية دول أوروبا بما فيها الدولة العلية. فان معاداة انكترا للدولة العلية هي في الحقيقة معاداة لكل المسيحيين ولكل المسلمين أي للملئين الغربي والشرقي

وازواجب أوروبا أمام هذه الحرب السياسية حرب الدسائس والاكاذيب القائمة بها انكترا ضد الدولة العلية. واضح جلي. فحتم عاينها اذا كانت تعمل للمحافظة على السلام العام وعلى أرواح البشر أن تحبط مساعي انكترا في الشرق وان تقف لها بالمرصاد. ومن العدل ان نقول ان حكومتى فرنسا والروسيا قامتتا في المسئلة الارمنية بابطال الدسائس الانكليزية واحباط مساعي سواس انكترا. وأظن ان لم يغيب عن ذهن انسان أن انكترا عرضت رسميا على الدول الأوروبية خلع جلالة السلطان الاعظم فرفضت الروسيا وفرنسا طلب انكترا قبل كل الدول. وقد قامت

ألمانيا في الحرب الاخيرة بواجب أوروبا كلها ضد انسكاترا فتم للدولة العلية
 الظفر والنصر وتم لبريطانيا التمثل والحذلان
 أما واجب العثمانيين والمسلمين أمام عداوة انكترا للدولة العلية فيبين
 لا ينكره الا الخونة والخوارج والدخلاء . فواجب العثمانيين ان يجتمعوا
 جميعا حول راية السلطنة السنية وان يدافعوا عن ملك بلادهم بكل قواهم
 ولو تفانى الكثيرون منهم في هذا الغرض الشريف حتى يعيشوا ابد الدهر
 سادة لا عبيدا . وواجب المسلمين ان يلتفتوا أجمعين حول راية الخلافة
 الاسلامية المقدسة وأن يعززوها بالاموال والارواح ففي حفظها حفظ
 كرامتهم وشرفهم وفي بقاء مجدها رفعتهم ورفعة العقيدة الاسلامية
 المقدسة



المسئلة الشرقية

في

القرن الثامن عشر

لقد حدثت في القرن الثامن عشر أزمة شديدة مهمة للمسئلة الشرقية هي الحرب بين الدولة العلية والروسيا التي طالت من أواخر عام ١٧٦٨ الي أوائل عام ١٧٧٥ وهذه الازمة كانت شديدة غزيرة النتائج وأصلا لتداخل أوروبا في أمور الدولة العثمانية باسم الدين وقد كانت الروسية حليفة للبروسيا في ذلك العهد محالفة أمضي عليها فريدريك الكبير ملك بروسيا وكاترينا امبراطورة الروسية يوم ١١ ابريل سنة ١٧٦٤ وكان أجلها ثمان سنوات . وسبب تداخل البروسيا في المسائل الشرقية هو تحالفها مع الروسية نحو قرن . وداعية هذا التحالف هي العداوة الشديدة التي كانت بين النمسا والبروسيا في المانيا وبين النمسا والروسيا في مسائل الشرق . وقد كان يعقد أحيانا اتفاق بين هذه الدول اثلاث ولسكن العداوة بقيت طويلا بالرغم عن ذلك شديدة بينها وبين بعضها ومن أسباب تحالف الروسية والبروسيا غير ما ذكرناه اشتراكها في المصلحة ضد بولونيا التي كانت جمهورية وقتئذ وفي حالة من الفوضى عظيمة . وقد كان يروق للروسيا والبروسيا بقاء نفوذها قويا في بولونيا والعمل على زيادة الفوضى فيها لتمكنا من تقسيمها والاستيلاء عليها وكان قد عقد بين فرنسا والنمسا عام ١٧٥٦ تحالف يضمن للنمسا مساعدة فرنسا الحربية والسياسية في كل أوروبا ويضمن لفرنسا عدم تداخل

النمسا ضدها في حالة قيام الحرب بينها وبين انكلترا . وقد حصل وقتئذ
 أن (أوجست الثالث) ملك جمهورية بولونيا توفي وأرادت الروسية بالاتفاق
 مع البروسيا أن تعين بدلا عنه (ستانيسلاس أوجست بونيا تومسكي)
 الذي كان محبوبا عند كارينا امبراطورة الروسية وعاشقا من أكبر عشاقها
 وكانت ترمي الروسية بهذا التعيين الى القاء بذور الشقاق والشحناء بين
 البولونيين واحداث الاضطرابات في بلادهم بواسطة هذا الملك الجديد
 فعمل عندئذ الوطنيون البولونيون لدى الباب العالي مستغيثين به
 لاحتياط مساعي الروسية في تعيين (ستانيسلاس) ولكن سفيرا الروسية
 والبروسيا بالاستانة بذلا ضدهؤلاء الوطنيين كل جهدهم

وكان من صالح النمسا وفرنسا عدم نجاح الروسي والبروسيا في مساعهما
 لتعيين (ستانيسلاس) فخرضا الدولة العلية ضد روسيا والبروسيا
 وأظهرتا لها فائدة تداخلها في صالح البولونيين . ولكن المرحوم السلطان
 (مصطفى الثالث) كان يعجب بفريدريك ملك البروسيا إعجابا زائدا فلم
 يرض لذلك العمل ضده . سيما وان تعيين (ستانيسلاس) كان لا يضر
 بمصالح الدولة مطلقا . فتم تعيين هذا الرجل ملكا لبولونيا يوم ٧ سبتمبر
 سنة ١٧٦٤

وما استقر هذا الرجل على كرسي ملك بولونيا حتى خلق فيها المشاكل
 والاضطرابات طبقا لرغائب كارينا وسهل لها التداخل في شؤونها
 الداخلية . فطلب عندئذ بتاريخ ٢٥ نوفمبر من السنة نفسها سفيرا الروسية
 والبروسيا من حكومة بولونيا جملة طلبات تخالف المصلحة البولونية

فرفضها مجلس نواب بولونيا وكان رفضه هذا سبباً لتداخل روسيا
فدخلت بولونيا بجيوشها الجرارة وأسالت الدماء وأنحت على الكثيرين من
الابرياء واستمرت الثورات في بولونيا تباعا والعالم كله ناظر اليها بلا حراك
حتى بلغت روسيا مرامها من هذه الديار التعميسة وصارت بولونيا
مستقلة في الظاهر محكومة في الباطن بأهواء روسيا وأغراضها

وفي هذا الاثناء تعين المسيو (شوازيل) وزيرا لخارجية فرنسا وكان
ألد أعداء روسيا . وعلى الخصوص كان عدوا شخصياً لكاترينا فكتب
الى المسيو « دي فرجين » سفير فرنسا من الاستانة يأمره بعمل كل ما في
سعته لخلق المشكلات بين الدولة العلية وروسيا وأرسل اليه ثلاثة ملايين
من الفرنكات ليشتري بها ذمم بعض رجال الدولة . وكان الوطنيون
البولونيون حين ذلك يستغيثون بالدولة ليلا ونهاراً

وحصل ان بعض قسوس روسيا جاؤا بلاد الدولة وأخذوا يهيجون
أهالى اليونان وكريد والجبل الاسود باسم الدين حاملين بأيديهم وعلى
صدورهم الصايب . وقام وقتئذ قسيس اسمه « ستيفانو بيكولو » في شهر
اكتوبر عام ١٧٦٧ يدعو أهالى الجبل الاسود للقيام ضد المسلمين فهاجت
الاهالى هياجا شديدا

فلما رأت الدولة ذلك ووقفت على الفظائع العديدة التي جرت في
بولونيا أذرت الدولة الروسية بالخروج من بولونيا فرفضت وكان
ذلك سبب الحرب

وقد كانت الامة العثمانية ميالة الى البولونيين حتى ان المسيو « زيجلين »

سفير روسيا بالاستانة كتب الى حكومته بتاريخ ٢٦ يوليو سنة ١٧٦٨ يقول « انه وان كانت الحكومة العثمانية مطلقة النفوذ والسلطة في بلادها ولكن للرأي العام صوتا اذا ارتفع لا تقدر الحكومة على مخالفته »
وعند ما علمت روسيا باستعداد الدولة العلية للحرب أرسلت عساكرها واحتلت « كاركوفيا » . وقد أعلنت الحرب يوم ٦ أكتوبر سنة ١٧٦٨ وكان ذلك بالقاء الدولة العلية سفير روسيا في القصر المعروف (بقصر السبعة أبراج) وبهذه الصورة كانت تعلن الحرب في القرن الماضي

وقد أرسلت الدولة عندئذ منشورا للدول الأوروبية بتاريخ ٣٠ أكتوبر سنة ١٧٦٨ أبانت فيه أسباب اعلانها الحرب للدولة الروسية قائلة « لقد تجاسرت روسيا وقضت على حرية بولونيا وأجبرتها على قبول ملك ليس من عائلة ملوكية ولم تنتخبه الامة ملكا عليها طبقا لقوانينها وشرائعها . وأسالت روسيا الدماء وذبحت كل من خالف سياستها وأغراضها وخربت الاراضي والاملاك »

وقد أدهش اعلان الحرب بهذه الصورة كل رجال السياسة الأوروبية وجعل كل همهم الانتفاع منها . أما المسيو { دي فرجين } سفير فرنسا فقد أعاد الى حكومته الثلاثة ملايين وكتب اليها « ان رجال تركيا لا يشتري ذممهم لانهم يعملون بمقتضى مصلحة بلادهم وشرف دولتهم »
ومضت أشهر طويلة اشتغل فيها كل خصم بالتجهيز والتحضير ولم تقم الحرب الحقيقية الا في شهر يوليو عام ١٧٦٩ على شواطئ نهر (الدينستر)

وقد اقتتل الجيشان طويلا حول (خوتين) واختلف المؤرخون في اثبات وجود فرق روسية بين الجيش الروسي فقال بعضهم بوجودها بمقتضى المعاهدة التي بين روسيا والبروسيا وأنكر البعض الآخر وجودها . ولكن الرأي الأول أقرب الى العقل والحقيقة

وفي يوم ١٦ سبتمبر هجم الجيش العثماني على الجيش الروسي ووقعت بينهما معركة هائلة انتهت بانتصار الروسيين واستيلائهم على مقاطعة (البغدان) . وأخذوا بعد هذه الواقعة قلاع خوتين وأزوف وتاجا وزوج . ثم احتلت العساكر الروسية يوم ١٦ نوفمبر سنة ١٧٦٩ مدينة (بخارست) التي هي عاصمة رومانيا الحالية . أما مقاطعة البغدان فهي تكون مع مقاطعة الافلاق مملكة رومانيا نفسها

وقد اغترت روسيا بهذا الانتصار وأرادت فصل اليونان من أملاك تركيا — وكانت أرسلت من قبل بطلا اسمه { أورلوف } ليهيئ اليونانيين ضد الدولة العلية — فأرسلت في البحر الابيض المتوسط في آخر سنة ١٧٧٠ أسطولين الاول تحت (قيادة سيبروتوف) الروسي والثاني تحت قيادة { ألفنستون } الانكليزي وقد تجمعت عندئذ جماعات اليونان وتظاهرت بالقيام في وجه الدولة ولكنها تفرقت شذر مذر عند تقدم الاتراك والالبانيين . فرجعت روسيا بخفي حزين ويئست من تخليص اليونان في ذلك الحين

ثم أرادت روسيا أن تنتقم من الدولة العلية لفشل مساعيها في اليونان فعاكست مراكبها وأسطولها ولم تأخذ بعد حرب وقتال

عنيفين الا بعض السفن العثمانية في «شمسه»

*
*
*

ولقد كانت سياسة كل دولة من الدول الأوروبية في هذه الحرب مختلفة عن الأخرى. فكانت فرنسا مصادقة للدولة العلية ومعادية لروسيا وكانت الدولة الوحيدة المنتصرة لبولونيا. ولكن صداقتها للدولة العلية وانتصارها لبولونيا لم ينتجا أقل نتيجة لان الدول الثلاث روسيا وبروسيا والنمسا اتفقت في آخر الأمر كما سيراه القارىء على تجزئة بولونيا فكان من المستحيل على فرنسا مساعدة تركيا مساعدة فعلية خوفا من اشتعال نار الحرب بينها وبين الدول الأوروبية. ولكن ما كانت تخافه لنفسها تشجع الدولة العلية على الاتيان به فهي كانت تخشى الحرب ولكنها كانت أول محرصة للدولة العلية عليها. وهكذا الدول كلها والامم جميعها متى رأت في عمل من الاعمال احتمال الخير والشر تفضل أن يقوم به غيرها فان أنتج خيرا استفادت منه وان أنتج شرا اجتنبت أضراره وكان «شوازيل» وزير فرنسا الأكبر ذى سياسة خرقاء حيث كانت النمسا ساخرة من تحالفها مع فرنسا لا تقبل منها نصيحة ولا تتبع لها رأيا. وكانت سياسة «شوازيل» ترمى الى اضعاف روسيا وتركيا في آن واحد كما يتضح ذلك جليا من مذكرة رسمية أرسلها في شهر ديسمبر عام ١٧٦٩ الى البرنس (كونيتز) وزير النمسا الأكبر وجاء فيها (وترى فرنسا أن أحسن شئ يعود على تحالفنا أي تحالف فرنسا والنمسا بالفائدة هو ان تستمر الحرب بين روسيا وتركيا مع انتصارات متبادلة من الجانبين حتى يضعف

الحصان بدرجة واحدة . واذا ساعدتنا الايام تكون لنا الصدف كلها
والفوائد أجمعها)

أما النمسا فكانت قد عقدت مع روسيا في عام ١٧٥٣ معاهدة ضد
الدولة العلية ولكنها بطلت عام ١٧٦٢ بسبب تحالف روسيا مع البروسيا
ولما أعلنت الحرب بين الدولة العلية وروسيا عام ١٧٦٨ اتبعت النمسا
في بادئ الامر سياسة الحياد مع مسالمة الدولة العلية

وفي ختام عام ١٧٦٩ كلفت النمسا سفيرا في الدولة العلية الميسيو (توجوت)
أن يعرض على وزراء جلالة السلطان رغبة النمسا للتدخل في عقد الصلح
بين المتحاربين . ولم تكن رغبة النمسا الحقيقية من هذا التدخل عقد
الصلح بل كان غرضها الوصول الى امتلاك مقاطعة من أملاك تركيا
وتوسيع نطاق المملكة النمساوية

وسيجد القاريء في خلال هذا الفصل الحطة التي جرت عليها النمسا
مع الدولة العلية وكيف انها حالقتها ضد روسيا وعمت في الوقت نفسه
على الاتفاق مع روسيا ضد تركيا !!!

وأما البروسيا فقد كان ملكها وقتئذ « فريدريك الكبير » المشهور
بدهائه السياسي وقدرته الفائقة على الاستفادة من كل حادث أوروبي
. وقد جعل سياسته في المسئلة الشرقية الاستفادة من الحرب بين الدولة
العلية والروسيا مع المحافظة على استقلال الدولة العلية . وكتب في مذكراته
السياسية الشهيرة « انه يوجد لنا طريقان أمام تقدم روسيا واتساع
أملاكها ، الاولى إيقافها في تقدمها وقتوحاتها . والثانية — وهي أحكم

طريقة - الاستفادة من تقدمها واتساع أملاكها وفتوحاتها بمهارة،
وقد اتبع فريدريك الكبير الطريقة الثانية كما كتب في مذكراته فكان
يتحالف مع روسيا وعلى تمام الصفاء مع تركيا وبذلك كان يستفيد
أكثر من غيره

ولما قامت الحرب بين الدولة العلية وروسيا كان اشتغال فريدريك
الكبير منحصرا في الوقوف على الخطة التي ستجرى عليها النمسا . هل
تبقى ودية لفرنسا حليفها أي مصافية لتركيا وبولونيا أو تخضع لروسيا
فيفقد التحالف الروسي البروسي أهميته الأولى . وقد وجد عند فريدريك
بدهائه الغريب وذكائه العالى طريقة مثلى لفصل النمسا من فرنسا ولمنعها
من معاداة روسيا في الشرق وفي بولونيا ولبقاء التحالف الروسي البروسي
بأهميته الأولى . فوضع لذلك مشروع تحالف ثلاثي بين روسيا وبروسيا
والنمسا يكون غرضه حل المسئلة الشرقية لاني تركيا نفسها بل في بولونيا
بأن تقسم هذه المملكة بين هاتيه الدول الثلاث

وهذه الامنية كانت اكبر أمانى فريدريك الكبير أيام حكمه لانه كان
يري في تقسيم بولونيا ربحا كبيرا للبروسيا واتساعا لنطاقها بضم بولونيا
البروسية لها

وأول مرة فاتح المسيو { سولس } سفير بروسيا في سان بطرسبورغ
المسيو { بابين } وزير روسيا الاكبر في مسئلة تقسيم بولونيا كان جواب
الوزير الروسي ان تحالف الدول الثلاث يجب أن يرمي أيضا الى تقسيم
الدولة العلية . فلما سمع فريدريك هذا الجواب تخوف منه وأهمل أمر

التحالف الثلاثي في الظاهر

وقد قلنا ان فريديريك الكبير كان يرى في بقاء الدولة العلية فائدة عظيمة
لبروسيا وكان يستطاع بجمدة ذهنه وقوة بصيرته من خلال الايام الآتية ان
مودة روسيا لبروسيا لا تدوم أبد الدهر وان بناء الدولة العلية قوية
يكون كحاجز حصين امام روسيا وكصخرة عالية واقفة امامها وبالجملة
تكون لبروسيا قوة عظيمة يمكن الاعتماد عليها حسب مقتضى الحوادث
وقد برهنت الايام على ان فريديريك الكبير — وهو أول عامل على
توسيع نطاق بروسيا وأول واضع لمشروع الوحدة الألمانية الذي تم على
يدي غليوم الاول وبسمارك — نظر نظرة بصير فجاء من سلالة جلالته
الامبراطور غليوم الثاني مدركا أهمية التودد للدولة العلية وتوثيق الروابط
بينه وبينها فاستفاد العالم من هذه المودة المزدوجة واستفادت ألمانيا
منها كثيرا

ولما علم فريديريك الكبير بجواب وزير روسيا تخوف منه كما قدمنا
ولكنه لم يرجع عن عزمه الاول وهو العمل على تقسيم بولونيا . فرأى
لنوال هذه البغية أن يتجيب الى النمسا ويخدمها اتحادا سريريا يوقع روسيا
في الارتباك واللبال فتضطر الى قبول آرائه وتدرك فائدة التحالف معه
والعمل بنصائحه . وبالفعل تقابل في مدينة (نيس) مع (جوزيف الثاني)
امبراطور النمسا وابن (ماري تيريزيا) الشهيرة وتوصل الي عقد اتفاقية
ودية معه في شهر أغسطس عام ١٧٦٩

فكانت نتيجة هذه الاتفاقية ان روسيا صارت في بلبال زائد كما أراد

فريدريك . فلها كانت تجهل مضمونها وكانت تظن انها اتفاقية عقدت للعمل ضدها في المسئلة الشرقية فاضطرت الى تجديد مخالفتها مع البروسيا يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٧٦٩ واشترط جعل أجلها ممتدا الي غاية عام ١٧٨٠ فنالت بذلك البروسيا ما كانت تمناه وهوان الروسي اعرفت بمقدار مخالفتها معها وصار لآرائها عندها تقدير القبول والرضي وباتفاقها مع النمسا اتفاقية ودية صارت حليفة الروسية واصديقة النمسا ووضعت بذلك الاساس لمشروعها العظيم . اى مشروع تقسيم بولونيا بين الدول الثلاث

وقد بعث فريدريك الكبير بأخيه البرنس هنري الى سان بطرسبورغ لزيارة القيصر فوصل عاصمة الروسية يوم ١٢ اكتوبر سنة ١٧٧٠ وقد تحدث كثيرا مدة وجوده في بطرسبورغ مع القيصرة ورجال السياسة الروسية في مشروع عقد تحالف ثلاثى بين الروسية والبروسيا والنمسا بقصد تقسيم بولونيا . فوجد لهذا المشروع قبولا عند الروسيين لم يكن عندهم من قبل

وقد بذلت البروسيا في ذلك الحين جهدها في اقناع الدولة العلية بضرورة ايقاف الحرب والتوسط في الصلح حتى رضيت الدولة العلية وطلبت بمذكرة تاريخها ١٢ أغسطس سنة ١٧٧٠ من بروسيا والنمسا التوسط بينها وبين الروسية في أمر عقد الصلح

يرى القارى . مما تقدم سياسة كل من دول فرنسا والنمسا والبروسيا في المسئلة الشرقية في القرن الثامن عشر . أما انكلترا فقد جرت في هذا القرن الماضي على سياسة مزدوجة . فكانت تساعد روسيا في الحرب

كل المساعدة وتظهر للدولة العلية بمظهر الصديقة لتقف على أسرارها حيث تطلع روسيا عليها . ولما قامت الحرب بين الدولتين العلية والروسية كانت انكلترا مشغولة بأمور الهند التي كانت استولت عليها منذ بضع سنين من قبل

ولما كانت روسيا مصافية لانكلترا وغير ميالة وقتئذ للاستيلاء على الهند وسلبها من أيدي الانكليز وكانت فرنسا هي العدو اللدود لانكلترا والدولة الوحيدة التي كانت تخاف منها انكلترا على الهند — وقد كانت الهند من قبل ملكا لفرنسا ومستعمرة من مستعمراتها — اتبع الانكليز سياسة التقرب من روسيا والتودد اليها ومعاداة فرنسا والدولة العلية وفضلا عن الاسباب السياسية الداعية لذلك فهناك اسباب تجارية دفعت الانكليز لمحاباة روسيا فقد كانت انكلترا تاجر وحدها في الشمال وكانت واردات روسيا كلها من انكلترا . وكان الكثير من البحارة الانكليز موظفين في المراكب الروسية . وقد أراد (شوزيل) وزير فرنسا الأكبر أن يضرب المراكب الروسية بالعمارة الفرنسية وقدم بذلك مذكرة لمجلس نظار فرنسا ولكنها رفضت وقبل رفضها أعلنت وزارة لندره ان كل عمل يعمل ضد روسيا يعد اهانة لانكلترا واعتداء عليها . وهو قول يبين مقدار ميل الانكليز للدولة الروسية في ذلك الحين أو بعبارة أصرح يبين مقدار المكاسب العظيمة التي كانت تكسبها انكلترا من روسيا ومن أكبر الاسباب التي جعلت انكلترا ضعيفة الصوت في مسائل الشرق في ذلك الحين هو اضطراباتها الداخلية وقيام الامريكيين بالثورة

ضدها مطالبين بالاستقلال الذي نالوه بدماء أبطالهم أي بأعز الأثمان
ومن غريب أمر السياسة الانكليزية انها مع محاباتها للروسية كل
المحابة أرادت أن تظهر لتركيًا بمظهر الصداقة كما قدمنا فعرضت عليها في
صيف عام ١٧٧٠ أن تتدخل بينها وبين روسيا لعقد الصلح فأجابت
الدولة العلية سفير انكلترا بالاستانة { السيرمورى } بمذكرة حكيمة جاء
فيها : انه لمن الامور المدهشة الخارقة للعادة ان انكلترا تعرض على الباب
العالي توسطها في الحرب مع ان لها سفننا في الاسطول الروسي حاربت
ضدنا . ولذلك نحن نعتقد ان طلبها التوسط في الحرب ليس الاستارا
لاغراض أخرى ينويها العدو (أي الروسية) . فتلعن انكلترا خطتها
وسلو كما بدون مراوغة حتي يعلم الباب العالي مع أي المتحاربين هي أممه
أوضده ؟؟ . وقد أحدثت هذه المذكرة الحازمة تأثيرا شديدا لدى الانكليز
وأفهمتهم أن الاتراك خيرون بسياستهم وبمافيهما من الغش والنفاق
فاضطروا لسحب ضباطهم وعساكرهم من الاساطيل والجيوش الروسية
ولكن ذلك جاء بعد ان قضت الحرب معظمها

ولما طلبت الدولة العلية من بروسيا والنمسا التوسط في أمر الصلح
أبلغت انكلترا روسيا هذا الطلب لتأخذ حذرهما فكانت وظيفة انكلترا
في هذه المسئلة أشبه بوظيفة جاسوس على الدولة العلية للروسية

*
*
*

ولما علمت روسيا بواسطة الانكليز بأمر طلب الصلح أرادت
أن تفرقل مساعي البروسيا والنمسا فأمرت الجنرال روماتسوف بتاريخ

٢٦ ستمبر سنة ١٧٧٠ ان يكتب الى الصدر الاعظم بأن روسيا مستعدة للمناقشة مع الباب العالي مباشرة في أمر الصلح متى أطلق سراح {أوبرسكوف} سفير روسيا في الاستانة. وبذلك منعت روسيا البروسيا والنمسا من التداخل في أمر الصلح مدعية بان تداخل هاتين الدولتين يدعو لتداخل فرنسا. وهو الامر الذي رفضه القيصر ع رفضاً باتاً

وفي هذه الاثناء استولى الجيش الروسي على مدينة بندروا وكرمان وبرايلا. ولما طال أمر المراسلات بشأن الصلح بين فريدريك وكاترينا كتبت قيصره الروس الي ملك بروسيا بتاريخ ٢٠ ستمبر من السنة نفسها توضح له الشروط التي تشترطها لعقد الصلح. وهي الاستيلاء على أزوف وكباردا مع استقلال البغدان والافلاق أو بقاء هاتين المقاطعتين تحت حكم روسيا مدة ربع قرن كغرامة حربية. واستقلال ترنارالبرابي والقرم وحرية الملاحة في البحر الاسود والتنازل عن جزيرة لاروسيا في الارخبيل وعفو عام عن كل اليونانيين الذين ثاروا ضد الدولة العلية أثناء الحرب

فلما أطلع فريدريك على هذه الشروط اندهش غاية الاندهاش من مطالب روسيا وأطماعها. وقد حصل وقتئذ أن رئيس افسندي (وهي وظيفة كانت في الدولة العلية بمثابة وظيفة ناظر الخارجية) أخبر سفيري النمسا وبروسيا ان الدولة العلية لا تقبل المخاطرة مع روسيا مباشرة بشأن الصلح ولكنها تقبل توسط النمسا والبروسيا وأبلغهما انه أعلن ذلك للجنرال رومانسوف

وقد كتب فريدريك لما اطلع على شروط الصلح المبعوثة اليه من القيصرة الى أخيه البرنس هنري - الذي كان لا يزال بسان بطرسبورغ - بتاريخ ٣ يناير سنة ١٧٧١ ، لقد اندهشت اندهاشا عظيما لما اطلمت على الشروط التي تقدمها روسيا لصلح وانه يستحيل على أن أقدمها للاتراك أو للنمساويين لانها شروط لا يمكن قبولها ، وأبان فريدريك في كتابه لآخيه أن هذه الشروط لا يمكن لدول أوروبا قبولها وانها تعتبر اعلان حرب للنمسا . وقد كتب بنفسه للقيصرة بتاريخ ٥ يناير سنة ١٧٧١ انها اذا كانت تريد اجتناب الحرب مع النمسا يجب عليها أن تكتفي بأخذ أزوف والكاباردا وبحرية الملاحة في البحر الاسود

وفي أثناء ذلك كانت القيصرة كاترينا تتحدث مع البرنس هنري ، بسان بطرسبورغ في أمر تقسيم بولونيا . فلما كتب البرنس هنري الى أخيه بذلك سر ملك بروسي بحيث جاء هذا الامر موافقا لرغائبه ، واجتهد في جعل حل المسئلة الشرقية في بولونيا فقط لعلمه بما لبقاء الدولة العلية من اللزوم والاهمية . فأراد تقسيم بولونيا على شرط ان روسيا لا تأخذ البغدان والافلاق

وقد جرى عندئذ ان النمسا طمحت لمخالفة تركيا ضد روسيا والعمل للاستفادة من هذه المخالفة ولو ضد تركيا نفسها . فبعث { كونيتر } رئيس الوزارة النمساوية الى المسيو « توجوت » سفير النمسا في الامتانة يأمره بمخاطبة رجال الدولة العلية في أمر عقد محالفة بين النمسا وتركيا يشترط فيها ان تركيا تدفع سنويا للنمسا ٣٤ مليوناً من الفلورينو أى فوق

الثلاثة ملايين من الجنيهات . وان تنازل لها عن (الافلاق) ومدينة بلغراد وان تجعل للنمساويين في ممالك الدولة العلية أهم الامتيازات التجارية . وفضلا عن كل هذه الشروط تقدم للنمسا في حالة الحرب من خمسين الى ستين ألف مقاتل . وتشتترط النمسا على نفسها مقابل ذلك أن تحارب الروسيا مع تركيا اذ لم ترض القيصرية بطريق المخبرات اعادة البلاد التي استولت عليها الى الدولة العلية

وقد سعي { كونيترز } عندئذ لدى فريدريك ملك بروسيا أن يبقى على الحياد اذا قامت الحرب بين النمسا والروسيا ولكن فريدريك اتبع طريق المراوغة فلم يجب بجواب صريح

أما فرنسا حليفة النمسا فكانت تعمل في هذا الحين على مساعدة تركيا باسطولها مقابل عوض مالي . ولكن (توجوت) سفير النمسا { الذي كان يكاتب سرا الحكومة النمساوية كجاسوس لها مقابل أجرة شهرية وكان في الحقيقة يفسدها ولا يخدم الا مصلحة النمسا وطنه } بذل أقصى جهده من حين علم بهذا المشروع على احباط مسعي فرنسا فأبان لرجال الدولة العلية ان مساعدة الاسطول لا تفيد شيأ ما لان الحرب برية محضة لاجرية . وان قصد فرنسا ليس مساعدة الدولة العلية بل معاداة الروسيا ومد أمد الحرب الي ماشاء الله . فأفلح { توجوت } واقتنع رجال الدولة بصدق أقواله وصحة أفكاره ورفضوا مشروع فرنسا

وقد كان رجال الدولة العلية يؤملون ان اتفاق فرنسا مع الدولة يحمل النمسا { حليفة فرنسا } على مساعدة تركيا . ولكن النمسا كانت تخشي

هذا الامر لمافيه من التقييد لها ولعلمها بانها لا تستطيع أن تخدع تركيا اذا كانت فرنسا متحدة معها بخلاف ما اذا كانت هي المتحدة مع الدولة العلية دون غيرها . ولذلك كان فشل مشروع فرنسا مضرا بالدولة العلية مفيد للنمسا حليفة فرنسا !!!

ولما فشل مسعي فرنسا عمل { توجوت } على عقد التحالف بين النمسا وتركيا . ومن حسن حظ النمسا وقتئذ ان خضعت تاتار بلاد القرم للروسيا وصارت كتاتار البسراني فاضطرت الدولة بهذا السبب لتعجيل الاتفاق مع النمسا وقبول معاهدة التحالف . فأمضت المعاهدة مساء يوم ٦ يوليو سنة ١٧٧١ . وشروط هذه المعاهدة ان النمسا تتعهد بمساعدة تركيا ضد روسيا وعدم سلخ أي جزء من الاملاك العثمانية . والمحافظة على استقلال بولونيا مراعاة لشرف الدولة العلية . وان تتعهد تركيا بدفع مبلغ ١١٣٥٠٠٠٠ فلورينو للنمسا (لا ٣٤ مليوناً كما طلبت النمسا أولاً) أي نحو المليون جنيتها وبالتنازل للنمسا عن أراضي { الافلاق } . وبمساعدة الرعايا النمساويين في بلاد الدولة العلية على ترويج تجارتهم وصنائعهم . واشترط بين الدولتين المتعاهدين ان هذه المعاهدة يكتم أمرها خصوصا على فرنسا حليفة النمسا ذلك

وقد رفع (توجوت) صورة هذه المعاهدة الى حكومة دولته وطالب التوقيع عليها

فلما وصلت صورة المعاهدة الي (كوينيز) اطمان من جهة الدولة العلية وأخذ يهدد روسيا مؤملا بهذا التهديد حملها على مخارته في شأن

تقسيم الدولة العلية . وقد كان ذلك وأرسلت روسيا الكونت (ماسين) حاملا لجملة مشروعات تختص بالدولة العثمانية ومكلفا من قبل القيصرية بعرضها على (كونيتر) . ومن ضمن المشروعات مشروعان يشتملان على عقد اتحاد بين النمسا وروسيا يكون غرضه الوحيد اخراج الاتراك من أوروبا وتقسيم الدولة العلية . فالمشروع الأول يبين صورة تقسيمها بين الدولتين بأن تأخذ النمسا صربيا والبوسنة والهرسك والبانيا ومقدونيه ويترك للروسية بقية أملاك الدولة العلية بما فيها الاستانة . وفي المشروع الثاني تأخذ النمسا الافلاق وصربيا وبلغاريا والهرسك وتأخذ روسيا مقدونيه والبانيا ورومانيا وقسما عظيما من الارخبيل وآسيا الصغرى والاستانة . وتأخذ كذلك روسيا الاراضي الواقعة على شمال الدانوب وشواطئ البحر الاسود . أما بلاد القرم والموره فتبقى مستقلة

والمشروع الثالث يتضمن بقاء الترك على الشاطئ الشمالي للدانوب واعطاء صربيا والبوسنة والهرسك للنمسا وما على شواطئ البحر الاسود للروسيا مع استقلال التانار . وقدم الكونت (ماسين) غير ذلك مشروعات أخرى تتعلق بتقسيم بولونيا بين روسيا والنمسا والبروسيا

وقد اطلعت النمسا على هذه المشروعات كلها وتباحث فيها واحدا بعد آخر في وقت كانت تعد فيه متحالفة مع تركيا تحالفا يقتضي رد روسيا عن أملاك الدولة العلية وبقاء تركيا سليمة كما كانت قبل الحرب والحفاظة على احتلال بولونيا

وبينما كانت النمسا تتباحث في هذه المشروعات الغريبة كان فريدريك

الكبير ملك بروسيا يسمى لتقسيم بولونيا مع بقاء مقاطعات الدانوب تحت سلطة الدولة العلية . أي لحل المسئلة الشرقية في بولونيا كما قدمنا أما الدولة العلية فتد قامت بما تعهدت به نحو النمسا وأرسلت الى حكومة فيينا بتاريخ ٢٥ يوليو سنة ١٧٧١ جانبا من مبلغ المليون جنيه الذي فرضته على نفسها . وقد طلبت الدولة العلية جملة مرات التوقيع على معاهدة التحالف غير أن النمسا كانت تهمل طلب الدولة رغبة منها في الوصول الى نوال مآربها وأغراضها بدون حرب وقتال . وقد كانت سياسة (كونيتر) ترمي الي عقد اتفاق يفيد النمسا فائدة عظمي اما مع الروسياء ضد تركيا أومع تركيا ضد الروسياء . فلذلك كان يؤجل كل مرة أمر التوقيع على معاهدة التحالف مع تركيا أملائمه في الوصول الي عقد اتفاق مع الروسياء يكون اكبر فائدة وأعظم نفعاً . وكان يخشى (كونيتر) انه اذا أمضى على معاهدة الاتحاد مع تركيا تقسم الروسياء والبروسياء بلاد بولونيا بين دولتهما بدون أن تأخذ النمسا شيئاً منها

ولما رأى كونيتر أن الدولة العلية تلح كثيراً في أمر التوقيع على عهدة التحالف كتب الى الحكومة العثمانية بتاريخ ١٤ أكتوبر سنة ١٧٧١ كتاب صدق واخلاص قال لها فيه : ان دولته محافظة على عهد هافية في تحالفها . ولكنه لم يرسل مع ذلك بالعهد موقعا عليها

وفي هذا الاثناء علم سفير انكلترا بالاستانة اللورد (موري) بأمر المبلغ الذي أرسلته الدولة العلية للنمسا فأخبر سفير دولته في باريس وهذا أخبر سفير البروسياء بها . فلما علم فريدريك الكبير بهذا الخبر بعث به في

الحال الي القيصر وكتب الي سفيره بالاستانة يأمره بأن يرشد وزراء الدولة العلية الي حقيقة أغراض النمساويين ويبين لهم انها تعمل للاضرار بمصالح حكومة جلالة السلطان ، وكتب كذلك فريدريك الي سفيره بباريس يأمره أن يمرض على الوزارة الفرنسية أن تطلب عقد مؤتمر بالاستانة لعقد الصلح بين روسيا وتركيا . كل ذلك قصد به فريدريك الكبير أن يظهر النمسا لدول أوروبا بمظهر الدولة الخداعة في ودها الخائنة لمهودها مع تركيا وفرنسا في آن واحد

وقد كانت الحرب مع تركيا أضعفت الجيوش الروسية كثيرا وقتالها في بولونيا جعلها في أشد حاجة للراحة والسكينة فضلا عن أن المال كان ينقص وقتئذ الدولة الروسية . فكتبت (كاترينا) امبراطورة روسيا بتاريخ ٦ ديسمبر سنة ١٧٧١ الي فريدريك الكبير ملك بروسيا تخبره أنها تنازلت عن مطالبها بشأن «البغدان والافلاق» ولكنها تطلب من تركيا التنازل لها عن بعض مدائن منها «بندر» و«أوتشاكوف» وتعلمه بأنها قبلت تقسيم بولونيا واعطاء البروسيا ما طلبته منها أي بولونيا البروسية و(فارميا) وتطلب القيصرة مقابل ذلك من ملك بروسيا أن يسير عشرين ألف جندي على مقاطعتي (الافلاق والبغدان) اذا قامت النمسا بمحاربة روسيا

وعند وصول هذا الكتاب الي فريدريك الكبير ملك البروسيا كان همه موجها الي تقسيم بولونيا وتوسيع دائرة أملاك بلاده ففرح غاية الفرح بكتاب القيصرة . وانتهى الامر باتفاق روسيا والبروسيا على تقسيم بلاد بولونيا التعيسة . وصارت النمسا بهذا الاتفاق بين أمرين اما

الوفاء بالعهد لتركيا وفرنسا، ومارضة مشروع تقسيم بولونيا واما الاتفاق مع
الروسيا والبروسيا وعدم احترام عهدها نحو تركيا وفرنسا . فاختار
كونيتز الامر الثاني عاملا بالمبدأ السياسى القائل « بأن لا عهد ولا شرف
فى السياسة » . ووافق الامبراطور جوزيف والامبراطورة ماري تيريزيا
والدته على خطة كونيتز . وكان ذلك فى أوائل عام ١٧٧٢

وفى يوم ٢٨ يناير سنة ١٧٧٢ كتب (كونيتز) الى حكومة روسيا
يلغىها قبول النمسا لمشروع تقسيم بولونيا ولطالب القيصرية نحو الدولة
الغلية . مظهراً أمله وأمل حكومته فى أن النمسا تأخذ من أملاك الدولة
الغلية شيئاً كما أخذت من بلاد بولونيا أى أن تقسم الدولة العثمانية كما
قسمت بولونيا : :

وبذلك يرى القاريء أن النمسا بعد ان تحالفت مع تركيا على ان ترد
الروسيا عن أملاكها بواسطة المخابرات السياسية أو بواسطة الحرب وان
تدافع عن استقلال بولونيا . وبعد ان قدمت اليها الدولة الغلية ماطلبت
من المال . عرضت بنفسها على روسيا والبروسيا فى يناير عام ١٧٧٢
تقسيم بولونيا وتجزئة الدولة الغلية : :

وهى نتيجة اعترفت (ماري تيريزيا) نفسها بانها لا تشرف المملكة
النمساوية . وقالت عنها فى رسائلها السياسية « انها سياسة جرت عليها النمسا
ضد الشرف وضد مجد المملكة وضد الذمة والمقيدة » .

وقدم اتفاق روسيا والبروسيا والنمسا على تقسيم بولونيا وانتهى الامر بتقسيم
هذه المملكة بفضل دسائس الدخلاء وانقسام أهلها على بعضهم . وذهبت

هذه الامة البولونية الشريفة المشهورة بالوطنية الفارقة والشهامة العظيمة
ضحية مطامع الدول الثلاث وفريسة الدسائس الاجنبية والشقاق الاهلى
وقد امتنعت الدولة العلية عن ارسال المدد المالى للنمسا لما رأت
تلاعبها معها وتلونها في سياستها . فجعل (كونيتر) عدم ارسال المدد
المالى سببا لحل التحالف بين دولته وتركيا !

ولما علمت الدولة العلية بأن روسيا قابلة لعقد الصلح بدون استيلائها
على مقاطعتى (البغدان والافلاق) رضيت بالصلح وعقدت مع حكومة
الروسيا هدنة بتاريخ ١٠ يونيو سنة ١٧٧٢ . واتفق رجال الدولتين على
اجتماع مندوبين من قليمها بمدينة « فوكتشانى » للمناقشة فى شروط
الصلح . فاجتمع المندوبون ولبثوا مجتمعين عشرين يوما اتفقوا فيها على
سائر الشروط الاعلى شرط استقلال الترتار . فقد طلب مندوبو تركيا
بقاء الترتار تحت سلطة الدولة العلية لان جلاله السلطان بصفته خليفة
المسلمين لا يمكنه التنازل عن السلطة عليهم . فرفض الروسيون هذا الطلب
وبذلك انحل المؤتمر . وبعد انحلاله بزم من عرضت روسيا على الدولة
العلية عقد مؤتمر آخر فقبلت الدولة وعقد المؤتمر بمدينة (بوخارست)
بعد أن عقدت هدنة ثانية جعل آخر أجلها ٢١ مارس سنة ١٧٧٣ . وقد
اتفق مندوبو روسيا وتركيا فى هذا المؤتمر على مسألة الترتار فرضيت
الروسيا ببقائهم تحت سلطة جلاله السلطان . ولكنها طلبت من تركيا
التنازل لها عن { كرتش } و { بنى قلعه } . فلم تقبل تركيا ذلك وانحل
هذا المؤتمر أيضا— كما انحل المؤتمر الاول بغير نتيجة — فى أوائل يناير

سنة ١٧٧٣

وقد عادت المخابرات مرة أخرى بين الدولتين بتاريخ ١٥ فبراير سنة ١٧٧٣ ولكن الاتفاق كان مستحيلاً لأن روسيا كانت تطالب بعزم ثابت بكرتش وبنى قلعه وساسة الدولة العلية كانوا يرفضون طلب روسيا أشد الرفض لانهم كانوا يرون - والحق معهم - أن أخذ هذين الموقعين يجعل الاستانة في خطر مستمر من جهة روسيا . ولذلك أقفل باب المخابرات وعادت الحرب بين الدولتين . فأمرت القيصرية (رومانتسوف) جنرال الجيش الروسي بأن يسير وراء الدانوب ويحمل على العثمانيين فسار بأمرها الجيش الروسي يوم ١٣ يونيو سنة ١٧٧٣ وحمل على (سيلستريا) (وهي مدينة ببلاد البلغار) ولكن الجيش العثماني انتصر عليه انتصاراً عظيماً وقطع عليه خط الرجعة حتى فقد الجيش الروسي معظم رجاله . فقام عندئذ الجنرال فيسمان الروسي بعمل حملة مناورات اضطرت الأتراك للرجوع إلى الورا . وقدمات في هذه المناورات الجنرال فيسمان نفسه ولكنه أعاد للجيش الروسي بعض قوته وقد رأت روسيا عندئذ أن مصلحتها تقضي عليها بمقد الصلح مع الدولة العلية خصوصاً وان جيوشها انهزمت هزيمة شديدة بالقرب من (وارنا) وان أهل القرم أظهروا ميلهم للانضمام مع جلالة السلطان ضد روسيا . فضلاً عن أن ثورة أهلية قامت في روسيا تحت قيادة رجل اسمه (بوجاتشيف) كانت تهدد القيصرية وملكها . فلذلك طلبت روسيا من النمسا التوسط بينها وبين الدولة العلية في أمر الصلح مقابل جزء تعطاه من أملاك تركيا نفسها

وفي ذلك الحين توفي المرحوم السلطان (مصطفى الثالث) وتولى بعده السلطان (عبد الحميد الأول) فأمر باستمرار الحرب ولكنها عادت بخسائر جمة على الدولة لأن الجيش كان غير مستعد للقتال بعد الحروب الطويلة التي قام بها . فاضطر الصدر الأعظم الى عرض الصلح على الجنرال (رومانسوف) . وتم الاتفاق بينهما في ١٠ يوليو سنة ١٧٧٤ وأمضيا بعد ذلك في ٢١ يوليو سنة ١٧٧٤ على عهدة الصلح بمدينة (كوتشك قاينارجه) . وهي أشهر عهدة أمضت عليها الدولة العلية والحجر الأول للمسئلة الشرقية وعنوان النزاع بين المسيحية والاسلام وأصل الحروب الطويلة التي وجهت ضد الدولة في القرن التاسع عشر والازمات الشداد التي وقعت فيها

وشروط هذه المعاهدة ان الدولة العلية تتنازل للروسيا عن الكباردا وتضع مقاطعات الدانوب تحت حمايتها وتعلن استقلال بلاد القرم تحت ضمانتها وتتنازل لها عن (أزوف) (وكرتش) و (بنى قلعة) وتعطيها حق الملاحة في البحر الاسود وشبه حماية معنوية على رعايا الدولة العلية المسيحيين عموما والارثوذكسيين منهم خصوصا

وهذا الشرط الاخير كان ولا يزال آفة الدولة العلية في علاقتها مع دول أوروبا فكلها تتداخل في شؤون الدولة باسم المسيحية واذا قامت الحرب بينها وبين احدى الدول كانت العلة المسيحية وحقوقها . وان سياسة روسيا مع الدولة العلية في القرن الثامن عشر كانت كسياستها مع مملكة بولونيا التعيسة تخلق لنفسها حزبا في قلب المملكة يخلق لها الاضطرابات والمشاكل عند

الحاجة لتتداخل في شؤون المملكة الداخلية باسم هذا الحزب وبمحنة نصرته. ولكن هذه السياسة التي أفلحت في بولونيا تماماً بفضل النمسا والبروسيا لم تفلح في تركيا تماماً كما كانت تؤمله روسيا لما عند العثمانيين من الشهامة الحقيقية ولما لجيشهم من القوة الهائلة ولما بين الدول الأوروبية من الشقاق والاختلاف بشأن أمور تركيا ومسائل الشرق أما النمسا فقد انتهزت فرصة اشتغال روسيا وتركيا بأمر الصلح ووضعت يدها على جزء مهم من البغدان وعرضت على روسيا مقابل ذلك مشروعاً يتضمن تحالفها معها ضد الدولة العلية !

ولم توقع الحكومة العثمانية نهائياً على معاهدة (قاينارجيه) الا يوم

٢٤ يناير سنة ١٧٧٥

ولم يمض على هذه المعاهدة زمن يسير حتى أحدثت روسيا في بلاد القرم الاضطرابات بفضل الدخلاء العاملين بأمرها وأرسلت جيشاً جراراً الى داخل البلاد بدعوى تسكين الاضطرابات. ولكن غرضها الحقيقي كان الاستيلاء على بلاد القرم وبالفعل استولت عليها وظهر للعيان أن روسيا إنما كانت تعمل لاجراج هذه البلاد من حوزة الدولة العلية وان بذل جهودها في سبيل اعلان استقلالها لم يكن الا ليسهل لها الاستيلاء عليها. وقد احتجت الدولة العلية ضد هذا العمل المخالف لشروط معاهدة (قاينارجيه) وأرادت اعلان الحرب ضد روسيا ولكنها رجعت عن عزمها بنصائح فرنسا التي كانت تعلم ان روسيا والنمسا متفتتان على تقويض أركان السلطنة العثمانية

ولسكن روسيا كانت تبذل أقصى الجهد للوصول الى اعلان الحرب بينها وبين تركيا فأرسلت مبعوثين من عندها تهيبج بلاد اليونان والافلاق والبغدان ضد السلطنة السنية ونشرت الجواسيس في أنحاء الدولة العلية ليحدثوا فيها القلاقل ويخلقوا الاضطرابات فلما رأت الدولة العلية ذلك وأن لا مناص لها من الحرب طلبت من سفير روسيا بالاستانة أن يخبر دولته في تسليم حاكم الافلاق الذي عصى أمر الدولة والتجأ الى روسيا وفي عزل قناصل روسيا المهيجين للاهالي في بلاد الدولة وفي منح الدولة العلية حق تفتيش مراكب روسيا التجارية التي تمر من بوغاز الاستانة

فرفضت روسيا هذه الطلبات وكان ذلك الرفض اعلانا للحرب بينها وبين الدولة العلية

ولما كانت النمسا متفقة مع روسيا على مساعدتها ضد تركيا أرسل جوزيف الثاني امبراطور النمسا جيشا عظيما لمحاربة الاتراك والاستيلاء على مدينة (بلغراد) فانهمز جيشه أمام العثمانيين واضطر للعودة الى مدينة { تمسوار } بلاد المجر حيث اقتنى أثره الجيش التركي وهزمه هزيمة عظيمة أما الجيش الروسي فقد استولى في هذا الاثناء على مدينة « أوزي » وبينما الجيش العثماني يقاوم جيش روسيا والنمسا اذمات المرحوم السلطان (عبد الحميد الاول) في ٧ ابريل سنة ١٧٨٩ وتولي بعده السلطان الغازي (سليم خان الثالث) حيث أمور الدولة مرتبكة والحرب قائمة على قدم وساق . وقد انهز الروسيون فرصة استقال الملك في الدولة العلية واتحدوا

مع النمساويين في الحركات العسكرية وتولى القيادة العامة قائد واحد ،
فانتصر الجيشان على جيش الدولة واستولى الروسيون على مدينة « بندر »
واحتلوا جزءاً عظيماً من بلاد الافلاق والبغدان وبسارابيا ودخل النمساويون
بلاد الصرب ومدينة بلغراد

وقدمت حينذاك جوزيف الثاني امبراطور النمسا وأعبه على سيرير
المملكة النمساوية ليوبولد الثاني فسعى في عقد الصلح مع الدولة العلية
تخوفاً من قيام النمساويين بالثورة ضده تقليداً للامة الفرنسية التي
كانت ثائرة وقتئذ ثورتها الاولى الكبيرة ضد لويس السادس عشر .
فعمدت عهدة الصلح بين النمسا والدولة العلية في أغسطس سنة ١٧٩١
بمدينة « زشتوى » وقد ردت النمسا الى الدولة العلية بمقتضى هذه المعاهدة
بلاد الصرب وبلغراد التي كانت في قبضتها ولم تخسر الدولة العلية من
هذه الحرب مع النمسا خسارة تذكر

أما روسيا فقد استمرت بمنردهما على محاربة الدولة العلية حتى توسطت
بينهما البروسيا وانكلترا وهولاندا فأمضيت بينهما معاهدة بمدينة
« ياش » أخذت روسيا بمقتضاها بلاد القرم نهائياً وبسارابيا والبلاد
الواقعة بين نهري بوج دينستر ومدينة « أوتشاكوف »
وبذلك انتهت هذه الأزمة الشديدة التي جاءت في أواخر القرن
الثامن عشر وكانت عنواناً لازمات شددت توالي بعد بعضها في القرن
التاسع عشر . تأتي عليها الواحدة بعد الأخرى

المسئلة الشرقية

في

(القرن التاسع عشر)

ليس غرضنا أن نأتى في هذا الفصل على تاريخ الدولة العلية في القرن
الحاضر بل على أشهر وأهم أزمات المسئلة الشرقية فلذلك نهمل الحوادث
الصغار ونفصل الازمات الشداد ازمة بعد أخرى

الازمة الاولى

(استقلال اليونان)

كل من قرأ تاريخ الدولة العلية يعلم أن المرحوم السلطان الغازى (محمد
الثانى) لما فتح الاستانة أمن الناس على اختلاف عقائدهم ومذاهبهم
على أموالهم وأرواحهم ودياناتهم وتقاليدهم حيث أتبع أوامر الشرع
الشريف ونشر راية الاعتدال الدينى . فنال اليونانيون من هذه المعاملة
الحسنة ما لم يكن يخطر لهم على بال من السعادة والرفاهية ورأوا من سلطان
آل عثمان اكرامهم واحترامهم لدينهم ولرجال دينهم حتى انه لما انتخب
بطريقهم بعد فتح الاستانة قال له المرحوم السلطان محمد الثانى : وكن
بطريقا ليونان والله يحميك : وفي كل الاحوال والظروف اعتمد على
مساعدتى وتمتع بكل الامتيازات التى كانت لأسلافك من قبل ؟

وقد كانت هذه المعاملة الاسلامية فريدة في نوعها غريبة في بابها
فان الكاثوليكين أنفسهم كانوا يعاملون اليونانيين بالاحتقار والازدراء
، ويستحيل على المؤرخين أن ينكروا على محمد الفاتح وعلى المسلمين هذه

الصفات العالية والمكارم الجليلة التي ظهرت في الاستانة بعد الفتح كشمس
تبدد الظلمات وآية من أكبر آيات الدين الاسلامي الباهر
وقد أدى هذا الاعتدال الديني الى نمو التجارة في أيدي اليونانيين
فصاروا بفضل الدولة العلية وفضل تساهلها الديني أغنياء أثرياء عاشين
في أتم الراحة والهناء ولكنهم لم يحفظوا للدولة العلية عهدا ولم يرعوا لها
نعمة بل أنكروا المعروف والجليل وصاروا في الصف الاول من أرباب
الدسائس العاملين ضد السلطنة العثمانية وأضر الآلات لاعداء الدولة
في قلبها

وقد بانغت ثقة الدولة العلية برعاياها على اختلاف دياناتهم وأجناسهم
وحسن نواياها نحو المسيحيين المحكومين بها أنها عيبت لمقاطعات صربيا
والافلاق والبغدان حكاما من اليونانيين مؤمنة أنهم يخدمونها بصديق
وأمانة كما أكرمهم وأكرمت أمتهم فكانوا الاعداء الألداء في ثياب
الاصدقاء الامناء . وعوضا عن أن يقوموا بالواجب عليهم نحو دولة
رفعتهم الى أسمى المناصب استعملوا سلطتهم ونفوذهم في تهيج أهالي
هذه البلاد ضد الدولة العلية والقاء بذور الثورات والاضطرابات فيها

*
* *

وقد أسس المهيجون من اليونانيين جمعية في بلاد روسيا اسمها
(هيتري) — أي الجمعية اليونانية الوطنية — غرضها استقلال اليونان
والانتقام من الدين الاسلامي . وقد ساعد القيصر هذه الجمعية كل المساعدة
فأخذت تنمو وتنتشر وأخذ الكثير من أعضائها يقتلون ويسلبون باسمها

وبدعوى المطالبة باستقلال اليونان . وكان (اسكندر ايبسيلانتى) و (ديميتريوس ايبسيلانتى) أهم أعضاء الهيتري فى خدمة القيصر الشخصية . وكان (كابو ديستريا) زعيم الثورة اليونانية أحد وزراء القيصر اسكندرا الاول

وكان ابتداء الثورة اليونانية دخول (ايبسيلانتى) فى المقاطعات اليونانية فى عام ١٨٢١ محرضاً على الثورة بلاد اليونان كلها . وقد اعتبر هذا العمل بايعاز من روسيا . وكان من البديهي أن (ايبسيلانتى) الذى كان ضابطاً بجمعية القيصر عمل ماعمل بأمر القيصر أو برضاه ، وقد أتى (ايبسيلانتى) نفسه بما يدل على ذلك حيث كتب فى دعوته للثورة ، واذا اعتدى أحد من الاتراك على أراضي بلادكم فلا تخشوا له بأساً فان دولة عظيمة مستعدة لمعاينة المعتدين عليكم ،

ولم يكن بين دول أوروبا دولة تعارض هذه الحركة اليونانية مثل دولة النمسا فانها كانت تحيط الباب العالى علماً بكل دسائس ثورويي اليونان وبكل تشجيعات روسيا لهم وأعمالها السرية

أما انكلترا فكانت خطتها فى بادىء الامر التظاهر بمساعدة تركيا ضد روسيا ومقاومة الحركة اليونانية أشد المقاومة . ولكن الدولة العلية أظهرت شكها فى نوايا بريطانيا لعلها بطمعها وجشعها وكرهاتها الحقيقية للإسلام . خصوصاً وان سوء قصدها كان قد ظهر باستيلائها على الجزائر اليونانية . وقد جاءت الايام مبرهنه بأسطع برهان على ان الدولة العلية كانت مصيبة فى سوء ظنها بالانكليز فقد انقلبت انكلترا فى مسألة الثورة اليونانية ضد الدولة العلية كل الانقلاب وغيرت كراهتها الاولى

لليونانيين بالحبّة العلية والمساعدة الظاهرة

ولما علمت النمسا بأعمال الروسياء ومساعدتها لليونانيين بذل وزيرها
الاول (مترنيخ) الشهير أقصى جهده لدي القيصر اسكندر الاول ليعيد
السكون الي بلاد اليونان ويأمر الثورويين بعدم القيام في وجه حكومة
المرحوم السلطان محمود والامثال والخضوع لاوامر الدولة . وقد أظهر
مترنيخ للقيصر اسكندر الاول مقدار الخطر الذي ينتج عن اشتعال نار
الفتنة والثورة في بلاد اليونان مبيناً له ان تعضيد ثورة اليونان يكون
داعياً لانتشار الثورة في كل أنحاء أوروبا ضد الملوك . فأثرت هذه الاقوال
على القيصر اسكندر الاول وأعلن رسمياً غضبه وسخطه على ابيسيلاتى
ووجه ملامه لليونانيين ناصحاً لهم بالسكينة والانصياع لحكم الدولة العلية
ولكن هذه التصريحات العلية لم تكن الا ترضية وقتية للنمسا التي
كانت مضطربة الاحوال لاشتغالها بقمع الثورة الايطالية التي قامت وقتئذ
في وجهها . ولم يرجع القيصر اسكندر الاول عن عزمه بل صار يتظاهر
علناً بحبّة السلم والميل الى الانصاف مع الدولة العلية وهو يكمن لها في
الباطن السوء والضرر منتظراً الفرص المناسبة

أما ابيسيلاتى فقد هزمته الدولة هو ورجاله شر هزيمة واضطر الى
الهروب في ترانسلفانيا حيث قبضت عليه النمسا وسجنته لغاية عام ١٨٢٧
وقد أسس ثوار اليونان بالرغم عن سقوط ابيسيلاتى في قبضة النمسا
مجالس أهلية ومجلساً عمومياً لهم كبرلمان يونانى

وما انتشر في أوروبا خبر قيام اليونانيين بالثورة ضد الدولة العلية حتى تظاهر الكثيرون من الكتاب والشعراء بتعريضهم للانتصار لثورتهم ضد المسلمين . وأول من جاهر بالانتصار لليونانيين وبالنداء باستقلالهم هو اللورد (بيرون) الشاعر الانكليزي . فقد هاجر من بلاده وعاش غربياً ينشد مجد اليونان السالف وينادي أوروبا بمساعدة أبناء اليونان ونصرتهم . وقد أثرت كتاباته وأشعاره في أغلب بلاد أوروبا وجرى على سنته الكثير من شعراء فرنسا وكتابها وفي مقدمتهم (فيكتور هوغو) الشاعر الشهير . وأسست اللجان المختلفة في فرنسا وانكلترا لمساعدة اليونانيين بالمال والرجال . وسافر المتطوعون من كل بلد في أوروبا ومن كل جانب

وقد قامت الحركة كلها في بلاد أوروبا باسم المعارف اليونان وأنوارها القديمة وباسم الدين المسيحي . فكنت تجمد الكتاب الذين لا دين لهم ولا عقيدة في أفتدتهم يدافعون عن اليونانيين باسم الدين المسيحي ويوجهون الي الاسلام أقبح السباب وأذن الشتائم

وكان أنصار اليونانيين يحسبونهم كأبائهم الاولين متى نالوا حريتهم واستقلالهم بزغت شمس المعارف والآداب والفلسفة من بلادهم وعادت أئنا مشرقاً لانوار الحكمة والعرفان . والذين كانوا ينتصرون لليونانيين مؤملين هـذا الامل كانوا اما متعصبين في الدين ضد المسلمين يحملهم بغضهم على اعتقاد فاسد كهذا أو كانوا سليبي النية . فلقد برهن اليونانيون بعد استقلالهم على ان بينهم وبين اليونانيين القدماء بونا هميدا

وفرقا عظيما

ولا ريب ان أولئك الذين كانوا ينتظرون شروق أنوار الحكمة والفلسفة العالية من أبناء أئتنا الحاليين تحسروا طويلا واندھشوا منتهي الاندهاش من خطئهم في آمالهم هذا الخطأ الكبير واعتدائهم بغير حق على السلطنة السنية التي كانوا يقولون عنها انها المانعة لترقي اليونان والواقعة في سبيل شروق شمس الحكمة والعرفان من أئتنا

ومن الغريب ان أغلب أنصار اليونانيين ان لم نقل كلهم كانوا يجهلون تمام الجهل بلاد اليونان وأهلها . على أنهم لو كانوا أرسلوا بعض الوفود لزيارة هذه البلاد والوقوف على حقيقتها وحقيقة أهلها لكانوا أدركوا أنهم مخطؤون خطأ كبيرا وان آمالهم البعيدة حلم لا حقيقة له ويستحيل ان يكون له وجود

وقد أنصف بعض الكتاب الاوربيين الدولة العلية وأظهروا للعالم المتمدن الحقيقة التي لامراء فيها وفضحوا أعمال اليونانيين حتى خجل أنصارهم . وفي مقدمة هؤلاء الكتاب الفضلاء المسيو (الفريدليستر) الفرنسي في مقدم وضع كتابا على استقلال اليونان كشف فيه الغطاء عن أمور عديدة تشرف الدولة العلية وترفع من مقامها أمام التاريخ وتشهر أكاذيب أنصار اليونان الجمة

ومن المستندات الرسمية العديدة التي أوردها حضرة المؤلف السالف الذكر عريضة رفعها جماعة من الفرنسيين كانوا سافروا الى بلاد اليونان نصررة الثأرين فيها الى أميرال البحرية الفرنسية بالبحر الابيض المتوسط

يسألونه فيها أن يردهم الى فرنسا . وهذه العريضة تترجم للقارىء عن الحقيقة وعن أكاذيب أنصار اليونان فقد جاء فيها : « وقد وصفوا لنا اليونانيين قبل سفرنا من فرنسا بشجعان وابطال يفوقون آباءهم الاولين شهامة ومجدا . فما وجدنا هنا الا رجالا يحملهم حب المال على حب الجرائم وأناسا لا يزالون في ظلمات الجهالة والوحشية »

وقد كتب القومندان { بوجول } في مذكراته عن ثورة اليونان بتاريخ ٢٢ ديسمبر سنة ١٨٢٧ ما تعريبه :

وقد جئت الشرق وأنا من أكبر أنصار هذه الامة (اليونانية) ولم يتغير اعتقادي فيها واحساسي نحوها الا بالتجربة . فهي مجردة عن الوطنية والشجاعة والاتحاد وهم كل رئيس من رؤسائها أن يكون غنيا وقد بلغت القوضى حدها في بلاد اليونان . وأغلب أعضاء حكومتها - وكلهم محقرون أشد الاحتقار - معروفون من الجميع بأنهم المسلحون للصمص البحار . ولولا تدخل الدول لخصع اليونانيون جميعا هذا العام . واعترافا بالجميل نحو أمم أوروبا لا يزال الصمص اليونانيون يعتقدون على تجارة هذه الامة نفسها ، وكتب الامير (ريني) اميرال الاساطيل الفرنسية بالبحر الابيض المتوسط من أزمير بتاريخ ٢٣ مارث سنة ١٨٢٦ ما تعريبه :

لقد تقش أوروبا بشأن كل ما يختص بثورة اليونانيين ضد تركيا . فقد تنقص المستندات الرسمية وليس من عادة الاتراك ان ينشروها . والتقارير اليونانية ليست الا مراسلات خصوصية تجسم فيها الامور وتمر على (زانت) و (كورفو) والنمسا قبل أن تلونها الجرائد في لوندرا

وباريس بالالوان الساطعة البهية . ولكنها في أغلب الاحيان ألوان كاذبة .
ولاشك ان هذا هو اللازم للتأثير على أفكار العالم . ولكن هذا لا يكفي
لانارة أفكار الذين يقودون زمام الامور ،

*
* *

وقد انتهز اليونانيون فرصة قيام (على باشا) والي ياتيه ضد الدولة
العالية لاحداث الاضطرابات والهيجان في كل انحاء بلاد اليونان . فقد
طغى هذا الباشا وعصى الدولة العلية وأراد الاستقلال والخروج من تحت
السلطة الشرعية فصار يعمل لاستمالة اليونانيين اليه ضد الدولة العثمانية .
ولكن أطماعه الشديدة واخلاقه الشرسة أكرت من أعدائه بالرغم عن
تملقه لليونانيين ونفاقه

وسبب عصيانه على الدولة ان اسماعيل باشا ا كبر أصدقائه وأول
المقربين اليه وقع بينه وبينه خلاف شديد أدى الى هروب اسماعيل باشا
الى الاستانة حيث تعين فيها بالحرس السلطاني وأبلغ رجال الدولة أعمال
هذا الرجل وسوء نواياه . فقررت الدولة عزل ابنه الذي كان حاكما
لتساليا . فاغتاظ على باشا من ذلك وأرسل أحد أتباعه من الالبانيين الى
الاستانة لقتل اسماعيل باشا . وبالفعل قتله هذا الالباني عندذهابه للمسلاة
وقد علمت الدولة وقتئذ بان الانكليز يشجعون على باشا على رفع
لواء العصيان ضد الدولة العلية ووقفت على كل مراسلاته مع اليونانيين
فامتلات غيظا منه واعتبر خائنا للدولة والملة وأصدر شيخ الاسلام
منشورا للمسلمين باعتباره خارجا على الدولة كافرا بعمتها .

وقد أمرته الدولة بالحضور الى الاستانة في ظرف أربعين يوما
فخالف أمرها وصمم على معاداتها والقيام في وجهها. وصار يجتهد في استمالة
المسلمين اليه فلما لم يفلح لانهم جميعا اعتبروه خائنا وخارجا من دين الاسلام
مال الى اليونانيين وصار يتقرب منهم ويستنصر بهم ضد الدولة ويوزع
الاموال عليهم. ولما أراد الانتفاع بهذا الود سألهم بتاريخ ٢٤ مايو سنة
١٨٢٠ تكوين جيش ينصره ضد الدولة. ولكن اليونانيين الذين كانوا
يعرفون أخذ الاموال وسماع المدائح وبدائع الاقوال من هذا الطاغية
كانوا يعرفون من أنفسهم انهم عاجزون عن تقديم الاسلحة والرجال فلم
يجيبوا للعاصي طلبا ولم يلبوا له نداء بل بقي يناديهم وهم صامتون حتي
اقترب منه الجيش العثماني. فلم يجد له مخرجا من ورطته الا حرق مدينة
«يانينا» والالتجاء الى جزيرة كان بني فيها قلعة حصينة جمع فيها كل ذخائره
وأمواله

وقد كان يقود الجيش العثماني ضده خورشيد باشا حاكم الموره فوصل
بمهارته وحكمته الى دخول القلعة التي كان ملتجئا بها هذا المتمرّد ولمالم
يجد على باشا نفسه سبيلا غير التسليم سلم نفسه لخورشيد باشا الذي
أنفذ أمر الدولة بقتله عقابا له على تمرده وعصيانه. وفي أوائل فبراير سنة
١٨٢٢ أرسل برأسه الى الاستانة لتعلق في مكان عام انذارا لكل عدو
للدولة ولكل خان

وقد انتهز اليونانيون فرصة عصيان على باشا والى يانينا وأخذوا

يسلبون وينهبون في كل أنحاء اليونان وجعلوا المورة منبع الثورات والاضطرابات لخلوها من العدد الكافي من الجنود العثمانية. وفي ٥ مارس عام ١٨٢١ دخل من يدعى { كارافيا } وهو يوناني تعلم الجندية في روسيا في ميناء (جالاتز) - وهي ميناء من رومانيا على الدانوب - وهجم على قلعتها برجاله العديدين حيث نهبوا وسلبوا وقتلوا من في المدينة كلها وأسالوا الدماء وخربوا المنازل. وقد أشاع اليونانيون عندئذ في كل اصقاع العالم ان مأتوه في هذه الميناء الصغيرة التي يكاد لا يوجد بها جنود يعد انتصارا كبيرا على الدولة العثمانية وعملا عظيما. وهاج كذلك أعضاء الهيئتي بمدينة { ياسي } واحتالوا على حرسها وكان مكونا من خمسين رجلا فأفهموهم ان الاهالي عازمة على الثورة وقطع دابر التراث ولكنهم ان تجردوا من أسلحتهم وبنادقهم توطد الامن في المدينة وعادت الامور الي السكينة والسلام فاغتر رئيس الحرس وظن ان أعضاء الهيئتي صادقون في أقوالهم فأجاب طلبهم وأمر الجنود بالتجرد من السلاح والذخائر الحربية. فقابل اليونانيون هذا العمل بأن نشروا لواء النهب والسلب في المدينة ورفعوا راية القتك بالمسلمين فقتلوا الكثير منهم بلا تمييز بين الرجال والنساء والاطفال. ولما جاء (ايبسيلانتي) زعيم جمعية الهيئتي استحسن هذه الفظائع والمنكرات ووافق عليها باسم الانتقام من الاسلام والمطالبة بالحرية :

وقد كانت جمعية الهيئتي تهدد الاغنياء من اليونانيين بالقتل ان لم يساعدها بالمال - وقد آتعت هذه الخطة نفسها جمعية ثوار الأرمن

مع أغنياء الطائفة الارمنية - وحصل ان { ايبسيلانتى } المذكور لما جاء
مدينة (ياسى) علم بوجود يونانى عظيم الثروة اسمه (بول اندرياس)
فألقى القبض عليه بدعوى انه اختلس أموالا كثيرة من اموال الهيترى
فادرك الرجل ان هذه التهمة القيت عليه ليقدم لايبسيلانتى شيئا من المال
ففعل ذلك وكان في فعله نجاته

وقد احدثت هذه الفظائع التي جرت فى (ياسى) فى كل بلاد اليونان
فرحاً شديداً واشتاقت نفوس اهلها للسلب والنهب وذبح المسلمين باسم
الحرية والدين !

وقد يجد الانسان فى بعض الكتب المتصرص أصحابها لليونان فصولا
طويلة على هذه المذابح المختلفة والجرائم العديدة ومن هذه المؤلفات
أشهرها مؤلف المسيو (بوكفيل) المسمى (مخطء الشرق) فقد جاء
بالرغم عن شدة تعصب المؤلف ضد المسلمين بمقتائق ينجل منها كل
انسان يحترم الانسانية ويحبها

ولما كانت المورة كما قدمنا منبعاً للثورات والاضطرابات حاصر
اليونانيون مدينة { مونبازيا } فقاوم أهلها الحصار طويلا حتى فقدوا
كل الذخائر والمأكولات . وكان يقود اليونانيين وقتئذ (ديمتريوس
ايبسيلانتى) فاستعمل الخداع للاستيلاء على هذه المدينة وأعلن أهلها
بانه يحترم أملاكهم وأموالهم ويحترم قبل كل شيء أرواحهم اذا سلموا
المدينة وانه يساعدهم على الرحيل منها اذا أرادوا ذلك . فصدق أهل
هذه المدينة الشقية كلام (ايبسيلانتى) وساءوا القلعة والاسلحة . فدخل

اليونانيون المدينة وأول شيء قاموا به هو انهم لم يحترموا رئيسهم قولاً ولا عهداً بل هتكوا الاعراض ونهبوا الاموال وقتلوا النساء والاطفال قبل الرجال

وانه ليس هناك على القاريء أن يمثل قوماً لاسلح بأيديهم ولا قوة تحميهم يهجم عليهم جماعة من أشرار اليونانيين متسلحون بأنواع السلاح ويمثل مناظر المعارك الدموية التي تجرى بينهم ودفاع الموت الذي يدافع به المسلمون عن نساءهم وأطفالهم

وقد كتب السكونتر ايرال القرنساوى (هالجان) في عام ١٨٢١

تقريراً عن دخول اليونانيين الى (مونبازيا) جاء فيه

« وقد وجد في قلعة مونبازيا ثلاثمائة يوناني لم يكتف الاترك أيام الحصار بمعاملتهم بالحسني بل عاملوهم كاخوتهم الحقيقيين أثناء المجاعة واحترموا كنائسهم كل الاحترام . ولكن يوناني الموره لم يعاملوا الاترك بنفس هذه المعاملة عند ما أخذوا المدينة . بل أتوا بأشنع القبائح وأفظعها في مساجد الاترك

« أما المسجونون فقد أرسلوا بغير زاد الى « كاسوميس » . ووجدت على الارض العائلات الاسلامية التعيسة تنازع نزاع الموت من الجوع والعطش ونائمة على الاحجار . وحوالى الجزيرة وجدت جثث القتلى . وبالرغم عن ذلك كله فقد أراد اليونانيون ضرب هاته العائلات بالرصاص . ولم تنج من أيديهم الا بفضل المسيو « دى بونفور » الذي هدد اليونانيين وأخذ كل الاترك الموجودين بهذه الجهة في سفينة مخاطباً ضباط اليونانيين

بأن ما عملوه هم ورجالهم لا يأتي به الا لصوص البحار ! »
 وهذا التقرير وحده يشهد بأبدع بيان على أن أنصار اليونان في
 أوروبا كذبوا على العالم كله الا كاذيب الشنيعة وان الجرائم والفظائع
 الدموية التي جرت في بلاد اليونان لم يأتها الا اليونانيون ضد المسلمين
 وان الفيلسوف يقف مندهشا امام هذه الدنيا والجرائم ويعجب كيف
 ان شعراء أوروبا وكتابها كانوا ينتصرون لقوم لا تتغذى ارواحهم الا بدمج
 الابرياء ولا تستريح نفوسهم الا الى الجرائم . فهل كان ينتظر شعراء أوروبا
 وكتابها من هؤلاء القوم الذين كتب عنهم ضباط أوروبا نفسها وبعض
 من أفاضل كتابها ما قرأه القارىء أن يعيدوا الربوع اليونان مجددا السالف
 وأن يردوا للوجود أئينا مشرقا لانوار الحكمة والعرفان ؟ ؟

وقد استولي ثوار اليونان في ١٩ أغسطس سنة ١٨٢١ على مدينة
 (ناورين) الشهيرة وأتوا فيها من الفظائع ما لم تره عين ولم تسمع به أذن
 وكتب عن هذه الفظائع القس الارثوذ كسي (فرانتزيس) ما ترجمته
 • وكانت البنات التي تريد الهروب من ايدي القتل تجرى نحو شاطئ
 البحر وعلى أجسادها اثر الرصاص . ومع ذلك كانت ترمى وتقتل
 • وكانت النساء يحمل اكثرهن الاطفال على الذراع فيمزق المعتدون
 ملابسهن . واللواتي كانت تنقى بانفسهن الى البحر لتستر عوراتهن كانت
 ترمى كذلك بالرصاص وتقتل . وقد هشمت رؤوس بعض الاطفال التي
 اختطفت من أمهاتها . وألقى اليونانيون في عميق البحار بنات واطفالا لم
 يتجاوز أغلبهم الرابعة أو الخامسة من العمر كأنهم قطع من لحوم السكلاب •

وفي ٥ أكتوبر من السنة نفسها استولى ثوار اليونان بعد حصار طويل على مدينة (تريبوليتزا) . وانه يستحيل على كاتب شرقي أو غربي مهما كانت بلاغته وقوة انشائه وعظيم تأثيره ان يصف المذابح الهائلة البهيمية - أو التي لا اسم لها - التي اتاها اليونانيون . بل يكفي القاريء ان يعلم ان اليونانيين ذبحوا في (تريبوليتزا) ثمانية الف من الرجال وفوق ذلك من النساء وان المذابح استمرت ثلاثة ايام كاملات حتى فسدا الجو وتغير الهواء وانتشر من بعدها الوباء حيث عم كل بلاد اليونان وجاء من المتقم الجبار منتقما للابرياء الشهداء من الظالمين المحرمين السافكين للدماء وقد كتب أغلب كتاب أوروبا الا من أعماهم الغرض والتعصب على هذه الفظائع ووصفوها كما تستحق فقال عنها الكاتب الانكليزي (فلي) المشهور - وكان قد شهد الحادثة بعينه - في كتابه (تاريخ اليونان) :
 « ان منظر هذه المذابح لا يعادله منظر في تاريخ البشر لافي فظاعته ولا في طول مدته »

وقد أحدثت هذه الفظائع في الاستانة تأثيرا شديدا جدا وهاج الاهالي طالبين عقاب اليونانيين الذين لهم يد في جمعية الهيترى . فقام عندئذ شيخ الاسلام ونصح المسلمين بالسكينة والاعتدال وعدم الاعتداء على الابرياء انتقاما من الآفكين (وسيرى القاريء ان اليونانيين كافأوا شيخ الاسلام هذا بأن قتلوه هو وعائلته شهرا كاملا بعد نداءه في صالح الابرياء منهم)

فلما علم المرحوم (السلطان محمود) بما عمله اليونانيون بدسائس جمعية الهيترى

أمر بتفتيش منازل بعض اليونانيين المشتبه فيهم وعمل تحقيق تام على كل الذين اشتبه في أمرهم . فأبان التحقيق اداة الكثيرين من اليونانيين ومنهم (موروزى) الذى كان لاسلطان به ثقة عظيمة فاستعملها فى تبليغ أعضاء الهيئتي أسرار السياسة العثمانية . والبطيرق { جريجوريوس } فأمر السلطان بإعدام الجميع عبرة لغيرهم من المفسدين والثوار أما فى أثينا فقد اتبع اليونانيون خطتهم الدموية بنفسها فأسالوا الدماء بكثرة عظيمة ولم يرحموا أحدا من المسلمين

وقد انتشر بعض أعضاء الهيئتي فى أزميز وجعلوا غايتهم جمع الأموال بأذى الوسائل وأسفل الطرق وألقاء الخوف والرعب فى نفوس اليونانيين المقيمين بأزميز . فأشاعوا الاشاعات المختلفة عن نوايا الدولة العلية نحو اليونانيين حتى اضطرت العائلات اليونانية كلها الى المهاجرة من أزميز فاستفاد أعضاء الهيئتي من هذه المهاجرة انهم جمعوا أموالا كثيرة وأوهموا أوربا بأن سبب هذه المهاجرة ظلم الدولة العلية وسوء معاملتها ليونانيين !!!

ومما يؤكده ذلك ان أحد رجال فرنسا بعث من أزميز بكتاب الى وزير البحرية الفرنسية فى ذلك الحين جاء فيه :

وقد أشاع فى كل أنحاء المدينة رجال يعملون على جمع الأموال بكل الوسائل الدنيئة الاشاعات المزعجة للاخواطر بشأن نوايا الأتراك . فنتي علم الأهالى بأن أحدبواخرنا تقصد ميناء الأرخيل تأتيني العائلات اليونانية وتسالني من كل جانب السفر على هذه البواخر . وقد يطول فى الامر

اذا أردت أن أشرح اسعادكم كل الوسائل التي يملها الشره وسوء القصد على رجال يعملون لجمع الأموال بدعوى الانسانية وانه يجب ان يكون الانسان هنا ليعتمد ذلك .

وقد استعملت هذه الوسائل في جهات مختلفة وأهاج ثوار اليونان كل المسيحيين في البلاد اليونانية ما بدعوى الدين واما بالتهديدات والاندازات أما في الارخيل فقد جعل اليونانيون همهم الاكبر السرفة واللصوصية والقتل والسلب والنهب . وقد كانت الدولة العلية استخدمت الكثيرين من أبناء اليونان في بحريتها ثقة منها بهم كثقتها بكل رعاياها على اختلاف دياناتهم وأجناسهم . فلما قامت الثورة اليونانية ترك البحرية العثمانية كل اليونانيين الموظفين بها فأعاق ذلك الدولة العلية عن قمع الثورة في الارخيل كما قمعها بعد في بلاد اليونان نفسها

وقد قدمنا فيما سبق ان شيخ الاسلام أصدر منشورا بالاستانة نصح فيه المسلمين بالسكينة وعدم الاعتداء على الأبرياء من اليونانيين وقتلنا ان مكافأته من هؤلاء كانت القتل . وذلك ان المرحوم السلطان (محمود) عزله من منصبه لهياج الشعب ضده . فغادر الاستانة على باخرة عثمانية قاصدا بلاد الحجاز . ولما وصلت الباخرة الارخيل هجمت عليها بعض السفن اليونانية وضايقتها من كل جانب حتى أسرتها وأخذت ما فيها من الاموال والخيرات . ولما رأي البحارة اليونانيون ان شيخ الاسلام وعائلته بين ركاب السفينة قبضوا على بناته وذبحوها أمامه وألقوا بها الي البحر ثم قتلوا كل من بالسفينة على مشهد منه حتى صار وحده أمامهم

فقتلوه شر قتلة جزاء له على نصحه المسلمين بالسكينة وعدم الاعتداء
على الأبرياء من بني اليونان :: !

*
* *

وقد أحدثت مذابح اليونان تأثيرا شديدا في روسيا فقام القسس
ورجال الدين يحرضون الأهالي ورجال الحكومة على أن يطلبوا من
القيصر الانتقام من الهلال للصليب وطرد الأتراك المسلمين من بلاد
اليونان المسيحية. ومع أن اليونانيين هم الذين اعتدوا على المسلمين وأتوا
الفضائع الجسام فإن أنصار اليونان في أوروبا ملؤا الأرض بكاء ووعولا
وآتهموا الدولة العلية بأنها تذبج الأبرياء وتسفك الدماء . فإرسل عندئذ
القيصر { اسكندر } انذارا للدولة العلية على يد سفيره بالاستئانة المسيو
(ستروجونوف) جاء فيه

« ان الباب العالي يجبر المسيحية على أن تتساءل اذا كانت تستطيع أن
تنظر بغير حراك الى اباداة أمة مسيحية وترضى بهذه الاهانات الموجهة
للدين المسيحي » . وطاب القيصر من الدولة العلية في مذكرته هذه
طلبات ملؤها التهديد والوعيد

وفي الوقت نفسه أرسل الى الدول الأوروبية مذكرة يفسر فيها لها
خطته وسلوكه ويسألها عن الخطة التي تنوي كل واحدة منها اتباعها اذا
قامت الحرب بين روسيا والدولة العلية . وعلى أى صورة ترضى كل
منها تقسيم الدولة العلية

فكان القيصر اسكندر الأول يريد بثورة اليونان تقسيم الدولة العلية

و بلوغ امانيه من الاستانه والبوسفور

أما الدولة العلية فقد أجابت على انذار روسيا بغاية الشرف والشهامة غير خائفة تهديها ووعيدها . فترك عندئذ سفير روسيا الاستانه وأعلن في ٨ أغسطس سنة ١٨٢١ انقطاع العلاقات السياسية بين الدولتين فلما رأت النمسا ذلك خافت النتائج الهائلة والعيواقب الوخيمة التي تنتج عن الحرب بين تركيا وروسيا وافقت مع انكلترا على مقاومة روسيا ومعارضة أغراضها واتحدت معها على منع الحرب بين الدولة العلية وبينها بكل الوسائل فكثبت وزارة لوندرد كما كتبت وزارة فينالي القيصر تعارض مشروعاته وتعدده بالتوسط مع النمسا لدي الباب العالي لنوال ترضية لروسيا . فقبل القيصر توسط النمسا وانكلترا ورضخ لتصالحهما . وبالفعل توصل ساسة النمسا وانكلترا الى منع الحرب بين روسيا وتركيا

ولا يحسن القارىء ان توسط انكلترا مع النمسا لمنع الحرب بين الدولة العلية وروسيا كانت تقصده لئلا تخدمه تركيا أو مساعدتها . بل الحقيقة ان الانكاز لما رأوا روسيا تسمي لجعل بلاد اليونان تحت حمايتها المعنوية واستخدامها في سبيل سياستها قاموا في وجهها وردوها عن محاربة تركيا ثم تظاهروا وابتدئ بنصرة اليونان أكثر منها حتى حول اليونانيون انظارهم الى بريطانيا وصار للانكاز النفوذ الأول في اليونان . حيث شكوا في لوندرد الجمعيات العديدة لمساعدة اليونان ونصرتهم ولم يتأخر مالىو انكلترا عن تسليف مبالغ طائلة لحكومة اليونان الثورية . فصارت انكلترا

بذلك أول عدوة للدولة العلية وأول دولة منتصرة لليونان .
 وفي أوائل عام ١٨٢٣ صار حاكم الجزائر اليونانية الانكليزي الذي
 كان يعامل قبل هذا الحين ثوار اليونان بغاية القساوة والشدة يحميهم
 ويساعدهم ويتركهم يتآمرون في جزأره ضد الدولة العلية .
 ولمارات الدولة ان الاضطرابات قد كثرت في بلاد اليونان وان
 الثورة قد دعمت كل انحاءها طلبت من المرحوم (محمد علي باشا) عزيز مصر
 ان يمددها بالرجال فأجاب الطلب وأرسل جيشا جرارا على أساطيل مصر
 تحت قيادة ابنه المرحوم (ابراهيم باشا)
 وفي أثناء تأهب المصريين للدخول في بلاد اليونان كانت الدول
 الاوروبية تتناقش في سان بطرسبورغ في أمر المسئلة اليونانية . ولكن
 انكلترا كانت تعمل على عدم نجاح المؤتمر حتى يكون لها حرية تامة في
 العمل . وغاية ما أقر عليه هذا المؤتمر هو ان الدول الاوروبية تطالب
 من الباب العالي ان يعطى أمة اليونان شيئا من الحرية والاستقلال في
 ادارتها . وقد أجاب الباب العالي على هذا الطلب بأنه لا يهب اليونانيين
 حقا جديدا الا بعد تمام خضوعهم وأنه لا يقبل مطلقا تدخل أية دولة
 اوروبية أو كل الدول بینه وبين رعاياه .

*
*
*

أما المصريون فقد أتوا في بلاد اليونان من الاعمال الجليلة ما يخلده لهم
 التاريخ وما يحق لمصر ان تفتخر به في كل آن وفي كل زمان . فانهم خدموا
 الدولة العلية أكبر الخدم وأجلها وبرهنوا على ان المصري اذا تعلم وترى

يقوم بأشرف الاعمال وأعظمها . فقد هزم المصريون اليونانيين شر هزيمة واستولوا على كل بلادهم حتى ارتفعت أصوات أنصار اليونان في أوروبا ضدهم وسموا بطل مصر المرحوم (ابراهيم باشا) بالسفاح اظهارا لغيظهم من رجل قام بالواجب عليه نحو دولته وأمته ومملته .

وقد قدمنا فيما سبق ان البحرية العثمانية كان أغلب عملها من اليونانيين وكانت غير قادرة على قطع دابر اللصوص من الارخبيل وحدها . فلما طلب المرحوم السلطان (محمود) من عزيز مصر ان يمدد برجاله وسفنه أمر المرحوم (محمد علي باشا) بارسال أساطيل مصر الفخيمة الى مياه الارخبيل فاستعدت البواخر في الاسكندرية . ورأت عندئذ هذه الميناء الزاهرة مظهر جلال مصر وقوتها في البحر مما لم تره في طول حياتها مثيلا . وكان الرأي المنتشر حين ذلك بين قناصل دول أوروبا في مصر ان مصر بقوتها وسلطانها تقهر وحدها بلاد اليونان وتعيدها خاضعة للدولة العلية قبل تمام ستة أشهر .

وقد أتمت مصر تجهيزاتها الحربية في ٩ يونيو سنة ١٨٢٤ . وكان الاسطول المصري مركبا من ثلاث وستين مركبا حربية عظيمة ومن ثمانية الف جندي مصري من خيرة الرجال . وكان مع الاسطول والجيش ذخيرة سنتين كاملتين

وبعد مبارحة الجنود المصرية لشغل الاسكندرية وقفت بجزيرة (كاكسوس) وأخضعتمها وقهرت أهلها الذين كان أغلبهم يعيش من النهب والسلب . وبعد ذلك بقايل استولى الاميرال التركي خسرو باشا على « ايساراء » التي أتى

أهلها من قبل اخضاع الدولة لها من الفظائع ما يعجز القلم عن وصفه حتى
انهم قتلوا الكثيرين من أهل ساموس لعدم رضاهم بدفع شبه
جزية لهم

وما أخذ المصريون والأتراك هذين الموقعين المهمين حتى نادى أنصار
اليونان في أوروبا بالويل والثبور ونشروا الاكاذيب والمفتريات عن دخول
العثمانيين في هذين البلدين مدعين انهم ذبحوا الابرياء وقتلوا الاطفال
والنساء. هذه العبارات نفسها التي تذكر في كل خلاف يقع بين المسلمين
والمسيحيين في الدولة العلية والتي لا تتغير وان تغيرت الظروف
والحوادث.....

وفي أول سبتمبر عام ١٨٢٤ اجتمع المصريون والأتراك في خليج
(بودرون) تحت القيادة العامة لحسرو باشا. فلما علم (مياوليس) رئيس
بحرية ثوار اليونان باجتماع هذه القوى العظيمة جمع سفن الثوار كلها بين
{كوس} وجزيرة (كاباري). فوجه عندئذ (ابراهيم باشا) أسطوله الى جزيرة
كريد حيث كان وصلها من الاسكندرية جنود أخرى وأسلحة وذخائر
جديدة. وجري حين ذلك ان البحارة اليونانيين الذين كانوا تحت قيادة
(مياوليس) طالبوه بما هيأتهم ومصرتباتهم الماضية وأنذروه بانهم يعودون
الى جزأرهم ولا يبقون بسفنه اذا لم يعطهم هذه المراتب. فخار (مياوليس)
في أمره مع هؤلاء القوم الذين كان يظنهم شجعانا ابطالا وخداما لا وطن
اليوناني والذين كان يسميهم انصار اليونان في أوروبا رجال الحرية والاستقلال
وبورثة اليونانيين القدماء : : :

فاضطر عندئذ (مياوليس) الي الذهاب الي مدينة (نوبلي) . وقد كانت
 هذه المدينة مركز حكومة اليونان الثورية
 أما (ابراهيم باشا) فقد أتم كل تجهيزاته ومعداته وسار باسطوله وجنوده
 قاصدا (مودون) بلمورة حيث وصلها في ٢٤ فبراير سنة ١٨٢٥ . وما استقر
 بها حتى أخذ يهيء الجيش للقتال والحرب . وفي ٢٥ مارس من السنة نفسها
 بدأ المصريون بمحاصرة مدينة { ناورين } الشهيرة ومدينة { بيلوس }
 ولايسل القاريء عن مقدار الاحتقار والارذراء الذي كان يظهره اليونانيون
 نحو الجنود المصرية المظفرة فقد كانوا يظنونهم نساء في الحرب يهربون
 من ساحة القتال لاول طلقة نارية . ولكنهم لما اقتربوا منهم عرفوا أن
 امامهم شجعانا كبارا وأبطالا يحق لمصر على مدي الدهر أن تفتخر بهم كل
 الفخار وحق لمحمد علي ولابنه الكريم وقتئذ ويحق لسلاطنتهم من بعد ان تفاخر
 بهم جنود اعظم الامم المتمدنة

وفي كل واقعة حدثت بين المصريين واليونانيين كان اليونانيون يولون
 الادبار ويهربون مسلمين البلاد والمواقع !

وقد رأي (ابراهيم باشا) ان الاستيلاء على (ناورين) لا يكون الا بالاستيلاء
 على جزيرة (سفاكتيريا) فأرسل اليها حسين بك الجريدلي المشهور بشهامته
 العظيمة ونظره الصائب في مسائل الاستحكامات العسكرية . فقهر جنود
 هذه الجزيرة اليونانية واستولى عليها . ومما مضى الاثلاثة أيام على استيلائه
 عليها حتى فتح أهالي (بيلوس) ابوابها وسألوا (ابراهيم باشا) أن يتركهم
 يهربون بدون ان يلحق بهم الاذى . فقبل ذلك (ابراهيم باشا) وكانت نتيجة

تسامحه الجليل ان أهالى { ناورين } لما تضايقتوا من طول الحصار وياسوا من الأمر خابروه في أمر تسليم المدينة اليه بعين الشروط التي سلمت بها { بيلوس } افرضي ابن عزيز مصر بطلبهم وسقطت (ناورين) في أيدي المصريين في شهر مايو سنة ١٨٢٥

ولما رأى (ابراهيم باشا) ان اليونانيين امتلأت قلوبهم بالخوف منه ومن جنوده الاعزاء شرع في مهاجمة مدائن الموره ومعاقبتها فاستولى بدون صعوبة تذكر على (نيزى) و (كالاماتا) وبلغ (تريبوليتسا) التي تركها اليونانيون وتركوا فيها ذخائرهم من شدة تسرعهم في الهروب منها . وفي ٢٦ يونيو من سنة ١٨٢٥ استولى (ابراهيم باشا) على مدينة { أرجوس }

وقد جعل اليونانيون دأبهم وقتئذ حرق مساكنهم ومعاقلمهم ومنازلهم وتخريب المدائن والقرى . وكان أنصار اليونان في أوروبا يكذبون على العالم كله ويدعون ان ابراهيم باشا هو الذي يخرب مدائن اليونان . وقد بلغت قحة بعضهم ان سماه بالسفاح !

اما خسرو باشا فقد صدرت اليه أوامر الدولة بأن يسافر باسطوله الي الاسكندرية حيث يستعد المرحوم (محمد علي باشا) لارسال مدد جديد . فسافر اليها وكان المرحوم (ابراهيم باشا) أرسل كذلك باسطوله اليها وبقي هو وجنوده في الموره . فاهتم أمير مصر رحمه الله بتجنيد الجنود حتى تهيؤا جميعا وكان عددهم احدى عشر ألف مقاتل وسافروا من الاسكندرية بتاريخ ١٢٣ أكتوبر سنة ١٨٢٥ . وكان في ذلك الحين (رشيد باشا) محاصرا لمدينة

« ميسولونجى » التى كان المدد يصلها من اليونانيين من جهة البر وكانت محاطة ببرك عفنة انتشرت منها الامراض والحميات فى جيش رشيد باشا مما أطال الحصار وأضر بالجيش العثمانى ضررا بليغا. ولما علم بذلك (ابراهيم باشا) سافر بجنوده الي (ميسولونجى) . وكانت الجنود المصرية وصلت عندئذ من مصر برفقة خسرو باشا فقوى عدد الجيش المصرى التركى المحاصر لهذه المدينة . وفى ٩ مارس سنة ١٨٢٦ استولى الجيش على قلعة (فازيلياى) وفى ١٣ منه سقطت (انتاليكون) فى أيدي العثمانيين ولما رأى قواد الجيش المصرى التركى ان (ميسولونجى) واقعة فى أيديهم لا محالة وانها ان وقعت بغير التسليم من سكانها أسيلت فيها الدماء كتبوا الي أهلها بتسليم المدينة والاسلحة وخروج من يشاء الخروج منها وأعلنوا كل من يريد البقاء فيها انه يبقى آمنًا مطمئنا

وقد جاء عندئذ (مياوليس) باسطوله ووقف فى خليج (باتراس) ولكن الاسطول المصرى التركى هزمه شر هزيمة وقضى بهذه الهزيمة على كل آمال اليونانيين

وقد أراد اليونانيون المقيمون بميسولونجى الهجوم على الجيش المصرى التركى فى مساء ٢٢ ابريل سنة ١٨٢٦ ولكن (ابراهيم باشا) وجنوده تهبوا للامر وأطلقوا الرصاص عليهم فحصل بين اليونانيين فزع شديد وولوا الادبار وفى فجر يوم ٢٣ ابريل من السنة نفسها أى فى اليوم التالى سقطت مدينة (ميسولونجى) فى أيدي الجيوش العثمانية وفى شهر يونيو سنة ١٨٢٧ استولى الجيش العثمانى على مدينة (آتينا)

عاصمة اليونان الحالية . وقد أعجب كل منصف محب للإنسانية بالحطة التي جري عليها العثمانيون في دخولهم آتينا حيث عاملوا أهلها بالرفق ولم يقتلوا بل ولم يهينوا أحدا ما بخلاف ما عمله اليونانيون مع المسلمين عند استيلائهم في أول الثورة اليونانية على المدائن والقري

وتفصيل أخذ آتينا بالعثمانيين ان اليونانيين استدعوا اليهم اللورد (كوشران) والسير {روبرشرش} الانكليزيان ليقودا جيوشهم وعصابتهم فأجابا الطلب وسافرا الى اليونان وتوليا رئاسة الجيش اليوناني المحاصر في آتينا

وقد أبدى الجيش العثماني بقيادة {رشيد باشا} في محاصرة آتينا من المهارة والشهامة ما بقي له ذكرا عاطرا في التاريخ . فقد جمع هذا القائد العثماني الجليل بين منتهى الشهامة العثمانية ومنتهى الانسانية التي أمر بها الشرع الشريف

وان انتصار جيش {رشيد باشا} على ثوار اليونان في آتينا لمن الانتصارات المعدودة في تاريخ الحروب البشرية . فقد كاد السير {روبرشرش} نفسه أن يقع أسيرا في قبضة العثمانيين لولا انه عند الهزيمة التي بنفسه الى البحر حتى أدرك مركبا كانت بالقرب من الشاطئ

ولما رأى القائدان الانكليزيان ان لامناص من التسليم وسقوط آتينا وقلاعها في أيدي العثمانيين سألا قومندان مركب {جومون} الفرنسي أن يتوسط بين اليونانيين والعثمانيين في أمر الصلح فاجاب سؤلهما وكتب بذلك الى {رشيد باشا} فقبل القائد العثماني الشروط التي عرضها

عليه المسيو { لوبلان } قومندان مركب (جومون) وهي نزع السلاح من الجنود اليونانية وترك الحرية المطلقة لكل من يرغب السفر من أثينا ومعاملة الذين يرغبون البقاء فيها بالحسني وعلى الخصوص الجرحى منهم . ولما علم السير (شرش) بقبول (رشيد باشا) لهذه الشروط فرح كثيرا واندھش غاية الاندهاش من هذا الاعتدال العظيم الذي أظهره ظافر كبير كرشيد باشا

ولكن ثوار اليونان أرادوا أن يظهروا شيئا من الشهامة التي كان يتبرم بها أنصارهم في أوروبا فرفضوا هذه الشروط وأبوا تسليم قلاع أثينا . ولو كان { رشيد باشا } رجلا وحشيا كما قال عنه ذلك كذبا أنصار اليونان في أوروبا لكان دخل أثينا جوابا على وقاحة ثوار اليونان وشهامتهم الكاذبة وقضي عليهم وعلى جنودهم وضباطهم شر قضاء ولكنه تأنى في الامر واستعمل الدعة التي جبل عليها رعاية للبرياء من سكان أثينا

الا ان (رشيد باشا) أنذر السير (شرش) بأنه اذا لم تسلّم أثينا وقلاعها للجيش العثماني في أقرب زمن هاجم المدينة وكان حرا في عمله غير ملوم . فارسل السير { شرش } بتاريخ ١٢ مايو سنة ١٨٢٧ اعلانا لثوار أثينا وضباطها أمرهم فيه بوجوب التسليم وأنذرهم بسوء العاقبة ان خالفوا أمره

ولكن ثوار أثينا جروا على خطتهم الأولى ورفضوا الانصياع لأوامر السير (شرش) أي لأوامر قائدهم ورئيسهم

فلما رأى ذلك (رشيد باشا) كتب الى المسيو (لوبلان) قومندان

مركب (جومون) كتبنا في غاية اللطف والرفقة أظهر فيه انه عمل كل ما في وسعه للمحافظة على أرواح الابرياء من اليونانيين القاطنين بأثينا ولكن خطة ثوارهم تحمله على اتخاذ طريقة أخرى للاستيلاء على أثينا . وعندئذ أعلن السير (شرش) ثوار أثينا بانه يتركهم وأنفسهم لعدم انصياعهم لأوامره . فوقعوا في حيص بيص وارتبكوا أشد الارتباك واتهزوا فرصة وجود مركب نمساوية في الميناء فسألوا قومندانها التوسط بينهم وبين (رشيد باشا) في أمر تسليم المدينة وقلاعها بطريقة سلمية . فسلم هذا الضابط النمساوي طلبهم للمسيو (دى ريني) قومندان مركب (سيرين) الفرنسية فاستلم هذا الأخير الطلب وأخذ يخبر { رشيد باشا } مدة ثلاثة أيام حتى قبل القائد العثماني دخول آثينا بالسلم وعدم سفك الدماء . وفي يوم ٥ يونيو سنة ١٨٢٧ أمضى زعماء الثورة اليونانية بأثينا على شروط تسليم المدينة ورحلوا جميعاً عنها بعد ذلك .

وقد كتب المؤرخ الانكليزي (فنلي) في كتابه { تاريخ اليونان } عن خطة (رشيد باشا) ودخوله آثينا ما تعريبه :

« لقد اكتسب { رشيد باشا } في سقوط آثينا بخبطه التي جرى عليها شرفاً أبدياً . وظهر فوق السير { روبر شرش } شهامة في الحرب ورأيا في السلم . ولم يترك العثمانيون وسيلة من وسائل الاحتراس الا وأتوها . ولم ينتقموا أقل انتقام من اليونانيين ،

*
* *

وقد توفي في أول ديسمبر عام ١٨٢٥ القيصر اسكندر الاول وتولي

بعده (نيقولا الاول) . وما جلس هذا القيصر على أريكة الملك حتى أعلن عداؤه لتركيا وأرسل للحكومة العثمانية بتاريخ ١٧ مارس سنة ١٨٢٦ انذارا طلب منها فيه جملة طلبات مختصة بالافلاق والبغدان وبلاد الصرب وتركها مهلة ستة أسابيع لقبول طلباته وأذرها بأنها ان لم تقبل هذه الطلبات انقطعت العلاقات السياسية بين الدولتين واشتعلت نيران الحرب

فانهزت انكلترا هذه الفرصة للتقرب من روسيا وأرسلت في بادىء الامر الى بلاد اليونان ثم الى الاستانة سفيرا يعرض توسط انكلترا بين الدولة العلية واليونان فرفضت الدولة طلبه بعد ان قبله اليونانيون الذين كانوا في أسوأ الحالات بفضل (ابراهيم باشا) بطل مصر وابن عزيزها فاغتازت انكلترا من الدولة وعمت على الاضرار بمصالحها والا انتقام منها وأرسلت (والنجتون) الشهرير — بطل وترلو التي هزم فيها نابليون — الى سان بطرسبورغ ليتفق مع القيصر على المسئلة اليونانية ضد الدولة العلية وياعمل اتفاق معه وأمضى بينهما اتفاق يتضمن ان روسيا تقبل توسط انكلترا بين الدولة العلية واليونان وان بلاد اليونان تصير مستقلة استقلالاً نوعياً وانها تختار بنفسها حاكماً عليها

ومن الغريب ان انكلترا لما لم تفلح في أمر التوسط بين الدولة العلية واليونان أرادت أن تتوسط بالقوة والقهر وبالرغم عن الدولة العلية نفسها مستعينة في ذلك بالروسيا . وهكذا كانت انكلترا تفهم معنى صداقتها لتركيا ومعنى اخلاصها لملك آل عثمان :

ولما رأى المرحوم السلطان (محمود الثاني) ان انكلترا والروسيا متفتتان
ضده اضطر الى قبول مطالب روسيا منتظرا الفرص المناسبة . وأرسل
مندوبين من قبله للمخاطبة مع مندوبي روسيا في أمر عقد معاهدة بين
الدولتين ، وقد اجتمع المندوبون في (آق كرمان) ووضعوا بها في سبتمبر
عام ١٨٢٦ عهدة سميت باسم هذه المدينة تضمنت ان يكون للروسيا حق
الملاحة في البحر الاسود والمرور من البوغازين بدون ان تفتش الدولة
سفنها وأن تكون بلاد الصرب مستقلة تقريبا وتضمنت كذلك بعض
شروط مخصصة بامتيازات الافلاق والبغدان

ويقول بعض المؤرخين ان الذي حمل تركيا على قبول هذه المعاهدة
غير اتفاق انكلترا والروسيا ضدها هو تعهد روسيا صريحا للحكومة
العثمانية بعدم التداخل في صالح اليونان

وقد اجتهدت انكلترا بعد عقد هذه المعاهدة في استمالة فرنسا لها
والروسيا وتوصلت الى عقد اتفاق بينها وبين الدولتين لمساعدة اليونان
ضد تركيا أمضي عليه في لوندون بتاريخ ٦ يوليو سنة ١٨٢٧

*
* *

وقد كان هذا الاتفاق أساسا لواقعة (ناورين) الشهيرة فان الدول
الثلاث لما رأيت ان إبراهيم باشا فاز في المورة وانتصر نصر امينوا واخضع
اليونانيين كافة وان الثورة قاربت الانتهاء وأخذ لهيبها في الانطفاء أمرت
كلتاها أميرال أسطولها بان ينذر (إبراهيم باشا) بالوقوف عن كل عمل عدائي
ضد اليونانيين وبالعودة الى الاسكندرية مع رجاله وأسطوله . فرفض

{ ابراهيم باشا } هذا الطلب أو هذا الانذار قائلاً لكل أميرال انه لا يتبع غير أوامر أبيه وأوامر الدولة العلية . ولكنه لما رأى من قواد الاساطيل الاوربية استعدادهم لاشهار الحرب لاسطوله وعدهم برفع بلاغهم الي الاستانة والى والده الجليل . واتفق معهم على هدنة وقتية لحين ورود أوامر الدولة وأوامر أبيه

ولكن قواد الاساطيل لم يعملوا باتفاقهم مع (ابراهيم باشا) بل اخذوا يراقبون حركاته وسكناته ويشجعون خلافا لشروط الهدنة كل ضابط يونانى أو أوربى فى خدمة اليونان على مهاجمة المدائن والمواقع التى وقعت فى قبضة (ابراهيم باشا) وجنوده فشجعوا اللورد كوشران على مهاجمة قلعة (فازيلادى) كما شجعوا غيره من الضباط . وقد احتج (ابراهيم باشا) على هذه الأعمال ولما رأى ان احتجاجه لدى قواد الاساطيل الاوربية لم يقد شيئاً وتحقق من تشجيعهم اللورد كوشران على مهاجمة مدينة { بارس } خرج من ميناء (ناورين) مع بعض مرابطيه لانتقاذ تلك المدينة التى كان بها فوق الألف مصرى . ولكن الاسطول الانكليزى أنذر { ابراهيم باشا } بالعودة الى { ناورين } فعاد هو واسطوله احتراماً للهدنة التى كان يذكره بها قواد الاساطيل الاوربية وكانوا لا يذكرون بها أنفسهم

وجرى عندئذ ان { ابراهيم باشا } نزل الى البروتوغل فى المورة فاتهم قواد الاساطيل الدولية فرصة غيابه عن الاساطيل المصرية العثمانية وأجمعوا على تدميرها . فأصدر الاميرال { كودرنجتون } الانكليزى - الذى كانت

له القيادة العامة على الاساطيل الفرنسية والروسية والانكليزية —
 أمره باستعداد السفن الدولية وعين لكل سفينة مكانها وأتى التعليمات
 اللازمة لكل ضابط يقود مركبا . وفي يوم ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٢٧
 ادعى الاميرال (كودرنجتون) ان مركبا من المراكب المصرية قتل
 أحد بحارته انكليزيا من مركب انكليزية . وجعل هذه الجريمة المختلفة
 سببا لتدمير المراكب المصرية والتركية فسلط عليها الاساطيل المتحدة
 الدولية حتى دمرتها عن آخرها وزالت هذه الاساطيل الفخيمة في يوم
 واحد حيث كان قومندانها الاول وأميرها الاعظم (ابراهيم باشا)
 متغيبا عنها ظانا أن قواد الاساطيل الاوربية يحترمون كلامهم وعهودهم !
 ويقدر المؤرخون عدد الذين ماتوا من بحارة مصر في هذه المذبحة
 الشهيرة بستة ألف بحرى ، وقد عد أنصار اليونان مذبحة (ناورين)
 بواقعة المجد والفخار . أما أنصار الحقيقة فقد قضوا عليها شر قضاء ووجهوا
 نلام أشد الملام الى حكومات فرنسا والروسيا وانكلترا التي قامت
 باسم المدينة بامر ليس فيه الا العار والشنار . وقد قال امبراطور النمسا
 وقتئذ عن حادثة « ناورين » بانها « مذبحة » !! ونعم التسمية . وقال عنها
 جورج الرابع نفسه ملك انكلترا انها « حادثة شؤومة » ،

وقد تهيج الاحرار في انكلترا ضد الاميرال « كودرنجتون »
 واعتبروا عمله وحشيا لا شرف فيه ولا نفاق فاضطرت الحكومة الانكليزية
 لأن تعلن عدم موافقتها على عمل « كودرنجتون » . ولكنهم لم يعلن عدم
 موافقتها على هذا العمل الفظيع الوحشي الا بعد حدوثه ويتضح

من المستندات الرسمية التي لا تزال باقية في وزارة البحرية الفرنسية والتي أتت على بعضها المسيو « الفريدلتر » في كتابه عن استقلال اليونان ان حكومات فرنسا وروسيا وانكتر كانت متفقة من قبل على كل ما أتاه قواد أساطيلها . وقد قال الاميرال « كودرنجتون » لما علم بعدم موافقة حكومته على مذبحته « ناورين » : « ان الوزرا يضحونني ليحفظوا مرا كزهم »

أما { ابراهيم باشا } فقد عاد بعد المذبحة ولا يسألن القارىء عن تحسره الشديد على أسطوله العظيم الذي تركه زاهيا قويا وعاد فوجده أثرا بعد عين وعن عظيم اندهاشه من هذا العمل الفظيع الذي قام به دعاة المدينة وأنصار الحرية والانسانية . وقد احتج { ابراهيم باشا } أشد الاحتجاج على هذا العمل الوحشي وزاد احتجاجه واندهاشه عند ما علم بالمطاعن السافلة التي كان يوجهها اليه الاميرال (كودرنجتون) وبان هذا الانكليزي الذي دمر الاساطيل المصرية والتركية بأسفل الطرق وأدنى الوسائل ادعى انه - اى ابراهيم باشا - هو الخائن للعهد الناكث لشرط الهدنة وانه المسبب لواقعة (ناورين)

وقد كتب الضابط الفرنسي المسيو { بوجول } تاريخ مذبحة « ناورين » ، وأتى فيها على كل ما قاله له (ابراهيم باشا) عقب المذبحة . وانا نأتى هنا على ترجمة فصل يتضمن تصريحات « ابراهيم باشا » بشأن تهم الاميرال كودرنجتون . كتب المسيو بوجول ما ترجمته :

« قال لي (ابراهيم باشا) عند زيارتي اليه : انهم يتهمون ابراهيم بأنه

خان العهد ولم يحترم كلامه ولكنني مستعد لان أسافر لباريس وللوندرة
 اذا اقتضي الحال ذلك لآظهر الحقيقة ولكي يحمل الذين اسالوا دماء الابرياء
 وحدهم الفضيحة والملامة . وما أنشئت السفن الا لتكون فريسة النار
 أو البحار فلذلك لست اليوم آسفا عليها . ولكن آتهامى بانى خنت
 عهدى هو وشاية سافلة . وانى أعتد على شرفك يا حضرة الضابط لتبلغ
 كلمة بكلمة الى أميرالك ماقتته لك

فقل له ان ثاني يوم نواقعة « ناورين » دعا الاميرال الانكليزي
 الاميرال التركي الى مركب انكليزية وأوشى له بانى قدمت اليه مبالغ
 طائلة ليساعدنى على الاستقلال بمصر من الدولة العلية ومن التابعة للحضرة
 السلطانية وقال له بانى خان وأشار عليه بتبلغ ذلك للضباط والبحارة الاتراك
 . فماذا يقال عن هذا السلوك وعن هذا النش ؟ أو لم تبلغ الوقاحة بالاميرال
 الانكليزي انه طلب من الاميرال التركي ان يسلمه امرأة من نسائى ؟ ،
 وانه ليسهل على القاريء ان يحكمم بعد اطلاعه على أقوال « ابراهيم
 باشا » أى الرجلين صادق . ابراهيم ذلك البطل النادر المثال الذي عامل
 ثوار اليونان بعد انتصاره عليهم النصر المين بالرأفة والرحمة وما سفك
 للابرياء دما . ذلك الذى احترم عهده . أم كدر نجتون الذي تولى أمر
 تدمير أساطيل لم تعاده أقل عداً وخان بذلك عهده وكلامه وشرفه بل
 لطح أوروبا والمدنية القربية بدنس الفضيحة والعار .

وبينما كانت الدول الثلاث تتداخل لصالح اليونانيين وتسفك دماء الابرياء

لاجلهم وتدمر الاساطيل غدرا لمساعدتهم ونصرتهم كان اليونانيون يهجمون على سفن التجارة الاوربية ويسرقون كل ما فيها من المتاجر والمصانع والاموال . وقد ايد هذه الحقيقة الاميرال الفرنساوى «دى رينى» نفسه وكتب جملة كتب على هذه السرقات الفظيعة والتعديت المتعددة الى وزارة البحرية الفرنسية وقد قال في كتاب من كتبه (ان عدد السفن التي اعتدى اليونانيون عليها وسرقوا ما فيها بلغ في شهر واحد ستين سفينة) فليعجب القارىء بقوم تحارب أوروبا لاجلهم وتخون عهدها جبا فيهم ويلطخ قواد أساطيلها شرفهم وشرف دولهم بمذبحة (ناورين) وهم يجيئونها على هذا التناهي في الاحسان بالتناهي في اساءة رعاياها وسرقة أمتعتهم وأموالهم ومتاجرهم ومصنعهم !!!

*
* *

وقد طلبت الحكومة العثمانية من الدول الثلاث رضية علنية لمذبحة «ناورين» فرفضت الدول طلبها ولم تكف برفضه فقط بل طلبت منها ان تقبل مطالبها المشتركة بشأن اليونان وان تعلن استقلالها فأجابت الدولة على هذا الطلب الغريب بالاندهاش والاستغراب والرفض . فبارح عندئذ سفراء انكلترا والروسيا وفرنسا الاستانة بتاريخ ٨ ديسمبر

سنة ١٨٢٧

وفي ١٢ ديسمبر من السنة نفسها تجدد بين الدول الثلاث اتفاق لوندرة السالف الذكر . وأخذت روسيا من ذلك العهد تعمل لاعلان الحرب بينها وبين الدولة العلية . وبتاريخ ١٦ ابريل سنة ١٨٢٨ اشهرت بالفعل

اعلانها الحرب لتركيا . وفي ٧ مايو اجتازت الجنود الروسية نهر (بروث)
 ولا شك ان الدولة العلية كانت وقتئذ في أشد الاخطار وكانت
 أزمته شديدة قوية فان روسيا أظهرت عداها لها باشهار الحرب عليها
 . وانكترا أظهرت عداها لها بمساعدة اليونانيين في السر والجهر وبترك
 أسطولها واقفا في مياه الشرق يهدد موانئها وبعقد المؤتمرات المختلفة
 لاعلان استقلال اليونان بالرغم عن اخضاع (ابراهيم باشا) لثورويهم
 وانطفاء نار الفتنة . وفرنسا اشتركت في هذه العداوة بارسال جيش
 جرار تحت قيادة الجنرال « ميزون » الى بلاد اليونان

وقد رأى عندئذ المرحوم « محمد علي باشا » بنظره الصائب ان الدول
 الثلاث متفقة كلها ضد الدولة العلية وأن مأمورية مصر قد انتهت بقمع
 الثورة اليونانية فأصدر أمره الى ابنه المرحوم (ابراهيم باشا) بالعودة هو
 وجنوده الى الوطن العزيز فصدع بأمر والده وعاد لمصر . حيث احتلت
 الجنود الفرنسية المواقع والبلاد التي أخلتها جنود مصر

وبذلك يري القاري ، ان الدول الثلاث كانت تعمل في آن واحد ضد
 الدولة العلية وكانت الدولة بلا نصير ينصرها ولا صديق يساعدها
 وكانت النمسا تعضدها بالقول في الباطن وتعلن في الظاهر صداقتها للروسيا
 شأنها في سياستها على الدوام . فضلا عن ان الجيش العثماني كان حديث
 التشكيل لان المرحوم السلطان { محمود } قد أني طائفة الانكشارية
 ومع ذلك فقد أظهرت الجنود العثمانية في الحرب مع الروسيان من الشهامة
 والثبات ما حير رجال الحرب في أوروبا وأدهش الروسيين . فان الجيش

الروسي مع عظيم استعداده وكثرة عدده لم يستول على «وارنا» الا بعد صعوبات حمة ولم يستطع أخذ مدينة شوملا . واضطرلار جوع الى الوراء في شهرى اكتوبر ونوفبر بعد ان خسر الخسائر الجمة . وقد قارن وقتئذ (مترنيخ) وزير النمسا الاول تقهقر الروسيين في هذه الحرب بتقهقر نابليون في عام ١٨١٢

وقد استمرت الحرب في عام ١٨٢٩ . ولكن الجنود العثمانية التي كانت مشكلة حديثا كما قدمنا لم تستطع مقاومة الجيش الروسي تمام المقاومة فاستولى هذا الجيش على مدينة (اسكي استانبول) واجتاز جبال البلقان وبلغ في ٢٠ أغسطس سنة ١٨٢٩ مدينة (أدرنه) . وبالرغم عن هذه الانتصارات فان القيصر نيقولا الاول كان يخاف الهزيمة لما رأى عند الجيش العثماني من الدراية والكفاءة في سنة ١٨٢٨ ولذلك سأل ملك بروسيا أن يتوسط في أمر الصلح بينه وبين الدولة العلية . فقبل ملك بروسيا ذلك وتوسط بالفعل في أمر الصلح وفي ٤ ستمبر من السنة نفسها أمضت روسيا والدولة العلية على معاهدة { أدرنه } . وهي تتضمن استيلاء الروس على جملة مواقع اسبوية وضمانة حقوق الافلاق والبغدان وصربيا وحرية مرور السفن الروسية من بوغازي الدردنيل والبوسفور وحرية التجارة للرعايا الروسيين وتضمن أيضا ان الدولة العلية تدفع للروسيا غرامة حربية تبلغ الخمسة ملايين ونصف من الجنيهات . وان الدولة العلية تقبل ما اتفقت عليه الدول بشأن اليونان

وهذا الاتفاق بين الدول بشأن المسئلة اليونانية لم يكن مشتملا الاعلى

جعل بلاد اليونان مستقلة تمام الاستقلال ! وقد أمضت الدول في لوندرة بتاريخ ٣ فبراير سنة ١٨٣٠ على معاهدة بهذا المعنى وبذلك انتهت هذه الازمة الشديدة وتم استقلال اليونان. وأن القاريء يجد من خلال هذه السطور ومن مطالعة هذه الحوادث الحكم الصحيح على خطة الدول نحو الدولة العلية ويرى كيف انها أخرجت من تحت حكم الدولة بلاد اليونان بحجة المسيحية والمدنية مع ان روسيا جزأت من قبل مع البروسيا والنمسا بلاد بولونيا ولم ترع للمسيحية حرمة ولا للمدنية مقاما ! وهكذا الغرض في كل الامور يعنى الدول كما يعنى الافراد

﴿ الازمة الثانية ﴾

(مسألة الشام)

(بين مصر والدولة العلية)

ان هذه الازمة هي الازمة التي اذا تذكرها العثمانيون والمسلمون امتلاً وحسرة وأسفا اكثر من كل أزمة سواها ، لانها أعظم شقاق وقع بين التابع والمتبوع وبين مصر والدولة العلية أي بين قلب الخلافة الاسلامية وهذه الخلافة نفسها وبين روح المملكة العثمانية وهذه المملكة وسيجد القارىء في هذا الفصل تفاصيل هذه الازمة المشؤمة وما جرت على الدولة ومصر والاسلام من الاضرار والمصائب مما سبق أبدا الدهر درسا للعثمانيين والمسلمين ونذيرا بأن الشقاق بين أعضاء مجموع واحد يعود على المجموع كله وعلى أعضائه عضوا عضوا بالمصائب العظام والبلايا الجسام

ابتدأت هذه الازمة بخلاف وقع بين عزيز مصر ووالي (عكا) بسبب مهاجرة بعض المصريين الي الشام حيث لم يرض والى (عكا) بأن يعيدهم الي مصر طبقا لرغائب المرحوم { محمد علي باشا } . فأمر عزيز مصر ابنه المرحوم (ابراهيم باشا) بالسفر الي بلاد الشام على رأس جيش جرار للانتقام من هذا الوالي فسافر واستولي في ٢٧ مايو سنة ١٨٣٢ على (عكا) وبعد الاستيلاء عليها دخل هو وجيشه دمشق وحمص وعبر جبال طوروس بعد معارك مختلفة بين الجيش المصري والجيش التركي وقد انتهت سنة ١٨٣٢ بوصول المرحوم (ابراهيم باشا) الي قلب

آسيا الصغرى حيث وقعت بين عساكر مصر وعساكر الدولة واقعة
 { قونية } الشهيرة التي انتهت بسقوط هذه المدينة في أيدي المرحوم
 « ابراهيم باشا » . وكان ذلك في ٢١ ديسمبر سنة ١٨٣٢ - وقد وقع في هذه
 الواقعة أسيرا في أيدي المصريين المرحوم « رشيد باشا » الذي كان يقود
 الجيش التركي امام « ابراهيم باشا » والذي كان من قبل في بلاد اليونان
 مكلفا بقمع الثورة اليونانية

ولا شك ان هذه الانتصارات المتوالية تدل من جهة على ما كان لمصر
 وقتئذ من القوة الهائلة وتحمل الانسان من جهة أخرى على التساؤل كيف
 تقهر الأتراك الأبطال في هذه المواقع . فالجواب على ذلك ان المرحوم
 السلطان { محمود الثاني } كان قد ألقى طائفة الانكشارية كما قدمنا وكان
 مشغولا بتنظيم جيش جديد عند ما قام المرحوم { محمد علي باشا } باحداث
 هذه الازمة المشؤومة ولم يكن الجيش التركي الجديد مستعدا تمام
 الاستعداد للقتال

وكان من نتيجة هذا الخلاف المشؤوم بين مصر والدولة العلية ان
 المرحوم السلطان (محمود الثاني) اضطر للاستنصار بالدول الأوروبية .
 فانهزت روسيا هذه الفرصة لتقوية نفوذها في تركيا وجعل سيطرتها
 عظيمة على الباب العالي فظهرت للدولة العلية استعدادها لمساعدتها ضد
 عزيز مصر وأرسلت الى الاستانة الكونت (مورافيف) أحد ضباط
 القيصر الحصوصيين مكلفاً بتبليغ الباب العالي ان الحكومة الروسية تقدم
 اليه اذا أراد أسطولا قويا وجيشاً عظيماً لنصرة الدولة ضد عزيز مصر

ومكلفاً كذلك بالسفر الى الاسكندرية لاقتناع المرحوم (محمد على باشا) بضرورة الاتفاق مع الدولة والرجوع عن نواياه ومشروعاته ضدها وبالفعل ذهب {مورافيف} الى الاستانة فاستقبل رجال الدولة بلاغه بالرضي مع الحزن الشديد على هذه الحالة التي وصلوا اليها بسبب الشقاق المشؤوم بين المتبوع الاعظم والتابع اى بين خليفة الاسلام وأكبر أمرائه وقد سافر الكونت (مورافيف) من الاستانة الى الاسكندرية في يناير عام ١٨٣٣ بقصد اقتناع عزيز مصر بوجود حل المشكلة حلالاً سلمياً هذه كانت سياسة روسيا وسيرى القارىء نتائجها السيئة على الدولة العثمانية . أما البروسيا فلم تتدخل في الامر بل تركت بقية الدول الأوروبية مشغولة بالمسئلة وانتظرت النتيجة . وقد ودبض سراس النمسا أن تتدخل دولتهم في هذه الازمة المهمة لتحول دون اغراض روسيا ولكن القابضين على أمور المملكة النمساوية حينئذ رأوا ان الثورة تهدد دولتهم من كل جانب وانهم في حاجة شديدة لعضد روسيا ومساعدتها فالتزموا لهذا السبب الحيادة واختاروا سياسة مراقبة الحوادث والانتظار اما انكلترا فقد كانت أميالها من بادىء الامر ضد أميال عزيز مصر . ولكنها كانت تخاف أيضاً نفوذها في تركيا بتقوية نفوذ روسيا فكانت تريد العمل ضد روسيا ومساعدة تركيا في آن واحد غير ان ايرلندا كانت في ذلك الحين قائمة بالثورة ضد بريطانيا رغبة في نوال حريتها واستقلالها فبقيت لذلك انكلترا مترددة في سياستها ولم يكن لعزيز مصر بين الدول الأوروبية دولة تريد نصرته في السر

والجهر غير فرنسا . فان الرأي العام فيها كان يجب (محمد علي باشا) جباشديدا
 وكانت أعمال عزيز مصر ومجهوداته في سبيل رفع شأن مصر وتمدينها
 معروفة في فرنسا ومقدرة فيها حق قدرها لاسيما وان أغلب عمال عزيز
 مصر في تمدين مصر كانوا من الفرنسيين . وكان بين (لويس فليب)
 ملك فرنسا وبين (محمد علي باشا) مودة شديدة وصداقة متينة

الا ان سفير فرنسا في الاستانة كان يخاف سقوط نفوذ دولته في
 المملكة العثمانية بقدر ارتفاعه وازدياده في مصر ففرض على الباب العالي
 ان يتوسط بينه وبين أمير مصر وكتب الى المرحوم « ابراهيم باشا » يرجوه
 باسم فرنسا ان لا يتقدم في فتوحاته وكتب الى المرحوم (محمد علي باشا)
 يسأله ان يقبل الشروط التي أرسل بها اليه المرحوم السلطان (محمود الثاني)
 مع خليل باشا . وهذه الشروط كانت تنحصر في تنازل الدولة لعزيز مصر
 عن ولايات (عكا و نابلس وصيدا وبيت المقدس) . ولكن (محمد علي باشا)
 كان يريد الاستيلاء على الشام كلها وكان قنصل فرنسا بمصر يشجعه على
 أمياله وأغراضه . فلذلك لم يقبل عزيز مصر الشروط السلطانية التي عرضها
 عليه خليل باشا ولم يلق رجاء سفير فرنسا بالاستانة عنده قبولاً لانه اعتبره
 مجاملة لتركيا وغير صادر عن تعليمات سياسية واردة من الحكومة
 الفرنسية . وأمر ابنه المرحوم (ابراهيم باشا) بالتقدم في فتوحاته فصدع
 بالامر وتقدم الى ان وصل مدينة (كوتاهيه)

فلما علم المرحوم السلطان (محمود الثاني) بذلك سأل روسيا في آخر يناير
 سنة ١٨٣٣ أن ترسل اليه باسطولها فوعده بذلك . وفي هذه الاثناء عاد

« مورافيف » من الاسكندرية وكان قد نجح في مأموريته لدى (محمد على باشا) بعض النجاح فأعلن الباب العالي أن أمير مصر وعده وأصدر أمره لابنه بالوقوف عن التقدم في فتوحاته . فلما علمت الدول الأوروبية بذلك رأت ان مجيء الاسطول الروسي الي مياه البوسفور صار غير لازم فسألت الباب العالي ان يجعل وقوفه ببلاد القرم ولكن روسيا كان يهمها ان يظهر اسطولها في مياه الشرق ويعلم المسلمون قبل المسيحيين انها صارت حامية للمملكة العثمانية والامينة على مصالح دولة آل عثمان !! :

فجاء الاسطول الروسي الي مياه البوسفور وجعل مرساه امام سراي السلطان وبعد وصوله بأيام قليلة وصل جزء من الجيش الروسي الي الاستانة وأقام بها . فهاجت لذلك انكلترا والنمسا وفرنسا وطلبت من الدولة العلية الاسراع بالاتفاق مع عزيز مصر وابعاد العساكر الروسية عن أراضي الدولة . فقبل المرحوم السلطان (محمود الثاني) طلب الدول الثلاث وبعد محادثات مختلفة أعلنت الدولة العلية في أوائل مايو سنة ١٨٣٣ بخطين شريفين أنها عينت أمير مصر واليا على الشام وعلى ولاية (أطنه) . وقد سمي هذا الاتفاق الذي صدر به الخطان الشريفان باتفاق (كوتاهية) نسبة الي المدينة التي كان محتلا لها (ابراهيم باشا) عند عقد هذا الاتفاق

ولما صدر هذان الخطان الشريفان سألت الدول الأوروبية الدولة الروسية ان تسحب أسطولها من مياه البوسفور وجنودها من أراضي الدولة فأجابت الطلب ولكنها لم تنفذه الا بعد ان أمضت مع الدولة

العلية على معاهدة (خونكار اسكاهسي) التي جعلت للروسيا في الدولة
العلية نفوذا قويا وسلطة عظيمة

ومضمون هذه المعاهدة ان الدولة العلية تحالف مع روسيا تحالفاً
دفاعياً وان تتعهد كل واحدة منهما بمساعدة الاخرى في داخل بلادها أو
في خارجها حسب الظروف . ولاشك ان ظاهر هذه المعاهدة لا يفيد
شياً غريباً ولكن المتأمل يرى ان الدولة الروسية كانت غير واقعة وقتئذ
تحت خطر . فكان من المستحيل ان ترسل الدولة العلية يوماً ما جيشاً تركياً
لداخل البلاد الروسية بخلافها فانها كانت واقعة تحت خطر ظاهر وكان
احتمال دخول الجنود الروسية الى قلب المملكة العثمانية حاصلًا . ذلك
فضلاً عن ان روسيا كان في استطاعتها ان تحدث في قلب الدولة من
الاضطرابات ما تشاء لما كان لها فيها من الآلات القوية . أى انه كان يمكنها
ان ترسل بجنودها الى داخل الدولة في أى وقت تريد

والذي يثبت ان دخول الجيوش العثمانية الى قلب المملكة الروسية
كان مستحيلاً حتى في حالة قيام الحرب بين روسيا وبين احدى الدول
خلافًا لظاهر معاهدة (خونكار اسكاهسي) ان روسيا اشترطت في
آخر المعاهدة ان الدولة العلية غير ملزمة بارسال مدد عسكري اليها في حالة
وقوع الحرب بينها وبين احدى الدول بل يكفيها عوضاً عن ارسال مدد
عسكري ان تقفل بوزار الدردنيل أمام أماطيل الدولة أو الدول المحاربة
لروسيا

وقد علمت فرنسا وانكلترا بهذه المعاهدة وعلمت كلتاها على أبطالها

ولكن مسعاها لم ينجح وتكدرت بذلك علاقتهما مع روسيا

*
* *

ولم يسر حكم هذا الاتفاق طويلا فان انكلترا التي كان يسوءها استتباب السكينة والسلام في الشرق والتي اقتضت سياستها في كل أطوار المسئلة الشرقية اضعاف سلطة المسلمين عملت على تحريض الدولة العلية على الاخذ بالثار والانتقام من عزيز مصر . وفضلا عن اهتمام انكلترا باضعاف السلطة الاسلامية في الاستانة ومصر فانه كان يروق لها ان تأخذ المركز الاول في النفوذ لدى الباب العالي وتخفض من نفوذ روسيا وسلطتها . فلذلك استمرت تحرص الدولة على الانتقام من (محمد علي باشا) ووجدت عند رجال الدولة أذانا صاغية لان قلوبهم كانت قد تغيرت من جهة مصر وأميرها وتركت فيها حوادث الشام آلاما كبيرا

وقد نجحت انكلترا في هذه السياسة وعقدت مع الباب العالي اتفاقا تجاريا يخول لها كل ما للروسيا من الحقوق والامتيازات وقابلت ثقة تركيا بها بان استعدت لاحتلال (عدن) كأنها أرادت ان تعرف الحكومة العثمانية مقدار ثمن المودة الانكليزية

ومع ذلك فقد اتبعت الدولة العلية آراء الانكليز ونصائحهم وسيرت جيشاً جرارا الي آسيا تحت قيادة (حافظ باشا) . فعبر هذا الجيش نهر الفرات في ٢١ ابريل سنة ١٨٣٩ وفي ٧ يونيو من السنة نفسها أعلنت الدولة العلية الحرب على جيوش مصر . وقد كان المرجوم (محمد علي باشا) علم من

قبل باستعداد الدولة لمحاربه واخراجه من الشام فتأهب للقتال واستعد
أكمل استعداد

فلما علمت الدول الأوروبية باستعداد الدولة العلية للحرب اهتمت
كلها بالمسئلة وأخذت انكثرا تبذل الجهد في استماله فرنسا اليها والاتفاق
معها على مساعدة تركيا ضد محمد علي باشا واضعاف نفوذ الروسيا في الدولة
العلية. ولكن فرنسا لم تقبل الاتفاق مع انكثرا ضد عزيز مصر لما كان
له عندها وعند الشعب الفرنساوى من الاحترام العظيم والكلمة العلية
وقد قام وقتئذ الخطباء على منبر مجاس النواب الفرنساوى بالقاء
الخطب البليغة دفاعا عن أميال عزيز مصر وأغراضه السياسية سائلين
حكومتهم مساعدته ومنع كل عمل عدائى ضده. ولم يظهر الرأي العام
الفرنساوى قوته وشدة تأثيره على حكومته في ظروف كثيرة مثل ما أظهر
في مسئلة الخلاف بين مصر والدولة العلية فانه كان متصراً لعزيز مصر
أشد الانتصار

وقد أدى رفض فرنسا لطلب انكثرا الى اتفاق هذه الدولة مع
الروسيا اتفاقاً مبدئياً ضد عزيز مصر

أما النمسا فقد عرضت على الدول مشروع عقد مؤتمر بيننا لحل
المشكلة المصرية ، فلم تقبل، الروسيا هذا الطلب خوفاً من تداخل الدول
في شؤون تركيا الداخلية واضعاف نفوذها بمثل هذا التداخل . ورفضت
فرنسا كذلك طلب النمسا منعاً لاتفاق الدول ضد (محمد علي باشا)
وبينما الدول مشغولة بهذا الخلاف الخطير اذ انتشر خبر واقعة (نصيين)

أو « نزيب » التي انتصر فيها الجيش المصري بقيادة « ابراهيم باشا » على الجيش التركي في ٢٤ يونيو سنة ١٨٣٩ . وبعد هذه الواقعة بأسبوع واحد توفي المرحوم السلطان (محمود الثاني) ولم تكن وصلته أخبار واقعة « نصيين » لعدم وجود الاسلاك البرقية وقتئذ . وتولي بعده على الاريكة العثمانية ابنه السلطان الغازي (عبد المجيد خان)

وفي ٤ يوليو من السنة نفسها شرع أحمد باشا القبودان الأول للأسطول العثماني في تسليم هذا الاسطول لعزير مصر وسبب ذلك انه كان يبعث خسرو باشا الصدر الاعظم بغضاً شديداً ويميل كثيراً الى عزير مصر . فلما علمت الدول الأوروبية بهذا النبا الغريب أرسلت مذكرة الى الباب العالي بتاريخ ٢٧ يوايو سنة ١٨٣٩ تفيد انه متفقة كلها على مساعدته في هذه الازمة ودفع الخطر عن المملكة العثمانية . وقد اشتركت فرنسا مع بقية الدول في ارسال هذه المذكرة ولم يكن قصدها بذلك الاشتراك معها ضد (محمد علي باشا) بل منع اتفاقها ضده اتفاقاً حربياً وبناء على رجاء فرنسا لم يتقدم « ابراهيم باشا » بعد « نصيين » بل وقف عندها

وقد عرض وقتئذ بالمرستون وزير خارجية انكلترا على الدول الأوروبية ان ترسل جميعها انذارا لعزير مصر تأمره فيه بسحب جنوده من الشام والاكتفاء بأمارته على مصر وتهده بانها تنفذ مطالبها بالقوة ان لم يرض بها ويدعن ايها . فعارضت فرنسا مطلب بالمرستون أشد المعارضة وطلبت باسم (محمد علي باشا) تعيينه أميراً على مصر والشام وبلاد العرب

واستمر الجدل بين حكومتى باريس ولوندره طويلا واشتدت لهجة السياسيين من الجانبين كما اشتدت لهجة جرائد الدولتين وتكدرت عقب ذلك العلاقات بين الحكومتين . فسعت الروسية ان تضم اليها انكلترا وتجعل ما بين هذه وفرنسا من الخلاف اساساً لوفاق يوضع بينها وبين انكلترا وأرسلت لهذا الغرض البارون دى (برونو) لولوندره . ولكن بعض وزراء الحكومة الانكليزية كانوا يخالفون بالمرستون رأياً وكانوا يودون الاتفاق مع فرنسا . فلم يتم لهذا السبب بين انكلترا والروسيا الاتفاق وعاد البارون دى (برونو) الى سان بطرسبورغ ليتلقى تعليمات جديدة

وقد زاد وقتئذ تهييج الشعب الفرنساوى فى صالح عزيز مصر ازديادا هائلا وخاف { لويس فيليب } ملك فرنسا من عواقب هذا التهييج فأمر بارجاع بقايا { نابليون الأول } من جزيرة سانت هيلينه ودفعها بباريس فى موكب حافل ليشتغل الشعب الفرنساوى عن مصر وأميرها بذكرى نابليون الأول وذكرى فتوحاته وانتصاراته العديدة . وبالفعل جيء بجثة نابليون الأول وسارت فى باريس فى موكب لم ير له مثيل لافى جلاله ولا فى نخامته . مما حول أنظار الشعب الفرنساوى عن مصر قليلا لا كثيرا

أما انكلترا فقد اتفق سواها مع البارون دى { برونو } بعد عودته من روسيا ودعوا الدول الأوروبية لارسال مندوبين من قباهم لحضور مؤتمر يعقد بلوندره لحل المشكلة المصرية . وقد اشتركت فرنسا فى هذا المؤتمر غير ان سفيرها بلوندره المسيو { جيزو } الشهير وجه عنايته كلها

لمد أجل المؤتمر ومنع الدول من الوصول الى اتفاق نهائي لأن الحكومة الفرنسية كانت مشتتة سراً بالتوسط بين تركيا ومصر وكانت تؤمل بلوغ نتيجة مرضية لعزيم مصر بدون تداخل الدول الاخرى .

وقد نجحت فرنسا في مخبراتها السرية مع مصر والباب العالي بعض النجاح وتوصلت الى عزل (خسرو باشا) الصدر الأعظم ، الا ان (بونسوني) سفير انكترابالاستانة علم بمخبرات فرنسا السرية وأبلغ حكومته هذا الخبر العظيم الالهية . فهاج (بالمرستون) لذلك واغتاظ كثيراً وصمم على الانتقام من فرنسا فندس الدسائس ضد (محمد علي باشا) في الشام وأقام أهاماً ضده وعمل على عقد اتفاق بين انكترابالروسيا والنسا والبروسيا أي بين كل دول أوروبا ماعدا فرنسا . وبالفعل عقد هذا الاتفاق وأمضي مندوبو الدول الاربع في لوندرة بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ على اتفاقية مختصة بالمشكاة المصرية

وهذه الاتفاقية تضمنت ان (محمد علي باشا) يرد الى الدولة جزيرة كريد وبيت المقدس وأطنه وبلاد الشام الشمالية وان يحفظ له ولائته من بعده مصر ويتولى ولاية (كاك) مدة حياته . وانه ان لم يخضع لاوامر الدول في مدة عشرة أيام من تاريخ ارسال الانذار الدولي اليه لاترك الدول له غير مصر وان لم يخضع في مدة عشرة أيام أخرى لاترك له مصر نفسها وتضمنت هذه الاتفاقية غير ذلك ان الدول تشترك في حماية بوغازي الاستانة والدردينيل ضد كل اعتداء

وقد اتفق مندوبو الدول في هذه الاتفاقية على انها تنفذ قبل توقيع

دولهم عليها اذا اقتضى الحال ذلك
وما علم (لويس فيليب) ملك فرنسا بهذه الاتفاقية حتى أعلن غضبه
وسخطه ووافق وزيره الاول (تيرس) على الاستعداد للحرب فوجد هذا
الايخبر الجنود الفرنسية وجمع الرديف واشتغل بتحصين الحدود وساعد
الجراند على تهيجها الشعب ضد دول أوروبا. فتهيجت فرنسا كلها منادية
بالانتقام لها ولا مير مصر من دول أوروبا

وفي ١١ سبتمبر سنة ١٨٤٠ ضرب الاميرال الانكليزي (ناييه) ثغر
بيروت وجبر (ابراهيم باشا) على اخلاء هذا الثغر. وبعد اخلاءه بثلاثة
أيام أعلن الباب العالي عزل (محمد علي باشا) من أمانة مصر نفسها وكان
ذلك بناء على ايعاز (بونسوني) سفير انكلترا بالاستانة. فاحدثت
هاتان الحادثتان في فرنسا تأثيرا شديدا وهياجا عظيما مما جعل عناية
الحكومة الفرنسية بتميم استعداداتها الحربية عظيمة شديدة وصير
الحرب قاب قوسين أو أدنى

وقد استعفى بعد ذلك بقنصل المسيو (تيرس) من رئاسة الوزارة
الفرنساوية وعين مكانه المرشال (سولت) وتقلد المسيو (جيزو) سفير
فرنسا بانكلترا منصب وزارة الخارجية. فبذل أقصى جهده في تعديل
اتفاقية ١٥ يوليو التي عقدت بين الدول الاربع في لوندرة ولكنه لم يفلح
في مسعاه لشدة كراهة (المارستون) وزير خارجية انكلترا فرنسا ولعزير

مصر

وفي ذلك العهد جاءت الاخبار من الشام مؤيدة آمال (المارستون) فان

الاسطول الانكليزي والاسطول النمساوي استوليا على أهم الموانئ السورية وخرجت (عكا) نفسها من أيدي الجنود المصرية في ٢ نوفمبر سنة ١٨٤٠ - ولم يستطع المرحوم (محمد علي باشا) قمع الهيجان الذي أحدثته الدسائس الانكليزية ضده في الشام. فسر بالمرستون بهذه الاخبار وأراد ان يزيد الطين بلة ويجعل الاضطراب عاما في كل أنحاء أوروبا فاقترح على الدول الأوروبية عزل (محمد علي باشا) من أمانة مصر نفسها واخراجه هو وعائلته من الديار المصرية. فازداد لذلك الهياج في فرنسا ازديادا هائلا وحمل المسيو (تيرس) في مجلس النواب الفرنسي على الوزارة حملة شديدة متهما أياها بترك انكلترا تنتقم من { محمد علي باشا } صديق فرنسا الحميم فأجاب المسيو (جيزو) وزير خارجية فرنسا على اعتراضات { تيرس } وغيره من الخطباء بأن فرنسا لا تقبل أبدا نزع أمانة مصر من أيدي { محمد علي باشا } وأبنائه من بعده وأنها مستعدة للدفاع عن حقوقه في مصر ولو اضطرت الى الحرب. فأدركت أوروبا من لهجة الحكومة الفرنسية ان قبول اقتراح بالمرستون يكون داعية لحرب عامة وأصلا لمصائب جمّة فرفضته إرضاء لفرنسا ومنعا للحرب وعواقبها الوخيمة

ولم يرضخ المرحوم (محمد علي باشا) لأوامر الدول الأوروبية الا عندما رأى ان فرنسا غير قادرة على مقاومة أوروبا كلها وان الأدميرال الانكليزي (نابليه) يهدد ثغر الاسكندرية ان بقي مستمرا على المقاومة وعدم الانصياع لأوامر الدول. فأمضى معه اتفاقية تعهد فيها

بسحب الجنود المصرية من الشام وتعهده فيها الاميرال (نابييه) بجعل اماره مصر له ولابنائه من بعده . وما وصل خبر هذه الاتفاقية الى الاستانة حتى اشار « بونسونبي » سفير انكلترا بها على الباب العالي برفضها فرفضها وصرح بأنه لا يقبل جعل اماره مصر ورأية لعائلة (محمد علي باشا) بل له وحده مدة حياته

فلما علمت فرنسا بذلك عرضت حكومتها على مجلس النواب مشروع تحصين مدينة باريس أي اتمام الاستعدادات الحربية فأقر المجلس على المشروع بارتياح تام وأيد الحكومة في خطتها ودفاعها عن حقوق مؤسس العائلة الخديوية . فاضطرت حكومة النمسا وحكومة البروسيا عند ما تحققت ان استعدادات فرنسا للحرب حقيقية وان الاعتداء على حقوق (محمد علي باشا) وسلالته في مصر يكون سببا لحرب عمومية في أوروبا . واتفقتا على منع الحرب بكل الوسائل وتأييد « محمد علي باشا » وسلالته من بعده في اماره مصر وجبرتا بالفعل انكلترا والروسيا على تقديم مذكرة مشتركة معهما للباب العالي طلبت فيها الدول الاربع جعل اماره مصر لمحمد علي باشا وسلالته من بعده . وقد قدمت هذه المذكرة في ٣١ يناير سنة ١٨٤١ وأخذت النمسا بعد تقديمها تجتهد في استمالة فرنسا للاشتراك مع بقية الدول في أمر تسوية المسئلة المصرية . فقبلت فرنسا ذلك ولكنها اشترطت عدم التعرض لاتفاقية لوندرة التي أبرمت بالرغم عن معارضتها وتم مفعولها

وقد أقرت فرنسا مع الدول في لوندرة على اتفاقية البوغازات التي

تضمنت قفل بوغاز الدردنيل والبوسفور لكل سفن الدول الحربية بلا استثناء

وقبل ان تمضي الدول على هذه الاتفاقية أصدر الباب العالي — متبعا في ذلك نصيحة السفير الانكليزي « بونسوني » — خطا شريفا أعلن فيه ان حكومة مصر تبقي وراثية لعائلة « محمد علي باشا » ولكن الدولة تحتم انتخاب من تشاء من أعضاء العائلة لامارة مصر عند وفاة أميرها الحاكم وان لا تجند مصر أكثر من ثمانية عشر ألف عسكري وان تؤخذ الضرائب بنفس الطريقة التي تؤخذ بها في تركيا وأن يرسل للدولة منها الربع . فرفض عزيز مصر هذه القيود كما رفضتها فرنسا وعاد الهياج والاضطراب في فرنسا الي ما كانا عليه . فاهتم « مترنيخ » وزير النمسا الاول بالامر وسعى في عزل الصدر الاعظم « رشيد باشا » الذي كان يعمل بنصائح السفير الانكليزي فعزلته الدولة وعينت مكانه (رفعت باشا) وأصدرت ارادة جديدة بتعيين (محمد علي باشا) واليا على مصر وجعل اماره مصر لابنائه من بعده الأرشد فالارشد . وبان يتفق بعد بين مصر والباب العالي على مبلغ ترسله مصر سنويا للدولة العلية

فقبل المرحوم (محمد علي باشا) هذه الشروط في ١٠ مايو سنة ١٨٤١ ولم يعد لانكلترا وسفيرها بالاستانة حجة لخلق المشاكل ومد أجل الشقاق وبذلك أمضت الدول كلها في نوندره بتاريخ ١٣ يوليو من السنة نفسها على اتفاقيتين الاولى معلنة قفل باب المسئلة المصرية (حين ذاك) والثانية متعلقة بقفل بوغازي الدردنيل والبوسفور أمام سفن الدول الحربية

وبذلك انتهت هذه الازمة المشؤمة

*
* *

لا ريب ان المرحوم (محمد علي باشا) كان يعمل لتوسيع نطاق مملكه وكان مولعاً بان يتولي اماره مصر والشام لتم له الكلمه في الشرق وفي البحر الابيض المتوسط . وكأنه رأي مارآه قبله نابليون . من ان صاحب مصر لا يهتأ له عيش ولا تكمل له سعادة بغير الشام وكذلك صاحب الشام لا تؤيد امارته ولا تقوي سلطته الا باستلامه زمام أمور مصر فطمح لذلك . وؤسس العائله الخديويه لجعل الشام تحت حكمه وانتهز فرصة رفض والي (عكا) قبول طلبه بارجاع المصريين المهاجرين من مصر الى وطنهم لفتح الشام وتحقيق أمانيه . ومما سهل له ذلك علمه بارتباك أحوال الدوله عندئذ واشتغال المرحوم السلطان (محمود الثاني) بتنظيم جيش جديد

وقد ذهب بعض المؤرخين الى ان (محمد علي باشا) كان يؤمل القبض على زمام الخلافة الاسلاميه والسلطنة العثمانية والجلوس على أريكة ملك آل عثمان . ولكنني لست ممن يرون هذا الرأي بل ولا ممن يظنونه ظناً . فان (محمد علي باشا) الذي وهبه الله من الذكاء النادر والفكر الحاد والنظر الصائب والبصيرة الصادقة ما جعله في نظر الكثيرين فوق « نابليون » رأياً وعملاً أبعد من أن يؤمل مثل هذا الامل المستحيل وان ذلك الذي سخرت له الرجال وذات أمامه صعاب الاعمال كان يعلم أكثر من كل إنسان ان زوال المملكة العثمانية أمر لا يكون الا اذا

زال هذا الوجود وان دولة روسيا القوية العظيمة لم تستطع بلوغ هذه الغاية . فكيف به وما كان الا أمير مصر ؟

كلا . انى لست ممن يرون بان مؤسس العائلة الخديوية الكريمة كان يؤمل أو يحلم ان يقبض على زمام الدولة العثمانية ولكنه كان يريد أن يحكم الشام مع مصر . وهاهي رسائله الى (لويس فيليب) ملك فرنسا مدونة في المستندات الرسمية والتاريخية تثبت ان غاية أمانيه كانت الاستيلاء على الشام .

ولو كان يعلم عزيز مصر بالتأنج السيئة والعواقب الوخيمة التي تنشأ عن دخوله الشام ووقوع الخلاف بينه وبين الدولة العلية لكان ولا محالة عدل عن أمنيته وعمله . ولا جرم أن (محمد على باشا) تندم طويلا على هذا الخلاف المشؤم وتحسر على ما فرط منه

وقد يذهب الان نسان عند ما يقلب صحائف تاريخ هذه الازمة المشؤمة الى ان هنالك أسراراً لم يكشفها لنا التاريخ دفعت بعزيز مصر ضد الدولة العلية . فان المرحوم (محمد على باشا) كان يعلم علم اليقين ان انكلترا هي أول عدوة له ولمصر وانها لذلك تعاكسه بكل مافي وسعها . وكان لا يغيب عنه ان روسيا لا يروق لها استيلاؤه على الشام وتأسيس دولة اسلامية جديدة يكون لها من القوة والحول ما تستطيع معه الدولة العلية يوما من الايام ان تقهر روسيا وتردها عن ديارها

وعلى أى حال فهذه الازمة المشؤمة يجب أن تكون درسا أبديا للعثمانيين والمصريين بل ولسائر المسلمين . فان هذا الخلاف القديم كان سببا

لمصائب حمة تساقطت على مصر وعلى الدولة العلية . وفي أغلب الملمات التي نزلت بالدولة أو بمصر يري الانسان أثرا من آثار ذلك الشقاق المنحوس وقد يعمل بعض المنفسدين على احياء الضغائن في صدور رجال الدولة العلية بأيامهم ان مصر طامحة الآن وفي كل آن الي ماطمح اليه مؤسس العائله الخديوية . وهي دسيسة لا يقصد بها الا الاضرار بمصالح الدولة وبمصالح مصر

فاذا كان الخلاف القديم قد جرّ على الدولة وعلى مصر المصائب والبلايا فواجب على بني الدولة وبني مصر أن يعتبروا به وان يجعلوا الوفاق والاتفاق رائدهم في كل أعمالهم ، فمصر من الدولة روحها ومن الخلافة فؤادها ولا حياة لهذا الجسم العظيم الا بالاتفاق بين أعضائه في العمل واذا كانت دول أوربا تتحد وتتفق مع قوتها وعظمتها عند مليهم المسيحية أمر فكيف لاتتحد معاشر المسلمين وبلادنا واقعة في أشد البلاء والاختار محسدة بها من كل جانب وأعداؤها يكيدون لها أعظم كيد كلما سنحت لهم انقرص

لاسلامة للدولة العلية ولمصر الا بالوفاق والاتحاد وقد أدرك هذه الحقيقة المصريون عن بكرة أبيهم مقتدين بالعباس أميرهم المحبوب فتقربوا من الدولة العلية وجاهروا بمحبتها في السراء والضراء واعترف العالم كله بأن أهل مصر أصدق المخلصين للدولة العلية وللمرش الشاهاني اذ ثبت ذلك بأجلى بيان في الحرب الاخيرة . ولا ريب عندي ان أمة مصر العزيزة ثابتة في أميالها لاتتحول أبد الدهر عن اخلاصها للدولة العلية حماها الله

وأنه ليجب علي كل مصري صادق وعلى كل عثمانى يخلص الحب
لبلاده ان يحبط أعمال الذين يبثون الدسائس بين مصر والدولة العلية
ويلقون بذور الشقاق بين جلالة الخليفة الاعظم وسمو الخديوي الافخم
فان أولئك العاملين على خلق الشحناء والبغضاء بين المتبوع والتابع
لاشد خصوم الدولة وألد أعدائها

(كتاب)

من { محمد علي } أمير مصر

الي

{ لويس فيليب } ملك فرنسا

نأتى هنا على ترجمة كتاب ارسله عزيز مصر الي ملك فرنسا
بشأن حوادث الشام ومسئلة الخلاف بينه وبين الدولة العلية .
وكنا قد نشرناه في جريدة المؤيد الغراء عقب خطبة القاها بالاسكندرية
وأشرنا فيها اليه .

ومن هذا الكتاب يعرف القاري حقيقة أفكار المرحوم (محمد علي
باشا) وأمياله وقت الأزمة السالفة الذكر

القاهرة في ١٦ رمضان سنة ١٢٥٦ هجرية (نوفمبر سنة ١٨٤٥)

أيها الملك العظيم

انى أشعر بالحاجة لاظهار شكرى لجلالتكم . ذلك الشكر الذى

يجيش فى صدري

فلقد آلت نحوى حكومة بلالة الملك من أمد بعيد انظار رعايتها
واليوم تتوج جلالتمكم مآثرها على باعلانها للدول ان وجودي السياسي
ضرورى للموازنة الاوربية

وان هذه المواطف الجديدة من شأنها ان تحددلى واجبات أعرف
القيام بها . وأول هذه الواجبات هو أن أوضح لملك فرنسا بكل صراحة
أسباب سلوكى الحالى واحداً بعد آخر

لقد كانت فى سائر الازمان سعادة الدولة العثمانية أصدق أمنية أتمناها
من صميم فؤادى حيث انا أود أن أراها دائماً سعيدة قوية آمنة . وكانت
قصارى آمالى ومرامى انظارى موجهة نحو مساعدتها على أعدائها أولاً
والمحافظة على كل مملكته يدي بعد المجاهدات العظيمة فى سبيل الدفاع
عنها ثانياً

أما الذى حبينى نحو فرنسا — وأقول ذلك بكل صراحة — وحملنى
على اتباع نصائحها دائماً فهو ما تبينته من انها أكثر الحكومات رغبة فى
خير الدولة العثمانية بلا خديعة ولا مواربة ولا شائبة قصدسيء . وكذلك
أرجو ان تعتقد جلالتمكم ان حبي لبلادى هو الذى كان دائماً الدافع لى
والقائد لزمامى

وعلى ذلك استطعت بعد المجاهدات العظيمة والاحوال المتناقضة تأييد
الامن فى الشام فخل فيها اليوم السلام محل الفوضى والاضطراب . واذا
كنت قد أظهرت عظيم رغبتى فى بقاء هذه البلاد تحت حكومتى فذلك
لانى معتقد بانها اذا نزع من يدي عادت اليها المصائب التى استأصلت

جراثيمها منها. ومن جهة أخرى أرى ان الشام تصير اذا بقيت في يدي عنصر قوة أستطيع به وقتئذ مساعدة مولاى السلطان ودولتى العلية مساعدة فعلية حقيقية ولكنها لما كانت في يد الدولة العلية — وذلك ما أتجاسر على القول به — كان الاضطراب والفوضى والحروب الاهلية مستحكمة فيها . وهاقد تحققت اليوم شيأ مما كنت أخافه . فاقدم ساعد النفوذ الاجنبى عناصر الشقاق والاضطراب حيث لم يكن يفلح أول الامر مسعى الذين كانوا يهيجون الامة . ولكن مساعى أولئك الذين يظنون أنهم يخدمون استقلال تركيا باحدثهم الاضطراب فى احدي ولاياتها نجحت هذه المرة لاني اهاجته خواطر البلاد فقط بل وفي اقامة الامة ضد بعضها فنارت بذلك الحروب الاهلية

وان دواعي المصلحة العمومية التى كانت ترغبنى فى المحافظة على الشام وجعلها تحت حكومتى زالت اليوم بالمرّة ولم تبق هنالك الا مصالح الخصوصية ومصالح عائلتى وائتى مستمد لحياطة هذه المصالح بكل ما يصل اليه جهدى فى سبيل سلامة العالم . فأترك اذن الامر للحكمة العالية واضع بين يدي ملك فرنسا حظى فهو الذى يسوى كما تقتضيه رغبته الخلاف الحالى

واذا وافق ما أعرض على جلالتكم فانى أرضي من الشام بعكا لانها البلد التى قاومت بكل الوسائل مساعى التهييج التى عملت لاثارتها ضدى . وقد يجوز ان جلالتكم تري من العسقل ان تترك لى جزيرة { قنديه } التى صارت تحت سلطة حكومتى حسنة زاهية من عهد بعيد .

ولكن اذا ارشدتكم حكمة جلالتكم العالية الى ان زمن التساهل والتنازل قد فات وان المحافظة الشديدة واجبة فاني مستعد للكفاح الي آخر لحظة من حياتي أنا وسائر اولادى . وان جيشي في الشام لا يزال عظيما ودمشق وحلب وكل المدائن المهمة لا تزال تحت سلطتى وجيشي الذى في الحجاز هاهو عائد نحو مصر وقد وصل قسم منه الي القاهرة ويصل القسم الآخر قريبا . وبين يدي شيوخ ذوو نفوذ هم نازعون الآن الى جبل لبنان متمهدين بان يخضعوا لسلطتى الدروز والمارونيين . ولدى أربعمون باخرة مستعدة للسفر لاول اشارة من جلالتكم

وعليه فأؤمل ان أسباب مسعالي لا تبقى مجهولة بعد اليوم حتى لا يظن انسان ما أن الخوف صار قائدى الآن فان حياتى كلها براهين داحضة لمثل هذه الدعوي . ولو كان الخوف يقودنى لجاز أن أرى ضيفا واهنا ولكن تنازلات منذ ١٥ يوما حيث كان وجودى مهددا بالاختار . ولكن اليوم وقد أقتد وجودى السياسي باعلان فرنسا فاني لأخطر بشي كبير ان طال الحرب

كلا . وليست القوة التى يدونها ضدي هى التى ترهبنى . بل ان الذى يرهبنى هو ان أكون سببا لحرب عمومية وأن أجر فرنسا التى أنا مدين لها كثيرا الى حرب لا يكون لها داع غير فوائدى ومصالحى الشخصية

ولهذا فاني أعرض حقيقة الامر على انظار جلالتكم واعترافى لكم بالجميل يجعل ذلك فرضاً وواجباً على فضلا عن انى معجب وواثق بملك

فرنسا ذلك الاعجاب وهذه الثقة اللتين تحمل العالم كله عليهما حكمة جلالتيكم
 وذاكاؤكم العالي . وانني بهما أضع حظي بين يديكم
 ومهما كان قرار الملك فاني أقبله بشكر وامتنان مادامت جلالتيكم
 مشتركة في المعاهدة التي سيتفق عليها بين الدول العظيمة والتي تقرر
 حظي ومستقبلي

وأخيراً مهما وقع ومهما كان الامر فاني أرجو الملك أن يسمح لي
 بأن أقول له « ان اعترافي بالجميل نحووه ونحو فرنسا سيقتي في قلبي الى
 الابدواني أتركه ارثا لابنائي وأبناء أبنائي من بعدى كواجب مقدس »
 ولقد كنت أود أن أكلف أحد ضباطي العظام المعول عليهم بحمل
 هذا الكتاب الي أعتاب جلالتيكم . ولكن الصعوبة وطول القورنتية
 حملتاني على تكليف الكونت « والوسكي » بتوصيله الي جلالتيكم اه
 (محمد علي)

— ❧ الازمة الثالثة ❧ —

— ❧ حرب القرم ❧ —

تبين للقارىء من الفصل السابق ان انكثرا حلت محل روسيا في النفوذ لدي الباب العالى وصارت وحدها المسموعة الكلمة فى الازمة الاخيرة عند رجال الدولة وانها توصات الى ابطال معاهدة (خونكار اسكاه سى) التى خوات لروسيا حق ارسال جيوشها الى قلب الدولة العلية عند الحاجة. فاستاءت روسيا لذلك وعقدت النية على الانتقام من الدولة العلية التى أحتلت انكثرا محلها وقد كان المرحوم السلطان الغازى (عبد المجيد خان) عاملا على اصلاح احوال الدولة وتنظيم ادارتها فأصدر فرمان الكاخانة الشهير الذى اشتمل على اصلاحات عديدة كانت تكفى لتقويم احوال الدولة وتقويتها فى ظرف قليل من السنين. فساء ذلك القيصر (نيقولا الاول) لانه سياسته كانت تقتضى تهقر الدولة على الدوام وعدم تمكنها من اصلاح شؤونها وتقويم المعوج فى احوالها. ولذلك أوعز الى المسيحيين الارثوذكس فى الدولة بمعارضة التنظيمات، والعمل على ايقاف تنفيذها. وبالرغم مما بذله الارثوذكس من معارضة التنظيمات الجديدة فان الحكومة العثمانية التى كان على رأسها وقتئذ (رشيد باشا) ابتدأت فى تنفيذها واستبشر كل العثمانيين بقرب فلاحها تمام فلاح ونيل ثمارها. الا ان ذلك كان من شأنه ازدياد حقد القيصر (نيقولا الاول) على الدولة العلية. فأمر باجراء اتجهيزات الحربية اللازمة واستعد لمحاربة الدولة مؤملا اضعافها وايقافها فى طريق الاصلاح

ولايجاد المشاكل بين روسيا والدولة العلية أو عز القيصر } نيقولا
الاول } الي القس ، دانيلو ، الذي كان حاكما على الجبل الاسود وتابعا
للدولة العلية بان يرفع راية العصيان في وجه الدولة ودعاها قبل ذلك للسفر
الى سان بطرسبورغ فسافر اليها وقوبل فيها باحتفاء عظيم وأهداه انقيصر
المال والنياشين وحرّضه ضد الدولة بكل أنواع التحريضات حتى عاد الي
الجبل الاسود ونادي أهله باسم الصليب والدين الارثوذكسي بالقيام في
وجه الدولة فلبوا نداءه وثاروا أجمعين

فلما علمت الحكومة العثمانية بذلك سيرت جيشا عظيما بقيادة عمر باشا وهو
قائد عثمانى جليل اشتهر بقهر بلاد البوسنة ، لقمع ثورة أهل الجبل الاسود
فسار الجيش ووقعت بينه وبين الثوار مواقع دموية في جبال هذه
البلاد حتى قهر الثوار وتم له الظفر والنصر . وقد كان لهذه الحادثة تأثير
شديد في أوروبا فاهتمت كل الدول بالأمر وعلى الخصوص النمسا فانه
كان يهيمها عدم اضطراب الاحوال في البلقان ولكنها كانت مدينة لروسيا
بمساعدها في عام ١٨٤٩ في قمع الثورة المجرية فاضطرت للتظاهر بمساعدة
أهل الجبل الاسود لدي الباب العالي وكان غرضها الحقيقي توطيد السكينة
والسلام في البلقان واجباط مساعي روسيا . فسألت الباب العالي في آخر
عام ١٨٥٢ ان يعتدل في انتقامه من أهالي الجبل الاسود حتى لا تجرد روسيا
حجة لخلق مشاكل جديدة

وفي هذه السنة نفسها حدث خلاف عظيم بين روسيا وفرنسا بشأن
الاماكن المقدسة في الشام وذلك ان لفرنسا بمقتضى معاهدات قديمة

وحقوق ثابتة حماية معنوية على الكاثوليكين في الشرق . وقد توصلت
 بهذه الحماية الي جعل مفاتيح كنائس (أورشليم) بأيدي الكاثوليكين
 . فأرادت روسيا أن ترفع كلمة الدين الارثوذ كسي بتسليم مفاتيح
 الكنائس بأورشليم الي القسس الارثوذ كس ليزداد نفوذها في الشرق
 مما يخالف مصلحة فرنسا في الشرق وشرفها كل المخالفة فلذلك احتجت
 الحكومة الفرنسية على رغبة روسيا وطابت من الباب العالي ان
 يفصل في هذا الخلاف بمقتضى الحقوق والمعاهدات فعين الباب العالي
 لجنة للتحقيق . وبعد بحث طويل أقرت اللجنة على ان للكاثوليكين وحدهم
 الحق في امتلاك الكنائس بأورشليم . وبناء على هذا القرار أصدر
 الباب العالي فرمانا بذلك بتاريخ ٩ فبراير سنة ١٨٥٢ . فاستاءت روسيا
 من هذا الفرمان غاية الاستياء وألحت على الحكومة العثمانية بابطاله
 مدعية ان معاهدتي «قينارجة» و«ادرنة» تخولان لها هذا الحق ولكن
 الباب العالي أبقى فرمان ٩ فبراير بالرغم عن الحاح الروساومعارضتها
 وفي آخر عام ١٨٥٢ تعين لويس نابليون (نابليون الثالث) امبراطورا
 على فرنسا فعمل على رفع شأن بلاده في الشرق وسر لهذا الخلاف الناشئ
 بين دولته وبين روسيا ليدافع فيه عن مصالح الكاثوليكية ويستميل بذلك
 رجال الدين اليه

وقد خافت النمسا وقتئذ ان يتسع الحرق على الراقق وتشتعل نيران
 الاضطرابات في البلقان ونيران الحرب بين روسيا والدولة العلية فبذلت
 جهودها في تسوية مسألة الجبل الاسود وأرسلت في يناير عام ١٨٥٣ الي

الاستانة الكونت دي { لينجن } يرجو الباب العالي باسم النمسا توطيد
السكينة في هذه الجهات المضطربة والنفو عن ثوار الجبل الاسود ومكافأة
المسيحين الذين لم يثوروا ولحقهم الضرر في هذه الاضطرابات فأجاب
الباب العالي رجاء النمسا وتأيدت السكينة والطمأنينة في الربوع المضطربة .
اما ما يختص بمسئلة الاماكن المقدسة فقد أرادت فرنسا ان تتساهل مع
الروسيا خصوصا وانها بلغت مرامها واكتسب (نابليون الثالث) ميل
الكاثوليكين اليه فسألت الباب العالي ان يمنح القسوس الارثوذكس
بعض امتيازات في كنائس أورشليم وخابرت الحكومة الروسية في أمر
عمد لجنة بسان بطرسبورغ من مندوبي الحكومتين للنظر في مسئلة
الاماكن المقدسة فقبات الروسية وكان يخيل وقتئذ للعالم كله ان
الخلاف بين روسيا وفرنسا أوشك ان ينتهي بسلام

*
* *

غير ان القيصر (نيقولا الاول) أمر في الوقت نفسه البرنس
(منشيكوف) بالسفر الى الاستانة ليخلاق سببا لاعلان الحرب على الدولة
العلية . وكانت مأموريته ظاهرها انه مكاف بتسوية مسئلة الجبل الاسود
والاماكن المقدسة مع الباب العالي . وقد سافر (منشيكوف) من سان
بطرسبورغ في ١٠ فبراير سنة ١٨٥٣ مصحوبا بضباط عديدين خلافا
للعادة الجارية عند سفر أحد السياسيين الى إحدى العواصم لمخاطبة حكومتها في
أمر . وجمعت الروسية على نهر { بروث } جيشا مكونا من خمسين ألف
عسكري وهدت جليا لكل أوربارغبة الروسية في الحرب بل عزمها على اعلانها

وكان يظن القيصر (نيقولا الاول) ان البروسيا والنمسا تساعدانه ضد الدولة العلية وان انكلترا لا تعارضه في شيء وكان لا يخاف مساعدة فرنسا لتركيا ولا يظن ان انكلترا وفرنسا يتحدان مع تركيا ضده . وكان سفيره بلوندره يمثل له الحكومة الانكليزية ميالة للسلم والرأي العام الانكليزي مضادا للحرب والعلائق بين انكلترا وفرنسا غير متينة لا يخشي معهما من تقدم اتفاق بين هاتين الدولتين . كل ذلك حمل القيصر (نيقولا الاول) على الاستعداد للحرب وعدم المبالاة بنتائجها

وقد سمى القيصر طويلا في الاتفاق مع انكلترا على تقسيم الدولة العلية بين دولته وبينها فتحدث في هذا الصدد كثير مع السير (هاميلتون سيمور) سفير انكلترا بسان بطرسبورغ ولكنه لم يفتح لان انكلترا كانت تعلم ان بقية الدول الاوربية لا ترضي بأمر خطير كهذا وان تقسيم الدولة العلية ليس بالامر السهل وعلى فرض وقوعه فانه يجزأ أكبر المصائب على العالمين فضلا عن ان هذا التقسيم لا يفيد في الحقيقة غير روسيا

وفي ٢٨ فبراير سنة ١٨٥٣ وصل البرنس « منشيكوف » الى الاستانة بين رجاله وضباطه وفي ابهة أراد بها التأثير على أفكار رجال الباب العالي وصار في كل أفعاله يعمل على خلق سبب لاعلان روسيا الحرب على الدولة العلية فطلب أولا عزل (فؤاد باشا) ناظر الخارجية العثمانية الذي كان عدوا لروسيا لتسهيل له المخبرات . ثم عرض على الباب العالي مشروع عقد تحالف دائم بين روسيا والدولة العلية تعترف فيه الدولة بحماية القيصر على الكنيسة اليونانية . فاندesh رجال الدولة من هذا المشروع الغريب

وأدركوا ان روسيا تريد اعلان الحرب لانها تعلم جيدا أنه يستحيل على الدولة قبول هذا المشروع فان لرؤساء الكنيسة اليونانية سلطة دنيوية على نحو الخمسة عشر مليوناً من المسيحيين وما حماية روسيا على الكنيسة اليونانية الاحماية حقيقية على هؤلاء المسيحيين .

وقدأ بلغت الدولة العلية سراً وكلاء الدول الاوربية طلب روسيا هذا ووصل عندئذ للاستانة سفيرا فرنسا وانكلتراهاا وكلفا من قبل حكومتها بالامل بالاتفاق . وبما ان البرنس (منشيكوف) كان لا يزال يجاهر بأن ماوريته تتحصر في حل مسئلتى الجبل الا-سود والاماكن المقدسة اتفق السفيران على تهجيل حل هاتين المسئلتين حتى يضطر «منشيكوف» الى مبارحة الاستانة وإعلان انتهاء مأموريته أوالتصريح بنوايا القيصر الحقيقية . وسبق اننا ذكرنا ان مسألة الجبل الا-سود انتهت بتوسط النمسا لدي الباب العالي . أما مسألة الاماكن المقدسة فقدرضيت فرنسا بتسويتها بما فيه ترضية للقيصر وتمت هذه التسوية في ٤ مايو سنة ١٨٥٣ ولم يبق هنالك سبب ظاهرى لبقاء «منشيكوف» بالاستانة . الا ان القيصر بقى على نيته الاولي وكان لا يزال يظن ان انكلترا لاتساعد الدولة ضده فقدم «منشيكوف» في ٥ مايو سنة ١٨٥٣ للباب العالي انذارا شديد العبارة طلب فيه أن يجيبه في ظرف خمسة أيام على طلبه بشأن عقد اتفاقية بين الدولتين يضمن فيها الباب العالي للكنيسة اليونانية حريتها الدينية وامتيازاتها الدنيوية ويجعل للروسيا عليها حماية حقيقية وأعلن «منشيكوف» الباب العالي في انذاره بانه ان لم يقبل مطالب روسيا

قامت الحرب بين الدولتين . فأجاب الباب العالي بان الكنيسة اليونانية متمتعة بتمام حريتها وبانه مستعد مع ذلك لان يؤكد امام العالم كله لسائر رعاياه المسيحيين ضمانته لحريتهم الدينية وبانه يرفض رفضاً باتاً جعل الكنيسة اليونانية تحت حماية روسيا مينا للبرنس { منشيكوف } أنه لا يستطيع قبول هذا الطلب بدون تعريض استقلال الدولة للخطر ووضع ادارتها الداخلية تحت مراقبة أجنبية { أى تحت مراقبة روسيا }

وفي ذلك الحين عين (رشيد باشا) صدراً أعظم ووزيراً لخارجية الدولة وكان معروفاً بكرهه الشديدة لروسيا فظاهر (منشيكوف) ببعض اعتدال في خطته وسأل الباب العالي ان يرسل رسالة للحكومة الروسية يصرح لها فيها بقبول مطالبها وبذلك لا تطالب منه روسيا عقد اتفاقية بهذه المطالب . فأجاب { رشيد باشا } على هذا السؤال الجديد بالرفض وكان ذلك في ٢٠ مايو سنة ١٨٥٣ . فانقطعت المحادثات وعاد (منشيكوف) الى سان بطرسبورغ . وفي ٣١ مايو من السنة نفسها أرسل { نسلرود } وزير روسيا الاول انذاراً جديداً للباب العالي بمعنى انذار « منشيكوف » وأعلن فيه بان روسيا تحتل مقاطعتي الافلاق والبغدان اذا رفض الباب العالي قبول مطالبها . وقد كان ورفض الباب العالي رفضاً جديداً قبول هذه المطالب فأرسل { نسلرود } في ١١ يونيو سنة ١٨٥٣ الى وكلاء روسيا لدى الدول الاجنبية منشوراً بين لهم فيه الاسباب التي حمت روسيا على الشروع في احتلال الافلاق والبغدان أى

على اعلانها الحرب على الدولة العلية

*
* *

ما انتشر خبر تهديد روسيا للدولة باحتلال مقاطعتي الافلاق
والبغدان حتى هاج الرأي العام في انكلترا وفرنسا واندش ساسة
الحكومتين من جراءة روسيا الغربية واقدامها على هذا العمل الخطير
النتائج . فانفقنا على مساعدة الدولة العلية ضدها وأرسلنا اسطوليهما
الى فرضة بزيكاه أى الى مدخل الدردانيل ليسهل لهما ان تساعد الحكومة
العثمانية مساعدة فعالية عند ميس الحاجة

واظهارا لما جلبت عليه العائلة السلطانية المعظمة من محبة رعاياها على
اختلاف دياناتهم ومذاهبهم وحسن رعايتها لهم على السواء أصدر الباب
العالي خطا شريفا بتاريخ ٦ يونيو سنة ١٨٥٣ منح فيه سائر المسيحيين في
الدولة العلية الحرية الدينية التامة أى أ كد لهم استمرار الحكومة العثمانية
دلى احترام هذه الحرية التي تمتعوا بها دائما هم وأسلافهم من قبل . وعرضت
فرنسا من جهة أخرى على الدول الاوروبية مشروع عقد مؤتمر لازالة
الخلاف بين روسيا والدولة العلية . فبرهنت بذلك الدولة العلية ونصيرتها
الاولي فرنسا على اعتدالهما ومياهما للسلم وتركنا مسؤلية الحرب وسفك
الدماء على الحكومة الروسية التي بقيت على عنادها ولم ترجع عن قصدها
وعند ما علم القيصر (نيقولا الاول) بارسال الاساطيل الفرنسية
والانكليزية الى الدردانيل غضب غاية الغضب وزاد غضبه رفض الباب
العالي للانذار الذي أرسله اليه الميسو (نيسلرود) وزير روسيا

الاول فأصدر الي الشعب الروسي بتاريخ ٢٥ يونيو من السنة نفسها
 منشورا بين له فيه انه أشهر على تركيا حربا يجب عليه اعتبارها حربا
 صليبية وجهادا في سبيل الارثوذكسية . وبعث كذلك (دي نسلرود)
 بمذكرة الي الدول الاوروبية أظهر لها فيها ان الدولة العلية وانكلترا وفرنسا
 جبرت روسيا على الحرب باعما لها العدائيه ضدها . كأن وزير القيصر
 أراد أن يغالط أوروبا بهذه المذكرة أو كأنه نسي ان دولته هددت تركيا
 باحتلال مقاطعتي الافلاق والبغدان وان فرنسا وانكلترا ما أرسلتا
 باسطوليهما الي مياه الدردانيل الا عند توقع اشتعال نيران الحرب
 وقد هاجمت الجيوش الروسية في ٤ يوليو سنة ١٨٥٣ مقاطعتي الافلاق
 والبغدان واحتلتهما بعد أيام قليلة فاستولى بذلك القلق على أفكار سواس
 الدول الأوربية وعلى الخصوص دولة النمسا التي كان موقفها حرجا للغاية
 فلها كانت لا ترضى معارضة روسيا لما لهذه الدولة عليها من الايادي
 البيضاء في قمع الثورة المجرية عام ١٨٤٩ ولانها الدولة الوحيدة التي تستطيع
 مساعدتها ضد الثورات فضلاء ان روسيا كان في قدرتها ان تهيج الغنصر
 السلافي في بلاد النمسا ضد الحكومة النمساوية . وكان من جهة أخرى اعتداء
 روسيا على الدولة العلية مخالفا لمصاحبة النمسا كل المخالفة وكان سواسها يعلمون
 علم اليقين انها لو ساعدت روسيا استطاعت فرنسا وانكلترا ان تهيج ضدها
 ايطاليا والمجر وبولونيا . فلذلك بقيت النمسا محتارة في أمرها مضطربة في
 سياستها وغاية ما أقر عليه سواسها انهم سألوا الباب العالي ان لا يجعل
 جوابه على احتلال روسيا لمقاطعتي الافلاق والبغدان اعلان الحرب عليها بل

مجرد احتجاج على هذا الاحتلال حتى يسهل للنمسا مخاطبة الدول في حل
المسئلة حلا سلمياً . فقبل الباب العالي سؤال النمسا برهن بذلك للعالم كله
على عظيم اعتداله وسلامه أمياله مما شجع النمسا على دعوة الدول لعقد
مؤتمر فيينا ، وقد أجابت الدول دعوة النمسا واجتمع مندوبوها فيينا في
٢٤ يوليو سنة ١٨٥٣ ولم تقبل روسيا الاشتراك في هذا المؤتمر بل
اكتفت بأن وعدت الدول بقبول ما تقرره فيه ان وافق مصاحبتها .

وقد أقر هذا المؤتمر على قرار مبهم العبارة والمعني كان يسهل لسواس
الروسيا أن يفسروه حسب اهوائهم وأغراضهم فرفضته الدولة العلية
منعا للمشاكل . فلما رأته فرنسا وانكاترا ان الاتفاق مستحيل وان
الروسيا عاملة على منعه وإيقاد نيران الحرب أمرتا أسطوليها بعبور
الدردانيل والوقوف أمام الاستانة . وكان ذلك بناء على طلب الباب
العالي ورغبته وفي آخر سبتمبر سنة ١٨٥٣

وفي هذه الاثناء تقابل القيصر (نيقولا الاول) في مدينة (اولوتز)
مع الامبراطور (فرنسوا جوزيف) امبراطور النمسا وطلب منه الاتحاد
معه ضد تركيا وفرنسا وانكاترا فاعتذر امبراطور النمسا عن قبول هذا
الطلب مظهرا للقيصر أسفه من عدم تمكنه مساعدته . فلما لم يجد من
امبراطور النمسا اقبالا على مساعدته طلب من ملك روسيا مقابلته وقابله
وعرض عليه كذلك الاتحاد معه ولكن نتيجة مسعاه عند ملك
روسيا كانت كنتيجة مسعاه عند امبراطور النمسا

أما الدولة العلية فقد اهتمت بآتمام تجهيزاتها الحربية ولم تغفل شيئا

من لوازم الحرب . وكان الرأي العام العثماني متهيجا جدا ضد روسيا
والمسلمون في حالة قلق وهياج عظيمين خصوصا وان منشور القيصر
لشعبه أبان لهم ان الحرب دينية صليبية فاجتمعوا مئات وألوف امام سراي
السلطان وطلبوا بأعلى أصواتهم اعلان الحرب فابت الدولة طلبهم وبعد
جلسة عقدت من وزراء الدولة وكبرائها تحت رئاسة المرحوم السلطان
الغازي { عبد المجيد خان } أعلنت الدولة الحرب على روسيا بتاريخ ٤
اكتوبر سنة ١٨٥٣ . وفي ٨ منه أنذر (عمر باشا) قائد الجيوش العثمانية
البرنس (غورتشاكوف) قائد الجيوش الروسية بانجلاء المسافر
الروسية من مقاطعتي الافلاق والبغدان وحدد له خمسة عشر يوما أجلا
للجلاء يتبدى الحرب بعدها اذا لم ينفذ البرنس (غورتشاكوف)
طلب (عمر باشا)

وقد كان القيصر « نيقولا الاول » مؤملا قهرا تركيا ليس فقط بقوة
جيوشه الجرارة بل بفضل الاضطرابات والثورات التي كان يعمل عماله
وصنائه لاجداثها في الدولة العلية . فان جملة من ميجي اليونان قاموا في مقاطعة
تساليا وايرا اللتين كانتا تحت حكم الدولة بتخريب الاهالي على العصيان في وجه
الحكومة العثمانية . وساعدت الحكومة اليونانية وقتئذ هؤلاء المييجين
وسمحت لعدد عديد من ضباطها وجنودها بالسفر سرا الى تساليا وايرا
لتنشر لواء الثورة بانفسهم . وكان القيصر يحرض من جهة أخرى شاه
العجم على محاربة الدولة العلية

ولما كان أمل القيصر وطيدا في نجاح ثوار اليونان والوصول الي

احداث الاضطرابات في الدولة من كل جانب أظهر لدول أوروبا ميله
 للسلم ورغبته في تسوية المسئلة تسوية سامية . وكان قصده بذلك إغفال
 الدولة العلية عن اتمام تجهيزاتها الحربية واطعافها بالاضطرابات والثورات .
 وقد اغتبرت النمسا بتصریحات القيصر وحسبها صادرة عن اخلاص
 فجملت سفراء الدول بفيينا ثانية في مؤتمر . وقررت مهمهم في ٥ ديسمبر
 سنة ١٨٥٣ أمرين الاول المحافظة على استقلال الدولة العلية واثاني
 استقلال الحكومة العثمانية تمام الاستقلال في ادارتها واعمالها الداخلية .
 وأرسلت النمسا مع هذا القرار مذكرة للباب العالي سألته فيها أن يخبر
 الدول في أقرب وقت على أي شروط يقبل المخابرة مع روسيا في أمر
 الصلح

ولكن جيوش الدولة كانت قد سارت تحت قيادة (عمر باشا) وهزمت
 الجنود الروسية هزيمة عظيمة اهتزت لها أوروبا كلها وانتهت باسترجاع الدولة
 لمقاطعة الافلاق الصغرى وابعاد الجيوش الروسية من صربيا التي كان يجتهد
 الروسيون في تهيجها ضد الدولة . وفي آسيا أتى الجيش العثماني بقيادة
 { عبده باشا } ما أتاه مثيله بقيادة (عمر باشا) حيث دخل الاراضي الروسية
 وهزم جنودها واحتل قلعة (سانت نيقولا) . فازعجت القيصر
 هذه الانتصارات الباهرة وانتقاما من تركيا أمر أسطوله بالبحر الاسود
 أن يدمر أسطولها قفاجاه في ميناء (سينوب) وأرسل عليه نيرانه حتي
 دمره بعد مجهودات عظيمة

فلما وصل خبر واقعة { سينوب } الي المرحوم السلطان (عبد الحميد خان)

أرسل الي دواتي فرنسا وانكلترا يسألهما ارسال أساطيلهما الى البحر الاسود لحماية الموانى العثمانية . فأجابت الحكومة الفرنسية بالطلب بدون امهال بخلاف الحكومة الانكليزية فلتهأتأخرت لعدم ميل { أبردين } رئيس الوزارة الانكليزية الى الحرب وأمله في حل المسئلة حلا سلميا . غير ان الرأى العام الانكليزى كان ميالا الى الحرب متهيجا ضد الروسيا وكان { بالمرستون } وزير خارجية انكلترا من اكبر أنصار الحرب فقدم استعفاءه فى ١٥ ديسمبر عام ١٨٥٣ عند مارأى تأخر (أبردين) فى ارسال الاساطيل الانكليزية الى البحر الاسود . فازداد تهيج الرأى العام الانكليزى واضطر (أبردين) الى دعوة بالمرستون لسحب استعفاءه والعودة للوزارة تارك له قيادة السياسة الانكليزية كما يرى ويشاء فأرسل (بالمرستون) الاساطيل الانكليزية الى البحر الاسود حسب طلب الدولة العلية . وفى ٢٧ ديسمبر أرسلت فرنسا وانكلترا مذكرة مشتركة للروسيا أعلنتها فيها بوجوب سحب صراكبها وسفنهما من البحر الاسود وبان أساطيلهما داخله الى هذا البحر وبانهما تسمحان للدولة العلية بترك صراكبها وسفنهما فيه . فكان ذلك الاعلان فى الحقيقة اعلانا للحرب من فرنسا وانكلترا على الروسيا . ولم ترض حكومتا الدولتين التصريح به علنا لاشتغالهما بأمر اتمام التجهيزات الحربية كل هذه الحوادث كان من شأنها ازدياد حيرة النمسا فعادت هذه الدولة مرة ثالثة الى مخابرة الدولة العلية وبقية الدول فى أمر منع الحرب فطلبت من الدولة ايضاح الشروط التى تطلبها لعقد الصلح فأجابتها الدولة بان شروطها أربع : أولا اعلان استقلال بلادها وأراضيها وضمانة دول

فرنسا وانكاترا والنمسا والبروسيا لهذا الاستقلال . ثانيا انجلاء المساكر الروسية من مقاطعتي الافلاق والبغدان . ثالثا تجديد الضمانات المقدمة من أوروبا للدولة في عام ١٨٤١ . رابعا احترام أوروبا كلها وفي مقدمتها روسيا لاستقلال الحكومة العثمانية في كل أعمالها داخلية كانت أو خارجية

فلما عرضت هذه الشروط على سفراء البروسيا والنمسا وفرنسا وانكاترا بفيينا قبلوها وصدقوا عليها وكلفوا حكومة النمسا في ١٣ يناير سنة ١٨٥٤ بتبليغها للروسيا . وبقيت الدول منتظرة جواب روسيا على انذار فرنسا وانكاترا أولا وعلى مذكرة الدول الاربع ثانيا الا ان القيصر (نيقولا الاول) كان لا يزال مؤملا مساعدة البروسيا والنمسا له فأرسل الي برلين البارون (دي بودبرج) والي فيينا الكونت (أورلوف) ليدألا الحكومتين البروسية والنمساوية ان تبقياً على الحيادة أثناء الحرب ويعدهما القيصر مقابل ذلك بدعوتهما بعد الاشتراك معه في حل المسئلة الشرقية . فطابت النمسا من الكونت (أورلوف) ان لاتعتبر الجنود الروسية نهر الدانوب ووعدهته بالبقاء على الحيادة اذا قبلت روسيا هذا الشرط ولكن روسيا وجدت قبول هذا الشرط يضر بها ضررا عظيما في الحرب فرفضته وحملت بذلك النمسا على أن ترفض طلبها ابقاء على الحيادة وأن تحفظ لنفسها حرية تامة في العمل

وقد رفضت البروسيا أيضا طلب روسيا بالرغم عن قرابة القيصر (نيقولا الاول) لملكها وتمتق القيصر عندئذ انه لانصير له بين دول

أوربا وأنه سيحارب تركيا وحده . فرفض مذكرة الدول الأربع التي أرسلت إليه في ١٣ يناير سنة ١٨٥٤ وأجاب على كتاب ودي أرسله إليه (نابليون الثالث) امبراطور فرنسا نصحه فيه بقبول مطالب الدول بان شرف روسيا يحتم عليها الحرب . وبقي بذلك على عناده الاول غير حاسب لنتائج الحرب حسابا

فلما علمت الحكومة الفرنسية والحكومة الانكليزية بنوايا القيصر أرسلتا الي حكومته بتاريخ ٢٧ فبراير سنة ١٨٥٤ انذارا هددتاها فيه بوجود اخلاء مقاطعتي الافلاق والبغدان والا أعلنتا عليها الحرب واجتهدت فرنسا وانكلترا بعد ذلك في ضم النمسا والبروسيا اليهما ضد روسيا . غير ان ملك بروسيا رفض الاشتراك في الحرب ضد روسيا وأبلغ حكومات فرنسا وانكلترا والنمسا بأنه مستعد للاتفاق معها على بعض قواعد سياسية تكون فيما بعد أساسا لتسوية الخلاف بين روسيا وتركيا . فقبلت الدول الثلاث ذلك واجتمع مندوبو البروسيا والنمسا وانكلترا وفرنسا في فيينا مرة رابعة وأمضوا على بروتوكول (مذكرة) ٩ ابريل سنة ١٨٥٤ المشتمل على القواعد الآتية : أولا استقلال الدولة العلية . ثانيا انجلاء الساكر لروسية من مقاطعتي الافلاق والبغدان . ثالثا استقلال الحكومة العثمانية في أعمالها وترك الحرية التامة لها في منح رعاياها المسيحيين الامتيازات اللازمة . رابعا الاتفاق على الضمانات اللازمة لتنظيم العلاقات السياسية للدولة العلية مما يضمن سلامة التوازن الاوربي

وعندما وصل انذار فرنسا وانكلترا السابق المذكور الى القيصر (نيقولا الاول) رفضه رفضا باتا وقبل اعلان الحرب عليه من الدولتين . فمقدت فرنسا وانكلترا عندئذ في ١٢ مارس سنة ١٨٥٤ تحالفا مع الدولة العلية ضد روسيا اشترط فيه بايديء بدءا من فرنسا ترسل خمسين ألف جندي الي تركيا وانكلترا ترسل خمسة وعشرين ألفا ولكن الحرب اقتضت ارسال جنود كثيرة حتي ان فرنسا وحدها فقدت في ساحة القتال فوق المائة ألف جندي واشترط في هذا التحالف ان دولتي فرنسا وانكلترا تسحبان جنودهما في مدة خمسة أسابيع بعد عقد الصلح مع روسيا . واشترط كذلك ان دولتي فرنسا وانكلترا يرسلان أساطيلهما الي البحر الاسود . وبالفعل استولت فرنسا وانكلترا على البحر الاسود وأرسلتا جيوشهما الي الدانوب . واقمع الثورة في تساليا وايرا أرسل جزء من هذه الجيوش الي هاتيك الجهات فقمعت الثورة في زمن يسير وعادت السكينة بعد الاضطرب



وبعد ان اتفقت فرنسا مع انكلترا ضد روسيا اجهدت الحكومة ان في استمالة النمسا اليهما لان قوة الجيش الروسي كانت على الدانوب وكان يسهل التغلب عليه وقهره اذا ساعدت النمسا دول تركيا وفرنسا وانكلترا غير ان النمسا كانت تأبى العمل ضد روسيا قبل اتفاقها على ذلك مع البروسيا فخبرت هذه الدولة التي كان من صالحها خدمة روسيا بدون أن يدرك ذلك أحد وطلت المخبرات بينهما وانتهت بعقد اتفاقية بين

النمسا والروسيا بتاريخ ٢٠ ابريل سنة ١٨٥٤ تضمنت ان النمسا ترسل
الحكومة الروسية انذارا بعدم تقدم جنودها وبانسحابها من مقاطعتي
الافلاق والبغدان وان النمسا والبروسيا تعلنان الحرب على روسيا اذا عبرت
البلقان أو أعلنت استيلاءها على المقاطعين

وقد وجهت البروسيا عنايتها بعد عقد هذه الاتفاقية الى ابطال مفعولها
مع بقائها وأخرت ارسال النمسا للانذار المنفق عليه ومؤملة استيلاء الجيوش
الروسية في هذه الاثناء على مدينة سيليستريا التي كانت محاصرة لها
والتي لم تستطع الاستيلاء عليها . ولم ترسل النمسا انذارها للروسيا الا في
٣ يونيه عام ١٨٥٤

ولما لم يستطع (غورتشاكوف) الاستيلاء على (سيلستريا) رفع عنها
الحصار وسحب جيوشه عائدا الى الوراء وعندئذ انفتحت النمسا مع الباب
العالي بتاريخ ١٤ يونيو سنة ١٨٥٤ على احتلالها لمقاطعتي الافلاق والبغدان
وصد هجمات روسيا عنهما ومساعدة عساكر فرنسا وانكلترا في حركتهما
الحربية الا ان البروسيا كانت عاجلة كما قدمنا على معاكسة النمسا في خطتها
فأوعزت الى حكومات الاتحاد الجرمانى باشتراط جملة شروط
للتصديق على الاتفاقية التي عقدت بين روسيا والنمسا في ٢٠ ابريل
فعملت هذه الحكومات الصغيرة بايعاز البروسيا واشترطت عدة شروط
منها اشتراكها في المخبرات التي ستجرى بين الدول بشأن المسئلة الشرقية
ومنها انه اذا كان النمسا ستجبر روسيا على اخلاء مقاطعتي الافلاق والبغدان
يجب عليها كذلك ان توقف سير انكلترا وفرنسا وتجبرهما على الامضاء

على هدنة . فاضطرت النمسا لقبول هذه الشروط ورضيت فرنسا وانكترا بناء على رجائها بأن لا تسير جيوشهما من جهة المقاطعتين . واتفقتا عندئذ على تجريدة (القرم) والمهجوم على مدينة (سباستول)

وقد انقذت روسيا من اخطار هائلة وخسائر جمة بتحول الجيوش الفرنسية والانكليزية بمد التركية عن مقاطعتي الافلاق والبغدان اتباعاً لرجاء النمسا . والفضل في ذلك للبروسيا التي أوعزت لحكومات الاتحاد الالمانى باشتراط هذا الشرط على حكومة النمسا

فلما تحققت روسيا من ميل البروسيا وحكومات الاتحاد الالمانى اليها أرسلت للنمسا بتاريخ ٢٩ يونيه عام ١٨٥٤ جوابها على انذارها مبينة انها لا تستطيع الرضاء باخلاء المقاطعتين من جنودها الا اذا قدمت لها النمسا ضمانات كافية وأعلنت عدم اتحادها مع فرنسا وانكترا وتعدت بمنعها من محاربة روسيا في الافلاق والبغدان . فرأت النمسا عندئذ ضرورة الاتفاق مع فرنسا وانكترا على شروط جديدة لتسوية الخلاف بين روسيا وتركيا تكون بمثابة انذار جديد لروسيا ، وجمعت بفيينا مندوبي فرنسا وانكترا مع مندوبيها لوضع هاته الشروط . فلما وصل هذا الخبر الى ملك البروسيا أوعز الى امبراطور روسيا باعلان اخلاء المقاطعتين من الجنود الروسية مؤملاً بذلك تعطيل أعمال مندوبي الدول الثلاث بفيينا . ولكنهم لبثوا مجتمعين بضعة أيام فرروا فيها (يوم ٨ أغسطس عام ١٨٥٤) ان العلاقات السياسية بين تركيا وروسيا لا تعود لمجراها الاوّل : أولاً اذا بقيت حماية روسيا على مقاطعات الافلاق والبغدان

وصربيا واذا لم توضع الامتيازات التي منحها الباب العالي لهذه المقاطعات تحت ضمانة الدول كلها . ثانيا اذا بقيت الملاحة في الدانوب غير حرة . ثالثا اذا لم تغير الدول معاهدة ١٣ يوليو عام ١٨٤١ . رابعا اذا استمرت روسيا مدعية ان لها حق حماية المسيحيين كلهم أو بعضهم في الدولة العلية واذا لم تضمن أوروبا كلها استقلال الدولة العلية وسلامتها

وقرر مندوبو الدول بان لا تحيد دولهم بعد عن هذا القرار وان لا يعقد الصلح الا بقبوله

وقد أرادت النمسا ان تصدق البروسيا وحكومات الاتحاد الالمانى على هذا القرار ولكنها لم تقبل منه الا الشرطين الاولين ورفضت الآخريين وأعلنت النمسا انها لا تتحد معها الا اذا تعهدت بمنع الجيوش التركية والفرنساوية والانكليزية من الهجوم على المقاتلين أو محاربة روسيا من هذه الجهة . فخارت النمسا في أمرها لانه كان لا يمكنها قبول هذا الطاب بغير تكديره لاشقياء مع حكومات تركيا وفرنسا وانكترا

وفي هذه الاثناء انتصرت الجيوش التركية والفرنساوية والانكليزية على الجيوش الروسية انتصارات باهرة فقهرتها على شواطئ نهر (المان) واستولت على مواقع مختلفة وفي ٢٥ اكتوبر عام ١٨٥٤ هزمت الجيوش المتحدة جيوش القيصر في (بلكلوا) وفي ٥ نوفمبر هزمتها في (أنكرمان) . وكان حصار (سباستوبول) لا يزال مستمرا

وقد رأيت فرنسا وانكترا ان النمسا تماطلهما كثيرا في أمر الاتفاق معهما اتفاقا نهائيا صريحا ففكرتا في طريقة تحملها على الاتفاق معهما

وهي دعوة حكومة (الييموتى) الى الاشتراك معهما فى الحرب ضد
الروسيا. ويعلم كل مطلع على التاريخ أن النمسا كانت تبغض حكومة
(الييموتى) الإيطالية أشد البغض لعمليها على تحرير إيطاليا كلها من
تحت نير النمسا. فلما علمت حكومة فيينا بان (الييموتى) على
وشك الاتحاد مع فرنسا وانكلترا خافت من مساعدة هاتين الدولتين
فيما بعد لهذه الحكومة الصغيرة وأبلغتهما أنها مستعدة للاتفاق معهما
وعقدت معهما بالفعل فى ٢ ديسمبر عام ١٨٥٤ اتفاقا تضمن ان النمسا
تتبع قرار ٨ أغسطس الذي أقرت عليه الدول الثلاث وانها لا تتخابر
بمفردها مع روسيا وانها تدافع عن مقاطعات الأفلاق والبغدان وصربيا
ضد كل اعتداء وان فرنسا وانكلترا تتعهدان للنمسا بمساعدتها ماديا اذا
قامت الحرب بينها وبين روسيا. وانه اذا لم يتم الصلح قبل أول يناير
عام ١٨٥٥ بالشروط التى قررتها الدول الثلاث فى ٨ أغسطس عام ١٨٥٤
اجتمع مندوبوها وتداولوا فى الوسائل الفعالة التى توصلها الى صرامها
ويعلم القارىء مما سبق ان البروسيا كانت ميالة للروسيا وعاملة على
انقاذها فلما علمت باتفاق النمسا مع فرنسا وانكلترا ضد الروسية سعت فى
تأخير تنفيذ هذا الاتفاق لتكتسب الروسية ازمنة تستطيع فيه تحسين أحوال
جيشها وتقويته وليسهل للبروسيا حل الاتفاق بين النمسا وفرنسا وانكلترا
أوعلي الأقل اضعافه فأشارت على الحكومة الروسية أن تعلن النمسا
بقبولها لقرار ٨ أغسطس عام ١٨٥٤ وتسألها عقد مؤتمر فيينا للمناقشة
فيه. فسرت النمسا بذلك وحسبت الروسية صادفة فى بلاغها وطلبت من

فرنسا وانكلترا ارسال مندوبين من قبلهما لحضور المؤتمر . فرضيت الدولتان بذلك ولكنهما طلبتا من النمسا ارسال مذكرة مشتركة للبرنس (غورتشا كوف) الذي كان عين سفيرا للروسيا فيينا توضح فيها الدول الثلاث معنى قرار ٨ أغسطس السالف الذكر . فلم تجد النمسا مناصا من القبول وحررت المذكرة وأرسلتها في ٢٨ ديسمبر عام ١٨٥٤ مفسرة لمعنى قرار ٨ أغسطس . وبعد عشرة أيام من تاريخ ارسالها أجاب البرنس (غورتشا كوف) بمذكرة فمر فيها قرار ٨ أغسطس تفسيراً يناقض تفسير الدول الثلاث أى تفسير الدول الواضحة للقرار واستمرت المناقشات طويلا قبل عقد المؤتمر نفسه

وقد أحس مندوبو فرنسا وانكلترا أن النمسا تخدع دولتيهما وتعمل على عدم الوفاء بتعهداتها . فأبلغوا حكومتهم ذلك وأشاروا عليهما بعقد اتفاق بينهما وبين حكومة « اليمونتي » انتقاماً من النمسا . وقد كانت الامراض والحميات أضرت بالجيش الفرنسي والانهكازية ضرراً بليغا وشدة البرد عطت الاعمال الحربية . فاتفقت فرنسا وانكلترا مع « فيكتور راما نويل » ملك اليمونتي على مساعدة حكومته لها ضد روسيا وارسال ثمانية عشر ألف مقاتل . وأمضى (كافور) الشهير وزير اليمونتي على هذه الاتفاقية في ٢٦ يناير سنة ١٨٥٥ . وقد سر (كافور) بها سرورا عظيما لعله بان اشتراك اليمونتي مع فرنسا وانكلترا في الحرب ضد روسيا يجعل لبلاده شأنا يسمح له بعرض المسئلة الايطالية على الدول وقت المناقشة في شروط الصلح بعد اتمام الحرب . ولذلك يعتبر

المؤرخون اتفاقية ٢٦ يناير عام ١٨٥٥ مصدراً لتكوين الوحدة الإيطالية وأصلها. وما عقدت هذه الاتفاقية حتى سافرت الى تركيا الجنود اليموننية تحت قيادة الجنرال {لامارمورا}

وفي هذا الوقت نفسه تقدم القائد العثماني (عمر باشا) الى مدينة (إباتوريا) - التي هي أيضا ثغر من ثغور بحيث جزيرة القرم - وانتصر على الجيوش الروسية فيها نصر امين في ١٧ فبراير عام ١٨٥٥ وانضم بعدها النصر الى جيوش الدولة وجيوش فرنسا وانكسرت المحاصرة لمدينة (سباستوبول)

ولما رأت النمسا أن فرنسا وانكلترا أساءتا الظن بها ورضيتها بمساعدة اليمونتي اجتهدت في ارضائهما والاشترك معهما في العمل فعرضت على البروسيا وحكومات الاتحاد الالمانى أمر استعدادها للحرب وعزمها على ارسال جنودها ضد روسيا فرفضت طلبها بأشنع صورة ووجهت اليها الملام الغيف على اتباعها ارشادات فرنسا وانكلترا بدون مراعاة مصلحة البروسيا والحكومات الالمانية. وكان الموغر للصدور وقتئذ ضد النمسا الميسيو «دى بسمارك» الطائر الصيت وكان عضوا بالمجلس المشترك لحكومات الاتحاد الالمانى بفرانكفور ومسموع الكلمة عند حكومته «البروسيا». وقد أظهر بهارته السياسية الفاتحة لحكومة البروسيا وحكومات الاتحاد الالمانى ان خير وسيلة لمساعدة روسيا هي جمع العساكر البروسيانية والالمانية على الحدود امام الحدود الفرنسية لتخشى فرنسا شأنها ويرجع «نابليون الثالث»

عما كان عزم عليه من ارسال جيش جرار الي النمسا محترقا به البلاد الجرمانية لمحاربة روسيا وجعلها بين نار جيوشه من جهة مقاطعتي الافلاق والبغدان وبين نار الجيوش المتحدة من جهة القرم . وقد افلحت سياسة « بسمارك » وعدل (نابليون الثالث) عن مشروعه عند ما علم بوقوف الجنود البروسيانة والجرمانية امام حدود فرنسا

وقد خطر على بال (نابليون الثالث) عندئذ أن يسافر بنفسه الى الشرق ويتولي القيادة العامة على جيوش تركيا وفرنسا وانكلترا ولكن انكلترا عارضته في رغبته كما عارضه الكثيرون من نصّاحه ووزرائه

وفي ٢ مارس من السنة نفسها (١٨٥٥) توفي القيصر { نيقولا الاول } وتولي بعده القيصر (اسكندر الثاني) فأعلن لاوروبا رغبته في السلم وميله الى عقد الصلح مما اطمانت له خواطر الكثيرين من رجال السياسة وحمل فرنسا على طلب عقده وتمردوا على جديد بفيناي حيث قبل طلبها وعقد المؤتمر في ١٦ مارس

ولما عقد المؤتمر اتفق مندوبو النمسا وانكلترا وفرنسا وتركيا والروسيا على شرطي اعلان عدم حماية روسيا لمقاطعتي الافلاق والبغدان وحرية الملاحة في نهر الدانوب . أما يختص بضمانة استقلال الدولة العلية وسلامتها فقد صرح مندوبو روسيا بان دولتهم تحترم استقلال تركيا ولكنها لا تقبل الاشتراك مع الدول في امراضها وقد رفضت روسيا كذلك الشرط الرابع وهو المتعلق بتحديد عدد سفنها في البحر الاسود . فأوقفت بسبب ذلك جلسات المؤتمر في ٢٧ مارس عام ١٨٥٥ . ولما أعيد عقد المؤتمر رفض

(غورتشاكوف) مرة جديدة تحديد عدد سفن روسيا في البحر الاسود وضمانها مع الدول لاستقلال الدولة العلية وعرض على دول أوروبا قفيل بوغازى الاستانة والدردانيل كما تعهدت به الدول فى معاهدة عام ١٨٤١ واعطاء الباب العالى حق فتحهما عند الحاجة لسفن الدول المتحالفة معه . فلم يحصل بذلك الاتفاق بين مندوبى الدول وأوقفت جلسات المؤتمر للمرة الثانية فى ٢٧ ابريل عام ١٨٥٥ . وفى أوائل يونيه أعيد عقد المؤتمر للمرة الثالثة ولكن مندوبى الدول تضاربت آراؤهم كما حصل فى المرة الاولى والثانية ولم يجدوا سيلا للاتفاق فأعلن قفيل المؤتمر نهائيا بلا نتيجة تذكر

*
* *

وقدرأت فرنسا وانكلترا أنهما صارتا فى أشد حاجة للاتفاق بعد خيبة المؤتمر الدولى فسافر الامبراطور (نابليون الثالث) الى لوندرة لزيارة الملكة { فيكتوريا } حيث قوبل فيها بغاية الاجلال والاكرام . وبعد زمن قليل من زيارته ردت له الملكة زيارته بباريس . وبعدئذ اتفقت الحكومتان الفرنسية والانكليزية على اصدار أوامر جديدة لقواد جيوشهما ببلاد القرم أمرتاهم فيها بأن يحملوا الحملة الاخيرة على { سباستوبول } وعينت الحكومة الفرنسية فى القرم الجنرال { بيليسيه } بدل { كانزوبر } على قيادة الجيش الفرنسي وأمرته بالزحف على قلاع ومعامل العدو فاستولى بجيوشه فى ٧ يونيو عام ١٨٥٥ مع مساعدة جيوش الدولة العلية له على قلعة (ماملون فير) المعروفة بالقمة الخضراء . وهجم فى ١٨

يونيو على حصن (ملاكوف) فصدت الجيوش الروسية عنه جيش فرنسا . فاستاءت لذلك فرنسا وانكلترا وتركيا وجمعت قواها واتفق قواد هذه الجيوش المجتمعة (عمر باشا) و (بليسيه) و (سمبسون) و (لامارمورا) على عمل مشترك للاستيلاء على [سباستوبول] . فهاجمت الجيوش المجتمعة في ٨ سبتمبر عام ١٨٥٥ مدينة [سباستوبول] حيث احتل الجنرال الفرنسي (ماك ماهون) قلعة (ملاكوف) بعد موت الكثيرين من جنود الدول المتحدة ومن جنود دولة روسيا . وكان ذلك اليوم مشهودا ومن أكبر أيام الحروب وانتهى بسقوط (سباستوبول) في أيدي الجيوش المتحدة .

وقد أحدث سقوط (سباستوبول) تأثيرا هائلا في كل أوروبا وانتظر العالم كله ايقاف الحرب وعقد الصلح بين روسيا ودول تركيا وفرنسا وانكلترا . ولكن الحرب بقيت مستمرة واحتلت الجيوش المتحدة جملة مواقع مهمة منها مدينة (قلوبون) ولولا اقبال الشتاء لاستمرت الحرب بلا انقطاع . وفي أثناء الحرب استولت الاساطيل الفرنسية والانكليزية على ميناء (بتروبولوسك) واحتلت في بحر البلطيق (بومارسند) وضربت (سفيا بورج)

فلما رأت روسيا أن لا استطاعة لها على استمرار الحرب بذلت جهدها في استمالة فرنسا لها وحل عقدة الاتفاق بين هذه الدولة وبين انكلترا وأرسلت الى باريس جملة من عمالها وصنائعها ليستميلوا اليها رجال السياسة الفرنسية والقابضين على أزمة الرأي العام من الكتاب والخطباء فظهر

الامبراطور (نابليون الثالث) استعدادا لمساعدة روسيا ولكنه وجدها ترفض مطالب الظافرين فاضطر الى الاستمرار على خطته الاولي نحوها ولما كان من صالح انكلترا ان تضعف نفوذ روسيا في بحر البلطيق اتحدت هي وفرنسا اتحادا دفاعيا مع حكومة السويد التي كانت الاعدوة لروسيا وقتئذ وكانت تطمح لاسترجاع (فنلندا)

وجرى في هذا الاثناء ان (فيكتورامانويل) ملك اليمونتي ذهب الي باريس برفقة وزيره الشهير { كافور } فانهز الامبراطور (نابليون الثالث) هذه القرصة للانتقام من النمسا التي خدعته وخذعت انكلترا في حرب القرم فاستقبل ملك اليمونتي ووزيره احسن استقبال ووعدها بالمساعدة على تحرير ايطاليا وتكوين وحدتها فاضطرت الحكومة النمساوية وخافت شر العاقبة وأبلغت في الحال حكومتي فرنسا وانكلترا انهما مستعدة لان ترسل معهما انذارا لروسيا تهدها فيه باعلان الحرب عليهما اذ ارفضت مطالب الدول الثلاث . وسألت الحكومة النمساوية فرنسا وانكلترا ان تمضيا معها على اتفاقية تضمن امام العالم استقلال الدولة العلية وسلامتها . فقبلت فرنسا وانكلترا طلب النمسا واتفقت الدول الثلاث على صورة الانذار وأرسلته بالفعل لقيصر روسيا بتاريخ ١٦ ديسمبر عام ١٨٥٥ وأعلته بوجوب قبوله قبل تمام شهر أي قبل ١٧ يناير عام ١٨٥٦ . وهذا الانذار يشتمل على الشروط الآتية

أولا جعل المقاطعات الدانوبية تحت رعاية الدول العظمى وضمانها ومنع الدولة العلية من ارسال جنودها اليها بدون تصريح الدول . وتعديل

الحدود من جهة البسارايا

ثانياً تقرير حرية الملاحة في نهر الدانوب تحت ضمانه الدول
ثالثاً جعل البحر الاسود حراً . ويعمل لذلك اتفاقية خصوصية بين روسيا
والباب اعالي تضمنها الدول بعد . وقبول الدولة العلية في المجتمع
الاوروبي . وعرض كل خلاف يقع بينها وبين احدي الدول على بقية
الدول وتقرير مبدأ قفل بوغازي الاستانة والدردانيل
رابعاً تأكيد حقوق المسيحيين في تركيا بدون الحاق ضرر باستقلال
السلطان وسيادته العلية

خامساً جواز وضع شروط جديدة اذا اقتضت مصلحة أوروبا بذلك
فأجابت روسيا على انذار دول فرنسا وانكلترا والنمسا في ٥ يناير
عام ١٨٥٦ بقبول الشروط الاربعة الاولى ورفض الشرط الخامس لاجهامه
ولكن البروسيا خافت اشتعال نيران حرب عمومية في كل أوروبا تقووم
معها الثورات والاضطرابات فنصحت روسيا بقبول المطالب الخمسة
والخروج من هذه الازمة الخطرة عليها وعلى مصالحها . فاتبعت روسيا نصيحة
البروسيا وأبلغت الدول رسمياً في ١٦ يناير عام ١٨٥٦ قبولها لشروطها كلها
فاجتمع عندئذ المؤتمر الدولي بباريس في ٢٥ فبراير عام ١٨٥٦ وعقدت
جلساته تحت رئاسة الكونت (والوسكي) وزير خارجية فرنسا واشتركت
الدولة العلية والروسيا فيه كما اشتركت حكومة البينونتى التى أرسلت نوابها
الكونت (كافور) الشهير . وكان (على باشا) مندوباً عن الدولة العلية في هذا
المؤتمر

وقد اتفق مندوبو الدول في هذا المؤتمر بغير صعوبة على الشروط التي عرضتها من قبل فرنسا وانكلترا والنمسا والتي أتينا عليها ولم يختلفوا الا في قبول طلب (نابليون الثالث) بشأن ضم الافلاق والبغدان الي امارة واحدة وقرروا النظر في هذا الامر بعد انتهاء المؤتمر ولم يمض علي مؤتمر باريس عامان حتى قررت الدول في باريس نفسها بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٨٥٨ جعل هاتين المقاطعتين إماراة واحدة تحت ضمانة الدول

وقد أمضت الدول الاوروبية على عهدة باريس في ٣٠ مارس سنة ١٨٥٦ وأعلن قفل المؤتمر في ١٦ ابريل من السنة نفسها بعد ان تناقش اعضاؤه في جملة مسائل أهمها المسئلة الايطالية التي عرضها على المؤتمر الكونت (كافور) ووجه انظار الدول اليها ولكن المؤتمر لم يقرر شيئاً في هذه المسائل واكتفى بالاتفاق علي بعض شروط خارجية عن عهدة باريس مخصصة بالملاحة والتجارة

*
*
*

انتهت هذه الحرب بنتائج مختلفة نأتي عليها واحدة بعد أخرى تبين للقارىء ان هذه الحرب أصلها مسئلة الاماكن المقدسة والخلاف بين الكاثوليكين والارثوذكس . وطالما كانت تؤمل كل دولة من الدول الاستيلاء علي الشام والقبض علي زمام الكنائس بيت المقدس فجاء الخلاف بين فرنسا والروسيا بشأنها دليلا علي أن هذه الاماكن المقدسة يجب أن تقي الي الابد في أيدي

الدولة الاسلامية العظمى لأنها الدولة الوحيدة التي تقدر ان تحفظ الموازنة بين كل الديانات في بيت المقدس وتعطي كل ذي حق حقه . وانه لو تركت الاماكن المقدسة لدول اوروبا لوقع بينها وبين بعضها شقاق عظيم وقامت حرب دموية لنزوع كل واحدة منها الى امتلاكها ورغبة كل دولة في سبق غيرها الى الاستيلاء عليها .

فدفعاً لهذا الخطر الجسيم يجب أن تبقى هذه الاماكن في أيدي الدولة العلية العادلة الامينة . وقد أدرك سواس أوروبا ذلك وعلموا ان مسألة الاماكن المقدسة هي من أهم الاسباب التي تحتم ضرورة بقاء الدولة العلية واذا كانت الدولة العلية قد اكتسبت من حرب القرم هذه النتيجة المهمة فانها لم تكسب غير هاشياً ما فقدت المال والرجال وأضاعت نفيس وقتها ولم تأخذ من بلاد روسيا بلداً واحدة بل أنسخت عنها في الحقيقة (الافلاق والبغدان) . وقد خدعتها الدول بمنحها امتيازين أثبتت الحوادث بعد أنهما لا يفيدانها شيئاً مذكورا . فقد تعهدت الدول كلها بضمانة استقلال الدولة العلية وسلامتها وأرتنا الحوادث أن دول أوروبا بنفسها سلخت من الدولة العلية جملة بلاد باسم هذا المبدأ نفسه مبدأ ضمانه استقلال الدولة العلية وسلامتها . واتفقت الدول كذلك على اعتبار الدولة العلية دولة أوروية وقبولها في المجتمع الاوروبي . ولم تر الدولة لهذا الامتياز فائدة ما بل كانت نتيجة جربها عليها بازيد تداخل أوروبا في شؤونها الداخلية

وقد خرجت روسيا من هذه الحرب سليمة لم تخسر فيها غير المال والرجال شيئاً . ومعاً كسة الدول لها في البحر الاسود لم تكن الامعا كسة

وقتيّة كما أظهرته جلياً الحوادث بعد مؤتمر باريس

أما الدولة التي استفادت كثيراً من هذه الحرب فهي دولة البروسيا فانها استمالت اليها روسيا بخطتها نحوها وأوجدت عندها كراهة شديدة للنمسا التي لم تساعدتها ضد تركيا كما ساعدتها هي في قمع الثورة المجرية عام ١٨٤٩ وأحدثت البروسيا بين النمسا وبين حكومات الاتحاد الألماني شقاقاً كبيراً . فحمل البروسيا كل ذلك على محاربة النمسا عام ١٨٦٦ هذه الحرب التي ساعدت روسيا فيها البروسيا مساعدة معنوية وانتهت باستيلاء البروسيا على مقاطعتين من أملاك النمسا وقد تمت نتائج هذه الحرب بهزيمة فرنسا أمام البروسيا عام ١٨٧٠ وتكوين الوحدة الألمانية

ومن أهم نتائج حرب عام ١٨٦٦ على النمسا غير فقدتها مقاطعتين مهمتين استقلال المجر منها استقلالاً ادارياً . وهي أيضاً نتيجة من نتائج حرب القرم

وقد استفادت كذلك من حرب القرم حكومة اليمونتي فانها أرسلت الي مؤتمر باريس كما قدمنا الكونت « كافور » الشهير الذي استلقت أنظار مندوبي الدول الي حالة ايطاليا ومظالم النمسا وحمل على الحكومة النمساوية حملة شديدة كان لها رنة ودوى في كل أصقاع العالم . ومن حسن حظ اليمونتي ان (نابليون الثالث) كان مغرماً بتحرير البلاد النازعة للاستقلال وكان ميله لايطاليا أشد من ميله لسواها خصوصاً وان بغضه للنمسا كان عظيماً بعد حرب القرم لتلاعب هذه الدولة في سياستها وعدم وفائها في وعودها مع فرنسا وانكسرت . ولم تمض الا سنون قلائل بعد حرب القرم حتى نالت ايطاليا

استقلالها وتكونت وحدتها . فكانت بذلك حرب القرم سبباً لسقوط مقاطعتين مهمتين من أملاك النمسا في قبضة البروسيا وسبباً لاستقلال المجر استقلالاً ادارياً وسبباً لخروج ايطاليا من تحت نير النمسا واستقلالها وتكوين وحدتها . وبالجملة كانت حرب القرم سبباً لضعف النمسا وتقويض أركان مملكتها

وقد اكتسبت انكلترا وفرنسا من هذه الحرب ازدياد نفوذها في الامتانه فاستعملتا في سبيل مصالحهما . فان الهنود كادوا يطردون الانكليز من بلادهم في ثورة سيباى الشهيرة عام ١٨٥٦ لولا تدخل المرحوم السلطان (عبد المجيد خان) فانه أصدر منشورا — بناء على رجاء انكلترا — لمسلمي الهند أمرهم فيه بالركون الى السكينة والطاعة لحكومة جلالة الملكة (فيكتوريا) . ومعلوم أن المسلمين في الهند أقوياء ولهم شأن عظيم وكلمة نافذة وكلهم يحترمون خليفة الاسلام ويجلونه أعظم اجلال . فلما وصل اليهم منشور جلالته وضعوه على رؤوسهم وعملوا بما أمرهم به . فألقوا أسلحتهم وانتهت بذلك الثورة وتوطدت سلطة الانكليز في الهند بعد اضمحلالها

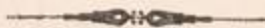
وانه ليتبادر للذهن ان انكلترا شكرت الدولة العلية على عمل سلطانها الاعظم أو اعترفت لها بالجميل . نعم انها اعترفت لها بالجميل ولكن بماداتها والاعتداء على بلادها ؛ فانها سلطت في عام ١٨٥٨ — أي بعد عامين من ثورة سيباى — احدى سفنها الحربية الضخمة على ثغر (جدة) فاستمرت تدمر فيه نحو عشرين ساعة أسيلت فيها دماء كثيرة وخربت

منازل وبيوت عامرة . وكان ذلك عقب فتنة صغيرة قام فيها بعض المسلمين على بعض المسيحيين وأصيب فيها فنصل فرنسا وقتلت زوجته . ولم يكن لعمل انكاثرا معني ولا ضرورة لان الدولة العلية كانت قد أرسلت مندوبا عاليا من لدنها لتحقيق الامر ومعاقبة المعتدين

أما فرنسا فقد استعملت نفوذها في تركيا الذي ازداد بعد حرب القرم كما قدمنا لاعلاء كلمتها في الشرق فأرسلت جيشاً فرنساويا الى الشام عام ١٨٦٠ بحجة مساعدة الدولة العلية على قمع الفتنة التي أحدثها الخلاف والشحناء بين المارونية والدروز مع أن جيش الدولة كان كافيا لاعادة الامن والسكينة في هذه الديار . ولم تخرج العساكر الفرنسية من الشام

الافى ٥ يونيو عام ١٨٦١

هذه هي النتائج الخطيرة التي أتت بها حرب القرم ومنها يعلم القارىء حظ كل دولة في هذه الحرب وخطة الدول نحو الدولة العلية وكنهه مقاصد كل واحدة منها وحقيقة أغراضها



— ❦ — الأزمة الرابعة ❦ —

(الحرب بين تركيا والروسيا وما قبلها وما بعدها)

« من عام ١٨٧٥ إلى عام ١٨٧٨ »

أبنا في ختام الفصل السابق أن نتيجة حرب القرم على النمسا كانت وخيمة حيث فقدت هذه الدولة بعدها مقاطعاتها الإيطالية وأخذت البروسيا منها في حرب عام ١٨٦٦ مقاطعتين مهمتين ونالت المجر استقلالها النوعي أي ارتفعت سلطة النمسا عنها . فطمعت هذه الدولة في أخذ شيء من أملاك الدولة العلية يعوض عليها بعض خسائرها فتقربت من المانيا عدوتها اللدودة التي قهرتها وكونت وحدتها بانتصارها عليها وعلى فرنسا عوضا عن أن تستعد للاخذ بالثار منها واسترجاع المقاطعتين اللتين أخذتهما منها . وصارت كذلك النمسا تستميل روسيا اليها وتوعز لها بحاربة تركيا وأوضحنا كذلك أن الملائق بين روسيا والبروسيا صارت جيدة متينة وان مساعدة البروسيا لروسيا في حرب القرم حمت روسيا على ترك البروسيا تحارب النمسا وتقهرها وتحارب فرنسا وتقهرها وتأخذ من كل دولة من الدولتين مقاطعتين عظيمتين وتكون بذلك وحدتها ويصير مايكها امبراطورا لالمانيا بدو أن تعارضها في أعمالها بل بقيت على الحيادة مظهرة ارتياحها لنجاح البروسيا ضد النمسا وفرنسا اللتين عاكستاها (أي روسيا) في حرب القرم

ومن ذلك يري القارىء ان روسيا والنمسا والمانيا اتفقت بعد حرب عام ١٨٧٠ التي قامت بين فرنسا والبروسيا . واتفق امبراطورها على العمل

بالاتحاد فاهتمت روسيا لتغيير الشرط المتعلق بحريتها في البحر الاسود
 الذي اتفقت عليه الدول في مؤتمر باريس عام ١٨٥٦ ودعت الدول
 لعقد مؤتمر للنظر فيه . فأجابت الدول دعوتها واجتمع مندوبوها في
 عاصمة بلاد الانكليز في ١٣ مارس سنة ١٨٧١ واتفقوا (ولم تشترك
 فرنسا مع الدول لاشتغالها بعقد الصلح مع البروسيا) على تغيير هذا الشرط
 واعطاء روسيا الحرية التامة في الملاحة بالبحر الاسود وتسيير سفنها فيه
 ولما تحققت روسيا من أن المانيا والنمسا مستعدتان لمساعدتها
 وان ايطاليا دولة ناشئة لا يخشى منها وأن فرنسا ضعيفة بعد الهزيمة
 خافت صوتها وان ليس لها في دول أوروبا من يستطيع معارضتها غير
 انكلترا وانها وحدها لا تستطيع ان تضرها بشيء — فضلا عن ان
 روسيا كانت تعلم ان انكلترا لا تفيد تركيا شيئا لأن مبادئها في
 كل أطوار سياستها ان تنفع من غيرها وان لا تنفع غيرها — اجتهدت
 (أي الروسية) في تهيج أمم البلقان وأرسلت في كل أنحاء بلاد
 البلقان زعماء ينادون بالثورة ضد الدولة العلية وينشرون مبدأ اتحاد
 السلافيين تحت راية القيصر ويدعون اقوام البلقان كافة للعصيان باسم
 الدين الارثوذكسي ضد الحكومة العثمانية الاسلامية . وكان من
 مصلحة النمسا أن تهيج بلاد البوسنة والمهرسك ضد الدولة العلية لما كان
 عندها من الامل في الاستيلاء عليها فساعدت مهبجي روسيا وأخذت
 تهيج كذلك أهالي هذه البلاد حتي هاج المسيحيون كافة في بلاد البوسنة
 والمهرسك وصارت المساعدات تأتيهم جهارا من بلاد الصرب والجل

الاسود وأرسلت لهم من النمسا الاسلحة والذخائر سراً. فلما علمت الدولة العلية بذلك أرسلت الي البوسنة والمهرسك جيشاً قويا بقيادة القائد الشهير والبطل العظيم الغازي (مختار باشا) فقمع الثورة ورد كيد الثائرين ولكن دول روسيا والنمسا وألمانيا التي كانت تريد كما قدمنا استمرار الثورات والاضطرابات في الدولة توسطت بين الثائرين وبين الباب العالي وطلبت من الدولة أن تقبل مطالب الثوار بتخفيف الضرائب عنهم وبتركهم يعينون الشرطة (البوليس) من نفس ابناء البوسنة والمهرسك. فوعد المرحوم السلطان (عبد العزيز خان) بالنظر في هذه المطالب وبمنح رعاياه على اختلاف دياناتهم ما يطلبونه من الامتيازات وما يراه موافقا لهم وللدولة. وفي ١٢ ديسمبر عام ١٨٧٥ أصدر السلطان ارادة عالية بقبول مطالب أهالي البوسنة والمهرسك وبرهن بذلك على عدم تعصب الدولة ضد رعاياها المسلمين. ولو كانت الدول راغبة حقيقة في خير المسيحيين وغير قاصدة ضرر الدولة واضعافها لكانت اكتفت بهذه الارادة السلطانية وساعدت الدولة على تنفيذها وأمرت الثوار الذين أهاجتهم ضد الدولة بالر كون الى السكنينة وبالامتنال لاوامر الحكومة العثمانية. ولكنها كانت تعمل لبث الفتن والثورات فأوعزت الي الثوار بعدم نزع السلاح وبالاستعداد للكفاح وفي ٣٠ يناير عام ١٨٧٦ قدمت الدول جميعها بما فيها فرنسا وايطاليا مذكرة للباب العالي طلبت منه فيها منح أهالي البوسنة والمهرسك تمام الحرية الدينية وتقرير مساواة الاديان وتخفيف الضرائب وجعل الشرطة أهلية وتشكيل لجنة من أهالي البوسنة والمهرسك مكون نصفها من

مسيحيين والنصف الآخر من مسلمين لمراقبة تنفيذ ما جاء في الارادة العلية التي أصدرها السلطان في ١٢ ديسمبر عام ١٨٧٥
 وأول من وضع هذه المذكرة هو الكونت « اندارشى » . وقد سميت باسمه . وهو مجرى أغضبت خطته نحو الدولة العلية في هذه الحوادث الامة الحبرية لشدة تعلقها بالدولة العلية واعترافها بالجميل للعثمانيين ولم تتأخر الدولة العلية عن قبول مطالب الدول المذكورة في مذكرتها واجابتها عليها في ١١ فبراير من السنة نفسها

فلما رأت روسيا ان الدولة العلية قمت الثورة أولا ولم ترفض مطالب الثوار ثانيا ولم ترفض مطالب الدول ثالثا وتحققت من انه يستحيل عليها خلق سبب سياسى من المخبرات يقيم في وجه تركيا أوروبا والرأي العام الاوروبى بذلت جهدها ووجهت كل عنايتها لجعل الثورة عامة في بلاد البلقان حتى تضعف الدولة وترتبك أحوالها من جهة وحتى يسهل عليها ان تشيع في أوروبا الاشاعات الكاذبة عن معاملة الأتراك للمسيحيين وتهميج بذلك الرأي العام الاوروبى ضد الدولة العلية وضد المسلمين . فاجتمع ثوار البوسنة والمهرسك في (كوسبروفو) في ٢٨ فبراير أي بعد قبول الدولة لمطالب الدول وقرروا بايعاز روسيا الاستمرار على الثورة والعصيان وعدم الخضوع للدولة

وقد توصلت روسيا الي تهيج بلاد الصرب ضد الدولة العلية فهاج أهلها وجأهروا بمعاودة الدولة وطلبوا من حكومتهم محاربتها . فخابرت حكومتها حكومة الجبل الاسود واتفقت معها ضد الدولة فصارت بذلك

بلاد البلقان كلها قائمة على قدم وساق ضد الدولة . وبلغت الفوضى حدها في هذه البلاد فاعتدى المجرمون على الابرياء وصار كل واحد من الثوار يفاخر الآخريين بمآهيب وسلب من المسلمين . وصار الذين لاسلح بايديهم من المسلمين يدافعون به عن أنفسهم فريسة للمجرمين السافكين للدماء من ثوار المسيحيين

رأى المسلمون في بلاد البلقان مارأوا من الالهانة والسلب والنهب وأسيت دماء الابرياء من الكثيرين منهم وأنصار الباطل والضلال في أوروبا يشعرون في كل مكان أن الدولة العلية دولة بربرية تسفك دماء المسيحيين وتهتك أعراض نسأهم وتخرب بيوتهم وكنائسهم وغير ذلك مما يكرره أعداء الدولة وأعداء الحقيقة في كل خلاف يقع بين المسيحيين والمسلمين في بلاد الدولة

وقد عمل أعداء الدولة على تهيج الرأي العام الاوروبي ضدها بكل الوسائل وحصل ان فتاة مسيحية اعتنقت الدين الاسلامي في ضواحي سالونيك وذهبت لهذه المدينة لاثبات اسلامها بصفة شرعية فعلم المسيحيون بالأمر وتجمعوا في طريق الفتاة حتى اختطفوها عند مرورها وأخفوها في بيت أحد المسيحيين فهاج المسلمون لذلك وذهبوا الى الحاكم طالبين تخليص الفتاة ثم اجتمعوا في مسجد للمداولة في الأمر وبيناهم مجتمعون اذ دخل عليهم قنصلا ألمانيا وفرنسا فاعتسدى عليهما بعض الحاضرين لاعتبارهم دخول القنصلين في المسجد اهانة لهم وضربوها ضربا قضي عليهما في الحال . فانتشر خبر الحادثة في أوروبا وما انتشر

حتى نادى اعداء الدولة بالويل والثبور وحملوا على الاسلام ودولته العزيزة حملات شديدة وأهاجوا الرأي العام ضد الحكومة العثمانية حتى اضطرت الدول كلها لارسال سفن حربية الي ميناء سالونيك ولم يستطع الباب العالي ان يفهم أوروبا ان القنصلين اخطأ في الذهاب الي المسجد بل طلبت منه الدول معاقبة المعتدين ولما لم يجد سيلا لرفض طاب الدول عاقب من ثبت عليهم الاعتداء على القنصلين بالاعدام وانتهت بذلك هذه الحادثة وهي حادثة من حوادث عديدة خلقتها يد الدسائس والاغراض للايقاع بالدولة والاضرار بها . واني لست ممن يستبعدون ان اسلام هذه القتاة المسيحية كان مصطنعا وان الحادثة مدبرة من أولها لآخرها . فكل من طالع شيئا من أعمال أرباب الدسائس في الدولة يعلم انهم قادرون على إيجاد حادثة كهذه وأكبر منها

وقد عرض في هذه الاثناء ثوار البوسنة والمهرسك على دول أوروبا انهم ينكفون عن الثورة ويعيدون السكينة الي بلادهم اذا أنفذت الشروط الآتية :

أولا أن تعطى الدولة العلية للمسيحيين ثلث الاراضي التي بيد المسلمين
ثانيا أن تصلح لهم المنازل التي هدمت بسبب الثورة وان تساعدهم
بالمال وان تقدم لهم الثيران اللازمة لحث الأرض
ثالثا أن تعفيهم من الضرائب مدة ثلاث سنين
رابعا ان تجلب العساكر التركية النظامية من بلاد البوسنة والمهرسك
وان تبقى فقط في (نيكشيش) و (ستولاز) و (فوكا) و { تريبين }

و (يوجلي) و (مستار) وان ترسل النمسا والروسيا مندوبين من قبلهما
في هذه البلاد لمراقبة تنفيذ هذه الشروط

خامسا نزع السلاح من المسلمين

سادسا ضمانه الدول الأوروبية لتنفيذ هذه الشروط

ولما رأّت صربيا وبلغاريا والجبل الأسود ان روسيا والنمسا والمانيا
تشجع ثوار البوسنة والمهرسك أصغت لارشادات المهيجين وقامت
مستعدة لمحاربة تركيا والانتقام من الاسلام باسم الصليب. ولما أرادت
الروسيا أن تعجل بالحرب وباسقاط المصائب على تركيا دعت النمسا
والمانيا للاشتراك معها في تقديم انذار جديد للباب العالي فاجابت النمسا
والمانيا طلبها واجتمع البرنس (غورتشاكوف) عن روسيا والكونت
(اندراشي) عن النمسا مع البرنس (بسمارك) في برلين وتم اتفاهم في
١١ مايو سنة ١٨٧٦ على انذار ترسله دولهم الى الباب العالي

ولم تطلب الدول الثلاث من الباب العالي ما طلبته في مذكرة
(اندراشي) التي أرسلت في ٣٠ يناير عام ١٨٧٦ بل طلبت جل ما أراد
ثوار البوسنة والمهرسك فاشتملت مذكرتها على الطلبات الآتية:

أولا ان يصاح الباب العالي المنازل التي دمرت بسبب الثورة وان يقدم
كل ما يلزم للفلاحين من الشيران والآلات وان يعفى أهالي البوسنة
والمهرسك من الضرائب مدة ثلاث سنوات

ثانيا ان يعين الباب العالي لجنة من أعيان أهالي البوسنة والمهرسك
المسيحيين لتوزيع المساعدات المادية التي يقدمها

ثالثا ان يسحب العساكر التركية من بلاد البوسنة والمهرسك وان لا يتركها تحتل غير عشرة قلاع معينة

رابعا ان يترك المسيحيين مسلحين لغاية اتمام الاصلاحات واعادة الامن والسكينة الى بلاد البوسنة والمهرسك

خامسا ان يكون لقنصل الدول او مندوبيها الحق في مراقبة تنفيذ هذه الطلبات . وطلبت الدول الثلاث غير هذه الطلبات ان تمنح تركيا للثوار هدية شهرين وهددتها بانها ان لم تنفذ هذه الطلبات مدة الشهرين اتخذت معها طرق القوة والقهر

— وقد قبلت فرنسا وايطاليا التوقيع على هذه المذكرة اما انكثرتا

فرفضت التوقيع عليها بالمرّة

ولا شك ان المطالع لهذه الشروط يقف مندهشا مستغربا من معاملة دول أوروبا للدولة العلية واعتدائها عليها بأشنع الصور وأقبحها ويدرك من نفسه ان هذه الشروط لو كان يطلب تنفيذها من أحقر دول الأرض لكانت رفضت قبولها ولو أدى رفضها الى دمارها وخرابها . فموت فيه شرف خير من حياة تلطخ بالعار . ولذلك كان يستحيل على الدولة العلية ان تقبل هذه الشروط ولو لحظة واحدة . فان طلب الدول بقاء الجنود العثمانية في جهات مخصوصة وقلاع معينة مع بقاء المسيحيين متمسكين هو تشجيع للثوار عظيم وطلب الدول اعطاء الحكومة العثمانية للمسيحيين كل ما يحتاجون اليه من المساعدات المادية واصلاح المنازل التي دمرت بسبب الثورة هو طلب لا يستطيع ميزانية تركيا ان تقوم به وتهديد

الدول للدولة بأخذ طرق القوة والقهر معها ان لم تنفذ طلباتها هو تشجيع لكل أمم البلقان على الثورة ضد الدولة العلية ومن سوء حظ الدولة ان أسقط عن عرش السلطنة العثمانية في هذا الوقت المتلاء بالاضطرابات والاضطراب المرحوم السلطان { عبد العزيز خان } وأجلس مكانه السلطان { مراد الخامس } الذي لم يحكم الا خمسة أشهر

*
* *

وبديهي ان روسيا كانت ترمى الى اضعاف تركيا بالثورات والاضطرابات والحرب مع أمم البلقان حتى اذا ثبتت عزيمتها وقلت هممتها تحوات ضدها برجالها وقوتها . وهي سياسة لا يمكن لمؤرخ عادل ان يقول انها سياسة شريفة لأن روسيا كان يجب عليها ان تحارب تركيا من بادىء الامر لأن تهيج ضدها البوسنة والمهرسك وصربيا والجليل الاسود وبلغاريا فقد قام البلغار يون في وجه الدولة وجعلوا غايتهم قتل المسلمين فأتوا من القضاة والجرأء ما لا يستطيع وصفه قلم وصار أنصار الضلال في أوروبا يكذبون على العالم كله ويدعون ان الدولة تدبجهم هم ونساؤهم وأطفالهم مع انهم كانوا المعتدين على الابرياء من المسلمين وقد استعدت كذلك صربيا والجليل الاسود لمحاربة الدولة فاتحد أميرها هاتين الامارتين ضد الدولة وحشدا الجنود بكثرة وأرسلت روسيا ضابطاً من أهمر ضباطها (تشرنايف) لقيادة الجيش الصربي . فلما علمت الدولة العلية باستعدادات صربيا والجليل الاسود الحربية أرسلت الي

أميريهما في ٩ يونيو عام ١٨٧٦ تسألهما عن سبب هذه الاستعدادات فأجابت الصرب بأنها تطلب من الباب العالي أن تنجلي العساكر العثمانية من مقاطعتي البوسنة والهرسك وأن تحتل العساكر الصربية مقاطعة البوسنة وأن تحتل عساكر الجبل الأسود مقاطعة الهرسك . فرفض الباب العالي هذا الطلب الغريب بغاية الشدة والشهامة وأرسل بجيشه إلى حدود الصرب والجبل الأسود . وفي ٣٠ يونيو أعلنت الصرب الحرب على تركيا وفي ٢ يوليو أعلنها الجبل الأسود

ولما كانت روسيا تعلم أن تظاهر صربيا والجبل الأسود برغبة احتلال البوسنة والهرسك من شأنه أن يكدر النمسا التي تريد تقوية نفوذها في البلقان وتطمح إلى الاستيلاء على هاتين المقاطعتين سافر القيصر { اسكندر الثاني } بنفسه إلى (ريشتاد) في بوهيميا وتقابل مع { فرنسوا جوزيف } امبراطور النمسا وتحدث معه طويلا في أمور الشرق . ويحقق كثيرون من المؤرخين بأن القيصر وعد امبراطور النمسا باعطائه البوسنة والهرسك بعد انتهاء أزمة المسئلة الشرقية فبقيت النمسا بذلك على الحيادة وقت الحرب بين الدولة العلية وبين صربيا والجبل الأسود

وقد كان يظن سواس أوروبا وكتابها ورجال الحرب فيها ان الدولة العلية ستقهر في هذه الحرب امام صربيا والجبل الأسود ولكنهم علموا بمدئذ ان جنود تركيا لا يزالون ليوثا في الحرب وآسادا في منامع القتال فقد انتصروا على عساكر الجبل الأسود و جنود صربيا نصرا مينا بقيادة الغازي عثمان باشا والمرحوم عبد الكريم باشا وهزموهم في { زيتشار }

هزيمة اهتزت لها أوروبا ومادت لها محافلها ونواذيرها. ولما شعرت صربيا بان بلغراد عاصمة بلادها صارت نفسها في خطر طلبت من الدول بتاريخ ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٦ ان تتوسط بينها وبين الدولة العلية فسألت الدول الأوروبية الدولة العلية ان تعرض عليها الشروط التي تقبل معها عقد الصلح فاجابتها بهذه الشروط :

أولا ان تعود الاحوال في صربيا الى ما كانت عليه قبل عام ١٨٦٧
 ثانيا ان تهدم القلاع التي بنتها صربيا بعد عام ١٨٦٧
 ثالثا ان ترد القلاع التي كانت محتلة لها تركيا من قبل اليها
 رابعا ان تدفع صربيا غرامة حربية أو أن تقبل ازدياد الخراج السنوي الذي تدفعه لتركيا

خامسا ان لا يزيد عدد الجيش الصربي عن عشرة ألف مقاتل
 سادسا ان يسافر أمير الصرب الى الاستانة ليقدم واجبات الخضوع والتابعة للحضرة السلطانية وليستلم فرمان تعيينه أميراً على الصرب
 فرأت الدول ان هذه الشروط قاسية جدا وان قبولها يضر بالصرب ضرارا بليغا على ان القاريء اذا تذكر الطلبات التي اتفقت عليها روسيا والنمسا والمانيا في برلين بشأن البوسنة والهرسك وطلبتها من الباب العالي لوجدت شروط الدولة العلية مع الصرب أخف كثيرا من طلبات الدول مع ان الدولة غلبت الصرب وانتصرت عليها انتصارا باهرا . فطابت الدول من انكثرتا التي كانت تدعى مساعدة تركيا - وما كانت تعمل في الحقيقة الا على تشجيع رجال تركيا في معارضتهم ضد الدول مع علمها باتفاق

الدول كلها ضد تركيا — ان تعرض على الباب العالي شروطا أخرى
وفي هذا الاثناء جلس جلالة مولانا السلطان الاعظم والخليفة
الاكبر الغازي ﴿ عبد الحميد خان ﴾ على أريكه المملكة العثمانية حيث
المصاعب تحيط بها من كل جانب وأعداؤها يدسون لها الدسائس في
كافة انحاءها والدول كلها متحدة ضدها فبذل أقصى جهده في تنظيم الامور
وإصلاح الاحوال ودفع المصائب والاطار

وقد عرض الكونت (دى بيكونسفيلد) الوزير الاول لانكلترا
على الدولة العلية عقد هدنة لمدة ستة أسابيع للمخاطبة فيها في شروط الصلح
وبقاء الحالة على ماهي عليه في صربيا ومنح البوسنه والمهرسك استقلالاً
ادارياً فرفضت الدولة هذه الطلبات خصوصاً وان القيصر أعزى الي صربيا
باستئناف الحرب مرة ثانية فجمعت جنودها وجندت من لم يجند منهم .
وفي ١ اكتوبر سنة ١٨٧٦ أرسل القيصر الي (فرنسوا جوزيف)
امبراطور النمسا كتاباً سرياً سأل فيه اتحاد النمسا مع روسيا لاحتلال بلاد
البلقان كلها فرفض امبراطور النمسا طلب القيصر خوفاً من نتائج عمل
خطير كهذا

وفي ٥ اكتوبر طلبت انكلترا من الدولة العلية عقد هدنة لمدة ستة
أسابيع وفتح مذاكرة بين الدول وقت الهدنة بشأن عقد الصلح فأجابت
الدولة العلية بأن الهدنة يجب أن تكون لمدة ستة أشهر حتى تستطيع
جنودها أن تستريح من انصاب الحرب وبأن يمنع وصول الاسلحة والذخائر
لشوار البوسنه والمهرسك ولصربيا والجلب الاسود وقت الهدنة . فلم تقبل

الدول طلب الدولة العلية العادل وأرسلت الروسية في ١٥ أكتوبر الجنرال (إغناطييف) للاستانة حاملا انذارا للباب العالي يتضمن هذه الشروط : أولا عقد هدنة لمدة ستة أسابيع بلا شرط : ثانيا منح البوسنة والمهرسك وبلغاريا استقلالاً ادارياً : ثالثاً ضمانة الدول الأوروبية لحقوق هذه المقاطعات

وما وصل (إغناطييف) الى الاستانة حتى وصلته أخبار انهزام الجيش الصربي امام الجيش العثماني الظافر . فقد انتصرت الجنود العثمانية انتصارا عظيما في (دليجراد) و «الكسيناتس» وباتوا على مقربة من «بلغراد» عاصمة الصرب التي صار أمر سقوطها في أيدي العثمانيين محققا . فقدم في الحال (إغناطييف) انذاره للباب العالي وقبلت الدولة العلية عقد الهدنة في ٢ نوفمبر عام ١٨٧٦

ولما رأت انكترا ان الروسية تهدد الدولة العلية على لسان الجنرال (إغناطييف) أرادت أن تظهر لتركيا مودتها لها لتتذرع من هذه المودة عند الحاجة كما سيرى القارىء فأمرت أسطولها بالسفر الى مياه الشرق والوقوف في (بزيكا) أى في مدخل الدردانيل . وعندئذ اتفقت الدول على عقد مذاكرة بينها وبين بعضها في الاستانة

*
* *

وقد اجتمع مندوبو الدول بالاستانة في أوائل ديسمبر عام ١٨٧٦ وقرروا عدم اشتراك تركيا في مداولاتهم ومناقشتهم بل ارسال قرارهم النهائي اليها بعد اتمام المداولات والاتفاق عليه . وهي أول مرة اجتمع

مؤتمر دولي في عاصمة بلاد لم تشترك في هذا المؤتمر . وفي ٢٣ ديسمبر تم اتفاق مندوبي الدول على وضع قرار نهائي وفي ٢٤ منه أبلغ هذا القرار الى الباب العالي . وهو يتضمن أن الدولة العلية تتنازل لبلاد الصرب والجلب الاسود عن بعض الاراضي ليتسع نطاق امارتيهما . كأنهما الغالبتان لتركيا ؛ ويتضمن ان البوسنة والهرسك تصير مستقلة استقلالاً ادارياً وأن يعين لهما لمدة خمس سنوات حاكم يجب ان يكون تعيينه بموافقة الدول وأن يكون البوليس في البوسنة والهرسك مسيحياً وأن يترك لهاتين المقاطعتين نصف ايرادهما وان تكون لغة البوسنة والهرسك هي اللغة الرسمية فيهما ويتضمن القرار غير ذلك أن القسم الموجود في شمال البلقان من بلاد بلغاريا يصير مستقلاً استقلالاً ادارياً كالبوسنة والهرسك وان تحل الجنود البلجيكية هذه المقاطعات السالفة الذكر حين تنفيذ قرار الدول وان تعين لجنة دولية لمراقبة تنفيذ هذا القرار

ولاريب أن قرار الدول هذا كان في الحقيقة اعلاناً لتركيا بان دول أوروبا كلها متعصبة ضدها وانها متحدة في العمل على الاضرار بها . فان الدول الأوروبية كانت تعلم علم اليقين ان هذه المطالب ترفضها تركيا رفضاً باتاً لما فيها من المساس بحقوقها . وكيف كانت تستطيع تركيا أن تقبلها بعد ان أقمعت الثورة في البوسنة والهرسك وهزمت جنود الصرب والجلب الاسود شرهزيمة ؟

وقد كانت انكلترا وحدها تتظاهر للدولة العلية بالمحبة والولاء ولكنها أضرت بها كغيرها بل اكثر من غيرها لان الدولة العلية اتخذت

بتظاهر سواس الانكليز بالليل لها وحسبت ان بريطانيا مساعدة لها
 ضد الروسيا وقت الحرب . فلما جاءت الحرب علمت تركيا ان انكترا
 كانت ترمي فقط الى تشجيعها على معارضة أوروبا مع علمها باتحاد أوروبا وضدها
 وكذلك خدعت انكترا تركيا عند عقد مؤتمر برلين حيث أخذت
 منها قبرص كما - يري القارئ

ولما رأي مندوبو فرنسا ان الدولة العلية عازمة على رفض مطالب
 المؤتمر عرضوا على بقية الاعضاء تعديل الطلبات فقبلوا ذلك وأبلغوا
 الباب العالي انهم يتركون مسألة تنازل الدولة العلية للصرى والجبل
 الاسود عن بعض الاراضى لمخابرة أخري وانهم لا يسألون الباب
 العالي ان يستشير الدول في تعيين حاكم البوسنه والمهرسك الا في الخمس
 سنين الاولى وانهم عدلوا عن طلبهم بشأن تقسيم بلغاريا الى قسمين وجعل
 قسم منها مستقلا استقلالاً ادارياً وأنهم عدلوا عن طلبهم بشأن جعل
 البوليس كله في البوسنه والمهرسك مسيحياً وقبلوا ان يكون من المسيحيين
 ومن المسلمين وانهم قبلوا اعتبار اللغة التركية في البوسنه والمهرسك رسمية
 كاللغة السلافية . وحددوا للباب العالي مدة ثلاثة أشهر لتنفيذ ما تبقى
 من مطالب الدول

وقد أمضى مندوبو انكترا على هذا القرار مع بقية مندوبى الدول
 ولكنهم كانوا ينصحون لسواس تركيا سرّاً برفض مطالب الدول
 ولكي تعلم الامة العثمانية ان جلالة السلطان الاعظم لا يعرض
 بمصالحها للخطر وأنه يستشير في صغائر الامور وكبارها كبراء الامة

وعقلاءها جمع جلالة السلطان الاعظم مجلسا عاليا مكونا من مائة وثمانين
 عضوا من كبراء الامة ورؤساء الطوائف والمذاهب وعرض عليهم مطالب
 الدول وسألهم رأيهم في الامر فرفضوها بالاجماع وأشاروا على جلالة
 السلطان برفضها فقرر جلالته رفضها عملا برأى كبراء الامة ورؤساء
 المذاهب والديانات وحفظاً لكرامة الدولة وصيانة لشرفها

وفي ٢٠ يناير عام ١٨٧٧ أعلن صنوت باشا مندوبي الدول رسمياً بان
 الدولة العلية رفضت مطالبهم لمساها بمصالحها الجوهرية . فانفض بذلك
 المجتمع الدولي وترك مندوبو الدول كافة الاستانة اظهارا لغضب دولهم
 وانقطاع العلاقات السياسية

وفي ٣١ يناير من السنة نفسها كتب المسيو (غورتشا كوف) وزير
 روسيا الاول الي الدول الاوروبية يسألها عن الوسائل التي ستخذها
 مع تركيا لاجبارها على قبول مطالبها ويعلمها بان روسيا مستعدة للعمل
 وحدها ضد تركيا . وفي الوقت نفسه اتفق القيصر مع (فرنسو اجوزيف)
 امبراطور النمسا على بقاء النمسا على الحيادة أثناء الحرب بين الدول العلية
 وروسيا وقبل القيصر الشروط الآتية : أولاً ان لا تدعي احدى الدول
 الاوروبية ان لها وحدها حق حماية المسيحيين في الدولة العلية وان يكون
 لدول أوروبا كلها القول الفصل بين تركيا وروسيا بعد نهاية الحرب . ثانياً
 ان لا تأخذ روسيا شيئاً من الاراضي الواقعة على الشاطئ الايمن
 لنهر الطونة وان تحترم استقلال رومانيا وان لا تمس الاستانة بسوء . ثالثاً
 اذا أوجدت روسيا امارة سلافية جديدة يجب أن لا يكون ذلك ضد

مصلحة البلاد الغير سلافية وان لا تدعى الروسية حقاً جديدة على بلغاريا
التي يجب أن لا يحكمها أمير روسي ولا أمير نمساوي . رابعاً أن لاتمر
الجنود الروسية من بلاد الصرب

ولم تكف روسيا باتفاقها مع النمسا ومساعدة ألمانيا لها من أول
الازمة كل المساعدة بل أرادت أن تتحقق من مساعدة بقية الدول الاوروبية
لها مساعدة مغنوية فأرسلت الجنرال (اغنايف) الى عواصم أوروبا
فزارها عاصمة بعد عاصمة حتي لوندرة نفسها . وفي كل عاصمة
من عواصم أوروبا قوبل بالترحاب ووعدهم بمعارضه روسيا في شيء
وفي لوندرة اتفق مع الوزارة الانكليزية على عقد مؤتمر دولي في
لوندرة لارسال انذار أخير للباب العالي . وبالفعل اجتمع المؤتمر وفي ٣١
مارس سنة ١٨٧٧ أرسل الانذار الدولي للباب العالي متضمناً انه يجب
على الدولة العلية أن تتم عقد الصلح مع الجبل الاسود وان تترك له
الاراضي التي يطالب بها وان تنفذ الاصلاحات التي طلبتها منها الدول
وان تجعل عساكرها في حالة السلم بان تقال عددها انعظيم الذي جمعه
للحرب . وأنذرتها الدول بانها كلها مستعدة لان تتحد وتقرر الوسائل الفعالة
ضدها ان لم تقبل مطالبها في أقرب وقت . وبذلك اشتركت أوروبا كلها
اشتراكاً مغنويًا في معاداة روسيا لتركيا وتهيجها أمم البلقان عليها وتحملت
مسؤولية كل ماعلمته روسيا ضد تركيا

وقد أرسلت روسيا بانفرادها انذاراً آخر للباب العالي أشد لهجة
من الانذار الدولي فعرض الباب العالي هذين الانذارين على مجلس

المبعوثان ليرى رأيه فيهما فرفضهما في ٩ ابريل سنة ١٨٧٧ وفي ١١ ابريل أعلن الباب العالي للدول الأوروبية رفضه لهما . ومن ذلك اليوم صارت الحرب على أبواب تركيا وأخذت الدولة العلية من جهة والروس من جهة أخرى تتم تجهيزاتها الحربية وترسل جيوشها على الحدود ولما رأت روسيا انها لا تستطيع التغلب على تركيا والقوز عليها الا اذا عبرت جيوشها بلاد رومانيا عقدت في ١٦ ابريل مع هذه الامارة - خلافا لاتفاقها مع النمسا - اتفاقية تسمح للجند الروسية بعبور أراضي رومانيا . وفي ٢٤ ابريل سنة ١٨٧٧ أعلنت روسيا رسميا الحرب على تركيا مدينة في اعلانها ان غرضها بالحرب نصرة المسيحيين :

فلما علمت انكثرتا بان الحرب لا بد منها سألت روسيا عدم المساس بمصالحها في الشرق واحترام صوالحها . فأجابتها روسيا على ذلك . وهذه هي المساعدة التي قدمتها انكثرتا للدولة العلية !

وقد اتخذت الجنود الروسية في القرم وفي البحر الاسود خطة دفاعية وجعلت خطتها الهجومية في جهة القوقاز والدانوب

وسار الجيش الروسي في آسياتحت قيادة الجنرال { لوريس ميلكوف } وبعد مجهودات عظيمة وقتال عنيف استولى في ١٩ مايو على مدينة أردهان وسار في اوائل يونيه الي مدينة (أرضروم) . أما في أوروبا فقد اتفقت روسيا مع رومانيا { التي أعلنت عندئذ استقلالها التام عن الدولة العلية } في ١٤ مايو عام ١٨٧٧ اتفاقا دفاعيا هجوميا وانضمت جنود رومانيا الي جنود روسيا وعبرت بلغاريا الشمالية . وفي أواسط يوليو احتلت مدينة نيكوبلي واحتل

الجنرال (جوركو) مضايق البلقان الموصلة لمضيق شيبكا الشهير . وقد
 احدثت هذه الاخبار تأثيرا شديدا في الاستانة وفي أوروبا كلها وازداد
 اهتمام الباب العالي بأحوال الجيش . الا أنه من سوء حظ الدولة وشي بعض
 الدخلاء بالشهم المشهور (عبد الكريم باشا) فعزلته الدولة وعزلت رديف
 باشا ناظر الحربية وعينت بدل عبد الكريم باشا { محمد علي باشا } وهو
 ضابط روسي الاصل اعتنق الاسلام ودخل في عسكرية الدولة

ولما علم دولة الغازي (عثمان باشا) بانتصار الجيوش الروسية والرومانية
 أتى بجيشه الى مدينة (بلغنه) وحصنها أحسن تحصين

وقد هاجت الخواطر في بلاد المجر حين ذلك هيجانا شديدا لانتصار
 الروسية على تركيا في بعض مواقع وصار المجر يوتن يتظاهرون في الشوارع
 وفي المجتمعات ضد الروسية وينادون بحجة تركيا التي ساعدت ثوارهم عام
 ١٨٤٩ وأخذوا يسألون حكومتهم مساعدة تركيا بالفعل . الا ان النمسا
 التي بيدها زمام القيادة العامة للجيش المجرى والنمساوي كانت على الحيادة
 وكان { بسمارك } يسمعها من وقت الي آخر ان نصيبها من أملاك تركيا
 سيكون (البوسنة والهرسك). فكانت راضية بالحرب غير حاسبة لتقوية نفوذ
 الروسي في بلاد البلقان حسابا

وبالجملة لم يكن لتركيا في أمم أوروبا محب يخلص الحب لها غير الامة
 المجرية ولكنها لم تستطع ان تعمل شيئا ما في صالحها
 وقد ظن سواس أوروبا ورجال العسكرية فيها ان الروسي استتمر سائرة
 في طريق النصر ولكن الاخبار ملأت أوروبا بعدئذ ان الجنود العثمانية

انتصرت على الجنود الروسية انتصاراً باهراً (في قارص) بفضل البطل الشهير الغازي { أحمد مختار باشا } واضطر الروسيون لرفع الحصار عن هذه المدينة . وفي يوليو وأغسطس وسبتمبر عام ١٨٧٧ هاجمت الجنود الروسية مدينة { بلقنه } المرة بعد الأخرى وارتدوا على أعقابهم خاسرين لما أقام حولها الغازي (عثمان باشا) من المعاقل والحصون المنيعة ولكن سوء حظ الدولة العلية قضي عليها بان لا ترسل ما يلزم من المدد للغازي (مختار باشا) بعد ان فقد جيشه الرجال الأبطال . فسقطت منه لذلك (قارص) في أيدي الروسيين في شهر نوفمبر عام ١٨٧٧ . وسار بعد ذلك الجنرال الروسي (ميكوف) على (أرضروم) . أما (بلقنه) فقد أعيت معاقلها وحصونها الروسيين فحاصروها حصاراً شديداً وشهدوا قوة الأتراك وشهائمهم وأعجب قيصر الروس نفسه بمهارة الغازي (عثمان باشا) وقوة ادراكه . وقد طالت محاصرة (بلقنه) حتى انقطع المدد عن الأتراك ونفذ كل ما عندهم من الذخائر فعزم الغازي (عثمان باشا) على الخروج من (بلقنه) مع جنوده الأشداء وفي ١٠ ديسمبر عام ١٨٧٧ خرج بالفعل ومرت الجنود العثمانية من وسط الانداء غير خائفة نيرانهم ولا مقذوفاتهم بل جاعلة وجهتها الاستحكامات التي كان أقامها الروسيون حول (بلقنه) على ثلاثة خطوط متعاقبة واستولت على مدافع الخط الأول والثاني وكادت تستولي على الخط الثالث غير ان الغازي { عثمان باشا } وقع جريحاً فظنه قومه ميتاً وانتشر خبر موته بين الجنود العثمانية فثببت همهم وانحلت عزائمهم . ودخل الروسيون في هذا الاثناء

{بلقنه} واضطر قواد الجيش العثماني للتسليم والاتفاق مع قواد الجيش الروسي على ايقاف الحرب بالقاء الجيش العثماني لاسلح وقد فقد الجيش الروسي في محاصرة « بلقنه » ٢٨٠٨٠ رجلا وفقد الجيش العثماني ١٥٣٠٠ رجلا ولم يعتبر رجال العسكرية في أوروبا سقوط (بلقنه) انتصاراً للروسين على العثمانيين بل أعجب كل انسان بالعثمانيين اكثر من إعجابه بالروسين فان الروسين كان عددهم مائة وخمسين ألف مقاتل وكان عدد العثمانيين ثلثهم أي خمسين ألفاً فقط . وقد أظهر القيصر اسكندر الثاني نفسه للغازي (عثمان باشا) عظيم إعجابه بدفاعه عن (بلقنه) وقال له ان هذا الدفاع يعد من الاعمال الحربية النادرة المثل في تاريخ البشر

وبالجملة فلم تنتصر روسيا على تركيا في هذه الحرب الا بالدسائس العديدة التي دسها ضدها في البوسنة والهرسك وفي بلاد البلقان . فقد رأى القاري ان الدولة العلية اضطرت اني تقع ثورة عظيمة في البوسنة والهرسك ومحاربة الصرب والجبل الاسود وقمع ثورة بلغاريا مما أراق دماء كثيرة من دماء العثمانيين وأمات أبطالا من جنود الدولة وحملها الاموال والمصاريف الطائلة ومع ان الثورة في البوسنة والهرسك وبلغاريا والحرب مع صربيا والجبل الاسود أضعفت جيوش الدولة فان هذه الجيوش القليلة حاربت روسيا بكل قوة وشهامة وانتصرت عليها في مواضع مختلفة . ولم تحارب روسيا تركيا بجيوشها وحدها بل استعانت برومانيا التي قدمت لها نحو المائة ألف مقاتل . ولو كانت روسيا حاربت تركيا من باديء الامر قبل أن تهيج البوسنة والهرسك وبلغاريا والصرب والجبل الاسود ضدها

لكانت انتصرت تركيا ولا محالة وخابت روسيا وهزمت شرهزيمة
 واذا اُضاف القارىء الى ما تقدم أن تركيا كانت تضع ثقتها في رجال
 من الدخلاء يعملون بأوامر الاجنبي ويعرضون بمصالح الدولة للدمار
 وانه كان بين قواد جيشها قائد روسي الاصل علم فضل تركيا في انتصارها
 على روسيا في بعض مواقع مهمة

ولا بد لنا من ان نذكر للقاريء أيضاً ان جنود الجبل الاسود كانت
 تما كس جنود الدولة أثناء الحرب وان الصرب انضم جيشها لجيش
 روسيا بعد سقوط (بلقنه) . فكانت الدولة العلية بذلك مشغولة من كل
 جانب برد الاعداء عن ديارها ولم يكن لها نصير ينصرها على اعدائها
 بل كانت وحدها امام اعداء عديدين وكان اعداءها على محض قوتها

*
*
*

ظالما ادعى اعداء الدولة العلية انها اذا فتحت بلاداً اشترت فيها الجنودها
 راية السلب والنهب والقتك بأهلها واذا مرت بأرض خربتها وغيرت
 معالمها . فليقرأ المنصفون ماعمله الروسيون وصنائعهم البلغاريون في هذه
 الحرب مع المسلمين الابرياء الذين لم يكن لديهم أسلحة يدافعون بها عن
 أنفسهم بل كانوا آمنين مطمئنين يحسبون الحرب بشرية انسانية لاهيمية
 بربرية

وقد أتى السير اشמיד برتلت في كتابه الحديث (مواقع تساليا) على
 تاريخ كثير من هذه الفظائع . وانا نذكر للقراء الكرام شيئا منها :
 لما عبر الجنرال سكوييف نهر شيكا في يناير سنة ١٨٧٧ وجد معسكرا

يحتوي على مائة ألف من نساء الاتراك نازلا بقرب هرمني فلم يكن
من جنوده سوى انهم فتكوا بهن وطردوهن امامهم على تلوج نهر
ميرزا الى جبال رودب حتى مات أكثرهن من البرد والجوع

وانا نستشهد على هذه المعاملات البربرية واعتداء الروسيين والبلغاريين
على الابرياء من المسلمين بما جاء في جريدة الدالي نيوز وقد كانت اذذاك
متصرة للروسيا. في عدد ٨ فبراير سنة ١٨٧٨ جاء فيها بالحرف الواحد :

ادريا نوبل في ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ لمكاتبنا في الحرب

« ان المسافة التي بين (فيلورپوليس) و(هرمني) تبلغ سبعين ميلا قد
كانت بالامس مرتعا لآلاف من العائلات واليوم أصبحت قاعا صنفنا
خاوية على عروشها ليس بها سوى جيف الموتى وعظام القتلى وبقايا
المذبوحين . فتحولت نضارتها السابقة الى منظر مخيف وأطلال دوارس
وذلك نتيجة ما حصل من الفظائع المنكرة التي تقشع من هولها الابدان .
ولا يمكن لاي انسان أن يتصور معها اجتهد ان يحاول تلك الاهوال التي
وقعت في تلك البقعة والحالة التي وصلت اليها »

وكتب هذا الكاتب نفسه :

« بينما نحن نسير من (فيلورپوليس) كنا نرى جثث الفلاحين مغطاة
بالثلوج ولا شك ان بعضها قد لبث على هذه الحالة الشنيعة المحزنة
أسبوعين أو ثلاثة ولم تزل آثار الدماء على ملابس بعضهم . وهكذا كنا
نسير بين رمم القتلى وآثار الحيام والارض حولنا مغطاة بالجثث وبقايا
المسكرات كما تعطي بالبسط والقرش وكنا نخرق صفوفنا من جثث القتلى

ورمم الحيوانات مسافة لا تقل عن خمسة وثلاثين ميلا . فرأينا نساء ملقاة في الثلوج وأولادا وأطفالا مرماة في البرك ورجالا ممزقة أجسادهم مما أصابهم من الجراحات القتالة . ورأينا الثلج محمرا من أثر الدماء المنهطة وأظن ان أغلب النساء متن من البرد القارص لان نضارة الحياة كانت بادية على وجوههن فكأنهن نيام للراحة من عناء هذا العالم ومعاملة أهله البربرية باسم المدنية

اما الرجال فكنت تراهم واحدا بجانب الآخر تظهر عليهم علامم العظمة حتى مع الموت وذقونهم ملوثة بدمائهم وأيديهم موضوعة على صدورهم كأنما هم يحافظون على قلوبهم الشريفة من ان تدوسها اعداؤهم باقدام الخيل

اما الاطفال والاولاد فهم كالنساء مات أغلبهم من شدة البرد القارص والثلوج المترامية . فكنت ترى أوجههم لطيفة بعضها باد وبعضها مغطى بالثلج وكانت تلوح عليهم نضارة الطفولية وتظهر عليهم الطهارة والبراءة التامة كأنما هم نائمون نوما طبيعيا أو كأنما جعلت من الثلوج الناصعة البياض سرايرهم وأيديهم الناعمة البيضاء بارزة من المياه الذائبة

ولا أشك ان أمهاتهم لما رأينهم أمواتا على صدورهن من شدة البرد وان لا أمل في عودتهم للحياة رمينهم في الثلوج ليخففن حملهن وفارقن حشاشات أكبادهن بالرغم عنهن والدموع تسيل من عيونهن حتى اذا أدركت الحدود تحولت بردا من شدة الزمهير

« واني لم أشعر بياس زائد وبلاء عظيم في حياتي الا عند ما رأيت بعيني

الفضائع والمصائب التي حلت على بني الانسان . فلقد رأيت امرأة تسير بجانب طفلة تناهز العاشرة من عمرها وهما تجدان في المسير فراراً من معاملة الروسيين وقساوتهم البربرية ولكن الابنة لم تقو على المشي لان أقدامها العارية تعبت غاية التعب من المسير على الثلج فسقطت ميتة بين أيدي أمها الخنونة ولقد داهم الام الليل بظلامه الحالك وبرده القاتك فسقطت طريحة بجانب ابنتها

وان الطريق الي (هاسكيوي) مملوأة بجثث عديدة وكلما مررنا على قرية رأيناها خاوية على عروشها ليس بها الا بقايا المذبوحين والمقتولين ولقد سألنا بعض البلغاريين : من قتل هؤلاء ؟ فأجابونا بصوت الشامت المسرور : انا ونصراءنا قتلناهم شر قتلة .

أما في هاسكيوي فكنت تري كثيرا من الجنود التركية مقتولين وفضلا عما أصابهم من الجراح القاتلة فان فلاحى البلغار لم يشفقوا عليهم بل رجوهم بالحجارة ليفنوا عظام هؤلاء الشهداء الابطال

ولقد سألت احدي العائلات التركية من أين جاءت والي أين تسير؟ فقالت لي انها تركت { بلقنه } من خمسة شهور مضت وهي على مثل حالها من الفقر المدقع تسير ليلا ونهاراً لا غذاء لديها سوى ما تجده من لحوم الحيوانات التي تموت في الطرق وكانت هذه العائلة مكونة من أب وأم على صدرها طفل صغير وولد يبلغ العاشرة من العمر وكلهم حفاة عمراة الارض فراشهم والسما غطاؤهم وليس لديهم سوى بعض خرق يسترون بها سواهم وقدرة يطبخون فيها اللحم

وكلما سرنا خطوة بعد (هاسكيوي) رأينا مناظر أشجع وأفزع فكم رأينا امرأة وزوجها مقتولين نائمين بجانب بعضهما وطفلين بقربهما على الثلوج وشيوخا متكسرة جماجمهم وكل هذا فضلا عن خراب القرى وسلب ونهب ما لاصحابها من الخيرات والاشياء النافعة . ومن المناظر التي تولد الحسرة وتحزن القواد أنني رأيت شيخا هراماً من الترك ملتي على الارض وبجانبه مصحف قرآن شريف مفتوحا وملونا بدمائه وذلك بينما كان البلغاريون يسلبون الناس أموالهم ويحملونها على عرבותهم ثم يجرونها فوق جثث القتلى لتدهس العجلات لحومهم وتقتت عظامهم وتهمش جماجمهم بلا رحمة ولا شفقة بل وبلا تأثر لمثل تلك المناظر البشعة الفظيعة

فأين المدينة وأين حب الانسانية ؟؟؟

واني أقول ان عدد الذين فتك بهم البلغاريون من الابرياء الآمنين كثير جداً وقد ترك بيوتهم نحو الخمسة وسبعين ألفا هروبا من المعاملة القاسية البربرية ولكنهم لا يكادون يفرون من القتل حتى ينقض عليهم البلغاريون ويفتكون بأغلبهم . ولم يهرب الا القليل الى بلاد الترك وانه ليحق للعالم ان يسمي الطريق بين فيلويوبوليس وهرمني (طريق الموتى) لكثرة ما فقد فيه من الارواح البريئة

ولقد رأينا في طريقنا الى قسطنطينية من أمثال هذه المناظر الفظيعة كثيرا وكم رأينا أناسا من الضعفاء يسرون سريعا لا يلتفتون وراءهم خوفا من أعدائهم واذا سأتهم الى أين يسرون لم يجيبوك من شدة ضعفهم واتهاك قواهم كأنما هم لا يعرفون الى أي طريق هم سائرون . وانما

غاية ما يتصورون انه يجب عليهم الفرار حتى يأمنوا على ارواحهم ومن شدة
فزعهم وهلعهم كانوا يتركون أمتعتهم حين تكسر لهم عربة ويفرون
وحدهم

وانى بينما اكتب هذه الاسطر أرى امام عيني كثير من العربات تعدو
باصحابها بين هضاب مستراكمة من الثلج وأغلب النساء يسرن حفاة
عراة خائرات القوى من الضعف والتعب

ولذلك ضوضاء يصحبها صراخ الاطفال وعويل الاولاد وبكاء النساء
وزفرفة العواصف وقرقة عجلات العربات مما يزيد المنظر فظاعة وبشاعة
ومع الاسف الزائد ان هؤلاء المساكين التمساء يروحون فريسة الظلم
وليس من يرحمهم أو يشفق عليهم

وقد كتب مكاتب الستندرد الذي سار مع الدوق نقولا وواجب الجزء
الشمالى من بحيث جزيرة البلقان مانصه

دلم أترك لنفسي مجالاً للتكلم عن كبار القضاة كما يجب ان نسميها
وأقول الآن ان المتوحشين لا يفعلون مع القارين الهاربين كما فعل
البلغارىون مع جيرانهم الأتراك من المساواة البربرية والمعاملة الوحشية
وما حمل هؤلاء المسيحيين على فعل هذه المنكرات سوى حب نفوسهم
الجثيمة للفتك بعباد الله وطمعها الى شرب دماء جيرانهم الأبرياء الذين
لا سلاح بأيديهم. ولقد سمع تابع لى رجلاً بلغارياً فى إحدى حوانيت
الخمير فى (سيستوف) يقول وهو حامل سكينه هائلة كنت أحمل معى بندقية
ولكن هذه السكينه اللطيفة أفادتى أكثر من البندقية لاني ذبحت بها

عشرة منهم كما تذبح الاغنام ، ولمعمرى ان مثل هذا التعبير لا يضارعه مثيل في القسوة والفظاعة البيمية واني لأشك أنهم قتلوا الضعفاء الارباء وذبحوهم كما تذبح الاغنام . ولقد مضى شهران على الروسيين وهم مقيمون ومع ذلك لم يسمع ان تركيا أساء الي أحد المسيحيين . ومما يحكى ان ضابطا روسيا اشترى من أحد الفلاحين المسيحيين ذيكين روميين بمبلغ نصف شلن ثم سأل الفلاح قائلا « أليس الناس في سرور لمقابلة اخوانهم المسيحيين » فأجابه « فلننظر حتى نرى ان كنتم تعاملونا كما كان يعاملنا الاتراك بالحسنى »

وقد سأل المستر ادموند قنصل انكرا في (فيلوفوبوليس) خليل أوغلي حسين ومصطفى أوغلي عبدالله وسليمان أوغلي رشيد وهم من سكان (بالفان) التي تبعد بمسافة سير ثلاث ساعات من ترنافو عما يجري لهم من الاهدانات فأجابوا بما يأتي

« في صباح السبت الماضي (٧ يوليو) وصل الأيان من الكوسا كز الي قرية (بالفان) نخرج كبارها حين سمعوا بوصول الروسيين لمقابلة قوادها ولكن الكوسا كز حاصروا القرية وطلبوا من السكان تسليم أسلحتهم وفي اليوم الثاني حضر الأيان آخران من الكوسا كز وأحاطوا كاخوانهم بالقرية وكان يصحبهم في هذه المرة عدد لا يقل عن الفين أو ثلاثة آلاف من البلغاريين الذين يسكنون القرى المجاورة وجميعهم متقلدون بالنبايت والسكاكين والبنادق والسيوف المختلفة الاجناس فابتدأ هؤلاء الاوغاد في طرد أهل القرية وحيواناتهم ونهب الناس

وسلبهم من كل شيء يستحق الاخذ ثم أشعلوا النار في القرية في أما كن
عديدة وكما حاول أحد الخروج من لظى النار ولا سيما الاطفال والنساء
حملوا عليه وزجوه فيها

أما الكوسا كز فانهم وقفوا بعيداً على شكل كوردون حول القرية
غير متألين مما يجري امام أعينهم بل كانت علامتهم السرور بادية على وجوههم
ولولا اننا (خليل أوغلي ومن معه) هجمنا على الكوردون بقساوب
شجعها اليأس وقطعناه في طرف القرية ما تمكنا من الفرار من لهيب النار «
وكان المتكلم هو خليل أوغلي المذكور ولقد استمر في حديثه وعلامات
الحزن والاسف بادية على وجهه ولكنه حيناً أراد أن يتكلم عما حصل
لعائلته بكى بكاءً مراراً وصار يتنهد كما تنهد الثكلى ثم خنقته للعبارة فلم يقدر
على الكلام وبعد مدة طويلة أمكنه أن يعبر لنا عما حصل لاختيه اللتين
كان يعتني بأمرهما لان زوجيهما كانا في الجيش وقال لنا انه رأى بعينه عائلته
وقد كانت تزيد عن احدى عشرة نسمة ترمى في النار واحداً بعد واحد . »

ولما عبر الروسيون نهر الدانوب سنة ١٨٧٧ قبضوا على نساء الاتراك
وأطفالهم الذين كانوا يحاولون الهروب من وجه أعدائهم وأحضرهم
الى مدينة شمالاً بحالة تذيب الافئدة وتقطع الاكبدة وهناك رآهم
بعض مكاتبى الجرائد الاوربية فكتبوا قراراً بهذا الشأن وأمضوا عليه
ولقد أرسل وزير خارجية الدولة العلية هذا القرار الى السفارة العثمانية

في باريس بتاريخ ٢١ يوليو سنة ١٨٧٧ قائلاً

(اني أرسل اليكم القرار الآتي باجماع وامضات مكاتبى الجرائد

الاجنبية الآتية وهي

(كولو نيا غازت) (جرنال الديبا) (نيوفراى برسيه) (مستندارد)
 (دابلي تلغراف) (اللستراندلندن نيوز) (مانشستر جارديان) (التيمس)
 (فرانكفورتر زايتمج) (مورنن بوست) (ريبيليك فرانسز) (بسترلويد)
 { فاينر تاجبلاط } { مورنن ادفريس } (سكو تمان) (نيويورك هرالد)
 و { منشستر اكزامنر } . والقرار هو الآتي :

المضون أدناه الذين يمثلون الصحافة الاوربية والمجتمعون في مدينة
 شمالا يرون ان من واجباتهم ان يمشوا الرسائل التي أرسلها كل واحد
 منهم الي جريدته عن القسوة البربرية التي ارتكبها ويرتكبها البلغار يون
 ضد السكان المسلمين الابرياء وأن يشهد كل منا اننا رأينا بأعيننا جراح النساء
 والشيوخ والاطفال وسألنا في مدينتي راسجرار وشمالا النساء والاطفال
 والشيوخ عما حل بهم من الجراحات العنيفة بالسيوف والحرا بفضلا
 عن البنادق التي ربما ظن أنها أصابهم أثناء اشتعال نار الحرب .

ويستدل من أجوبتهم ان ما حل بهم هو من معاملة الرو-يين
 والبلغاريين ويستنتج من كلامهم أيضا ان معظم سكان القرى من المسلمين
 ذبحوا كما تذبح الاغنام . ونحن المضون أدناه نقر ان أغلب الجرحى من
 النساء والاطفال «
 الامضات

وكتب مكاتب التيمس - وقد صحب هذا المكاتب الجنرال جوركو
 ورأى بعينه ما حل بالاتراك الابرياء - من معسكر جنوب البلقان في
 ١٢ يوليو سنة ١٨٧٧ ما يأتي

« ان هذه الحرب ليست من الحروب الانسانية بل هي هول على هول وفظائع على فظائع لان الجندي الروسي يرى التركي كحيوان يجتهد في صيده ليقتله وأما البلغاري فكيفما تمكن من القتل قتل . وهذا هو البرنس ويتشتنستين يقول ان البلغاريين يقتلون جرحي الاتراك ويسلبون القتلى أموالهم . فماذا يعمل الانسان ذو العواطف الحية حينما يرى اخوانه يخمسون لشرب الدماء عند ما يسمعون انه قبض على أسرى من الاتراك ؟ أم كيف يتسنى للابطال ان ينظروا بعين الرضي رجالا يلوثون انتصارهم بما يرتكبونه من منكرات الفظائع والمذابح ؟ ؟ ؟ »

*
* *

لما رأت الدولة العلية ان أوروبا كلها ضدها وأن لانصير لها بين الدول وان اطالة الحرب مضرة بها طلبت من روسيا ايقاف الحرب وعقد هدنة للمخابرة في شروط الصلح فقبلت روسيا ذلك بغاية الامتنان وعقدت الهدنة بين المتحاربين في (أدرنه) بتاريخ ٣٠ يناير عام ١٨٧٨ واشترطت روسيا عند عقد الهدنة ان القواعد الاولية للصلح يجب أن تكون استقلال الصرب ورومانيا وتنازل الدولة العلية لهما وللجبل الاسود عن بعض الاراضي وجعل بلغاريا مستقلة استقلالاً ادارياً وجعل الادارة في البوسنة والمهرسك مستقلة وتقدير غرامة حربية تدفعها تركيا للروسيا

وما انتشر خبر هذه الاتفاقية التي عقدت في أدرنه بين المتحاربين حتى هاجت الخواطر في النمسا ضد روسيا ورأت حكومة الامبراطور

(فرانسوا جوزيف) ان هذه الشروط التي جبرت روسيا الدولة العلية على قبولها ماسة بمحقوقها وبمصالحها في البلقان وعلى شواطئ نهر الدانوب فأعلنت الدول الاوربية بانها تعتبر كل اتفاق يقع بين المتحاربين لاغلاعمل له وان أوروبا كلها يجب عليها أن تجتمع في مؤتمر للفصل بين تركيا وروسيا

أما انكترا فقد أظهرت عندئذ ميلها للدولة العلية وتظاهرت بالحجة والمصادقة لملك آل عثمان وأرسلت بأسطولها الى مياه البوسفور وهددت روسيا بانزال العساكر الانكليزية الى الاستانة . وسيري القارىء الى أى غاية كانت ترمى انكترا عندئذ وهل كانت صادقة في تظاهرها بالموودة للدولة العلية أو غير صادقة

وقد أجابت الحكومة الروسية على اعلان النمسا بأن ليس لأوروبا حق في ان تتداخل في أمور لاتمس مصالحها مطلقا وان روسيا تعرض على الدول عقد مؤتمر أوروبى للنظر في شروط الصلح . فوافق البرنس « بهمارك » على جواب روسيا وعرض على الدول عقد مؤتمر ببرلين وفي هذا الاثناء كان الجنرال « إغناطييف » يتخبر مع مندوبى تركيا في شروط الصلح وفي ٣ مارس أمضى معهم عهدة بسان اسطفانوس هي اكبر المعاهدات ضررا بالدولة العلية . فهي تتضمن جعل بلاد الجبل الاسود مستقلة تمام الاستقلال من الدولة العلية مع توسيع نطاقها واعطائها ثغرين على البحر الادرياتيكي وتتضمن جعل بلاد رومانيا مستقلة تمام الاستقلال وجعل بلاد الصرب مستقلة مع اضافة أراضى (نيش) الى بلادها

وتتضمن جعل بلاد البلغار مستقلة استقلالاً نوعياً وتعيين حاكم روسي لها
 ينظمها ويحكمها لمدة سنتين يكون لها بعدها الحق في انتخاب أمير عليها
 وتتضمن العهدة كذلك احتلال العساكر الروسية لبلاد البلغار مدة سنتين
 وهدم كل القلاع والحصون الموجودة على نهر الدانوب (الطونة) وجعل
 الملاحة في نهر الدانوب حرة . وتتضمن العهدة أيضاً ان الادارة في البوسنة
 والمهرسك تكون موافقة لما طلبته الدول في مجتمع الاستانة وتوضع تحت
 مراقبة روسيا والنمسا وأن أرمينيا تمنح بعض امتيازات وبعض حقوق
 جديدة وان جلالة السلطان يصدر عفواً عاماً عن الثوار والمجرمين السياسيين .
 وتتضمن العهدة غير ذلك ان الدولة العلية تدفع للروسيا غرامة حربية
 قدرها ١٤٠٠ مليوناً من الروبل . وقدرضيت الروسيا بأن تنازل للدولة
 عن مبلغ ١١٠٠ مليوناً من الروبل مقابل تنازل الدولة لها عن باطوم
 وأردهان وقارص وبايزيد في آسيا وعن اقليم (الدبروج) في أوروبا . وهذا
 الاقليم أضيف الى مملكة رومانيا مقابل استيلاء الروسيا على اقليم { بسارابيا }
 الذي سلخ منها في عام ١٨٥٦

وتشتمل العهدة على تمهد الدولة العلية برعاية الرعايا الروسيين في بلادها
 ووضع حقوق القسوس الارثوذكس تحت حماية القيصر واعادة تنفيذ
 المعاهدات التجارية التي كانت بين الروسيا وتركيا قبل الحرب وفتح
 بوغازي الدردانيل والبوسفور في كل وقت للسفن التجارية
 وما علمت الدول الاوروبية بهذه العهدة حتى اعترف سواها بان
 الروسيا اعتدت على حقوق الدولة العلية شر اعتداء وان دول أوروبا تفقد

موازنتها ويضيع بالمرّة التوازن العام اذا أنفذت شروط عهدة سان اسطفانوس . وكانت أشد الدول تهيجا ضد روسيا هي النمسا التي خدعت في اتفقيتها التي عقدها مع روسيا في يناير عام ١٨٧٧ فخبرت انكلترا واتفقت معها على معارضة روسيا كل المعارضة وطلبتا منها عرض عهدة سان اسطفانوس للمناقشة بين مندوبي الدول في المؤتمر المزمع عقده فاجاب القيصر في ٢٦ مارس سنة ١٨٧٨ بانه لا يرضي بأن دول أوروبا تتناقش في الشروط التي لا تخص الا روسيا وتركيا . وقد أمل القيصر عندئذ الاتفاق مع النمسا فأرسل الى فيينا الجنرال (اغناطييف) ولكن الاتفاق كان مستحيلا لتباين أميال روسيا والنمسا

وقد استفادت انكلترا من خيبة الجنرال (اغناطييف) في مأموريته بفيينا واعتمدت على مساعدة النمسا لها ضد روسيا وأعلن اللورد سالسبوري وزير الخارجية الانكليزية وقتئذ أن عهدة سان اسطفانوس تجعل البحر الاسود تحت سلطة روسيا ورحمتها وتهدد استقلال الدولة العلية وسلامتها وتضر بمصالح انكلترا . أي أن انكلترا أرادت ان تسمع روسيا انها اذا صممت على تنفيذ عهدة سان اسطفانوس قامت الحرب بينهما . وكان القابض في الحقيقة على مفاتيح السلم والحرب حينئذ هو لبرنس (بسمارك) لان المانيا كانت بين الدول في موقف الحكم فانها اذا كانت انضمت الى روسيا كانت اضطرت النمسا الى العدول عن محاربة روسيا وبذلك كانت فشلت انكلترا وبلغت روسيا مرامها واذا كانت وقفت على الحيادة بدون ان تساعد روسيا وتركها امام انكلترا والنمسا كانت خسرت روسيا

أهم مكاسبها في عهدة اسطفانوس . وقد سألت روسيا المانيا مساعدتها
مذكرة أياها برعايتها لها ضد النمسا في عام ١٨٦٦ ومساعدتها لها ضد فرنسا
في عام ١٨٧٠ حيث منعت النمسا من مساعدة فرنسا . ولكن البرنس {سمارك}
أبى مساعدة روسيا بجنود المانيا معتذرا بان المانيا في حاجة مستمرة لمراقبة
فرنسا والاستعداد لمحاربتها فاغتاز قيصر روسيا واغتاز سواس روسيا
أشد الغيظ من ألمانيا ووزيرها وابتدأت العداوة الكامنة بين الدولتين
من ذلك الحين في الظهور

ولما رأت روسيا انه لا استطاعة لها على محاربة النمسا وانكثرتا بعد
محاربتها لتركيا طلبت من الوزارة الانكليزية أن تعرفها عن التغييرات
التي تريد اجراءها في عهدة سان اسطفانوس وجرت المخابرات في ذلك
بين اللورد سالسبوري وبين الكونت «شوفالوف» سفير روسيا
بلوندره . وفي ٣٠ مايو عام ١٨٧٨ امضيا على اتفاقية سرية تتضمن
التغييرات التي طرأت على عهدة سان اسطفانوس . ولم يكن لهذه التغييرات
الجديدة التي أحدثتها الوزارة الانكليزية في عهدة اسطفانوس أهمية لان
المؤتمر الدولي كان من شأنه أن ينظر في كل شروط الصلح وان يقرر ما ينفق
عليه فيه بالاغلبية

أما فرنسا فقد كانت خطتها في المسئلة من باديء الامر خطة الدولة الراغبة
في السلام العديمة الاطماع في أخذ شيء من أملاك الدولة العلية . ولما
عرضت عليها الدول الاوروبية الاشتراك معها في مؤتمر يعقد للفصل النهائي
بين تركيا وروسيا اشترطت على الدول . أولا اشتراك كل الدول التي أمضت

على معاهدة باريس عام ١٨٥٦ في هذا المؤتمر . ثانيا أن لا ينظر في هذا المؤتمر الا في المسائل المختصة بالحرب بين تركيا والروسيا . ثالثا أن لا يبحث أعضاء المؤتمر في شؤون مصر والشام وأن لا يتناقش أحد في المؤتمر في حقوق فرنسا على الاماكن المقدسة . فقبلت الدول كلها هذه الشروط ورضيت بذلك فرنسا أن تشترك معها في المؤتمر

وقد ظهر للقارىء مما سبق ان انكسرت كانت متظاهرة بالمودة للدولة العلية وكانت تهدد روسيا بأعلى صوت ولسان ولم يكن قصدها من ذلك خدمة تركيا أو مساعدتها بل التعرير بها وخدعها . فانها وعدتها بالمساعدة في مؤتمر برلين ضد روسيا وعرضت عليها عقد اتحاد معها تعهد فيه انكسرت بالدفاع عن تركيا اذا مستها روسيا بسوء — ولو كانت انكسرت صادقة في مودتها لكانت تحالفت مع الدولة العلية قبل الحرب — وتأخذ منها مقابل ذلك جزيرة قبرص فأنخدع رجال الدولة العلية لسواس بريطانيا وأحسنوا الظن بهم وعقدوا معهم هذه المعاهدة في ٤ يونيو عام ١٨٧٨ أى قبل عقد مؤتمر برلين بأيام قلائل وبذلك فقدت الدولة العلية جزيرة قبرص بدون أن تكسبها المودة الانكليزية الكاذبة أقل فائدة

*
* *

وقد دعى البرنس بسمارك رسميا في ٣ يونيو عام ١٨٧٨ مندوبى الدول الاوروبية للاجتماع ببرلين فحضر المندوبون وعقدت الجلسة الاولى للمؤتمر في ١٣ يونيو . وكان أهم مندوبى المانيا البرنس (بسمارك)

وأهم مندوبي النمسا الكونت (اندراشي) وأهم مندوبي فرنسا مسيو (وادنجتون) وأهم مندوبي انكلترا الكونت { دي بيكونسفيلد } والمركيز { دي سالسبوري } وأهم مندوبي ايطاليا الكونت (كورتى) . وكان مندوبو روسيا البرنس { غورتشا كوف } والكونت { شوفالوف } والبارون { دوبريل } . أما مندوبو الدولة العلية فكانوا { قره تيودورى باشا } و { محمد على باشا } الروسى الاصل و { سعد الله بك }

وقد أرسلت حكومة اليونان مندوبين من قبلها لعرض مطالب اليونان على المؤتمر وكان مندوبو انكلترا مساعدين لهم كل المساعدة فطلبوا من المؤتمر قبولهم لسماع أقوالهم . وكان قصد مندوبي انكلترا من هذه المساعدة معاكسة روسيا التى يسوءها تقوية العنصر اليونانى لما فى ذلك من الضرر بالعنصر السلافى . وكان مندوبي انكلترا كانوا يجهلون ان مساعدتهم لليونان تضر بالدولة العلية أكثر من ضررها بالروسيا . ولكن مصالح الدولة العلية كانت لاتهمهم مطلقا بعد ان تحققت أمنيتهم بالاستيلاء على (قبرص) ؛

وكانت تنحصر مطالب اليونان فى اظهار ضرورة استيلائها على تساليا وأيبرا وألبانيا وكريت . وقد قرر المؤتمر قبول مندوبى اليونان فى آخر جلسات المؤتمر وسماع مطالبهم

وأول مناقشة دارت بين أعضاء المؤتمر كانت على مسألة بلغاريا واستغرقت أربع جلسات . وقد انتهت المناقشة باتفاق أعضاء المؤتمر — بالرغم عن معارضة مندوبى روسيا — على جعل مساحة بلغاريا أقل

بكثير مما اتفقت عليه روسيا مع الدولة العلية في سان اسطفانوس
بجعل حدودها عند جبال البلقان واعطائها (صوفيا) كعاصمة لها مع بعض
الاراضي في جنوب البلقان. وقرر المؤتمر بذلك جعل مساحتها ٦٤٠٠٠ كيلو
مترا مربعا بعد أن كانت في اتفاقية سان اسطفانوس ١٦٣٠٠٠ كيلومترا
مربعا. وصار عدد سكانها مليوناً ونصف مليون بعد أن كان في عهدة
اسطفانوس أربعة ملايين. وبذلك بقيت سواحل الارخبيل في أيدي
الدولة العلية خلافاً لشروط عهدة اسطفانوس. وقرر المؤتمر جعل احتلال
الجورد الروسية لبلاد بلغاريا لمدة تسعة أشهر فقط لالستين كما قرره عهدة
اسطفانوس وجعل تنظيم بلغاريا تحت مراقبة لجنة دولية لا تحت مراقبة
مندوب روسي

وقرر المؤتمر كذلك انشاء ولاية جديدة في جنوب البلقان بين
مقدونيا وأدرنه تكون عاصمتها مدينة { فيليوبوليس } وتسمى بالروملي
الشرقي وتكون ادارتها الداخلية مستقلة وأن لا يجوز للجنود العثمانية ان تقيم
في داخلها بل يكون لها الحق فقط في الدفاع عن حدودها. ولم يرش أعضاء
مؤتمر برلين تسمية الروملي الشرقي ببلغاريا الجنوبية ولكنهم كانوا يرمون
ولا محالة الى ضم هذه الولاية الجديدة الى بلغاريا بعد زمن قليل
من عام ١٨٧٨

ولمادارت المناقشة بشأن (البوسنة والهرسك) قام الكونت {اندراشي}
مندوب النمسا وقرأ تقريراً طويلاً بان فيه أن بقاء هاتين المقاطعتين تحت يد
الدولة العلية أي تحت حكم المسلمين يكون سبباً لاستمرار الاضطرابات

والثورات فيهما وأظهر ما في ذلك من الضرر بمصالح الدولة النمساوية وما انتهى من كلامه حتى وقف الماركيز (سالسبورى) وأيد أقواله وسأل المؤتمر تقرير احتلال الجنود النمساوية لمقاطعتي البوسنة والمهرسك احتلالاً لا أجل له . وهكذا ساعدت انكثرتا الدولة العلية وبرهنت لها على صدق اخلاصها وقد احتج مندوبو تركيا على هذا السؤال الغريب فأجابهم البرنس بسمارك - الذى كان الموعز للكونت (اندراشي) وللماركيز { سالسبورى } بما طلباه - بأن الغرض من مؤتمر برلين ليس رعاية المصالح العثمانية بل رعاية مصالح أوروبا والمدنية وقد اتفق مندوبو المؤتمر بالأغلبية على جعل البوسنة والمهرسك تحت حكم النمسا واعطاهما حق احتلال اقليم « نوفي بازار » . وهو اقليم على طريق سالونيك .

وبعد ذلك نظر المؤتمر في مسألة الصرب والجبل الاسود فأعلن استقلالهما أمام الاستقلال وقرر اعطاءهما بعض الاراضي لتوسيع نطاقهما ولكن أقل مما قرره عهدة اسطمانوس . وفي ذلك الوقت قرر المؤتمر سماع مطالب اليونان فدخل المسيو « ديلانيس » والمسيو « رانجابه » وقرأ الاول مطالب حكومته وهي تشمل على اعطاء اليونان البانيا وأيبرا وتساليا وكريت . فاتفق أعضاء المؤتمر على تقرير جعل المناقشة في مطالب اليونان بين اليونان والدولة العلية نفسها وعلى انه اذا لم يحصل الاتفاق بين الحكومتين على تحديد حدود جديدة بينهما يعرض الامر عندئذ على الدول الأوروبية وأقروا على تنظيم المقاطعات اليونانية الباقية تحت حكم الدولة العلية على نسق الروملي الشرقى وجعل تنظيمها تحت مراقبة اللجنة الدولية

ولما جاءت مسألة رومانيا أعلن المؤتمر استقلال هذه البلاد
 كصربيا والجلب الاسود وقرر المساواة التامة بين كل أهاليها على اختلاف
 دياناتهم . وهذا القرار جاء مفيدا جدا لليهود الذين أساءت اليهم حكومة
 رومانيا في معاملاتها معهم وأساء اليهم أهلوها كل الاساءة . وقد سمع
 المؤتمر مندوبي رومانيا « المسيو براينو والمسيو كوجوليسانو » كما سمع
 مندوبي اليونان . فطلبوا منه عدم تقرير رسلخ أى جزء من أراضى رومانيا وعدم
 مرور الجنود الروسية فى بلادهم وان يقرر أن الروسية تدفع غرامة لرومانيا
 مقابل ما تكبدته من الخسائر أثناء الحرب . ولكن المؤتمر لم يستطع قبول
 هذه الطلبات لما فيها من المساس بمصالح روسيا واكتفى بتقرير اعطاء
 رومانيا ألفى كيلومتر مربع فى اقليم الدبروجه

وقد نظر المؤتمر بعد ما تقدم فى مسألة الملاحة فى نهر الطونة فقرر
 بقاءها على ما كانت عليه قبل الحرب ومنح النمسا بعض امتيازات . وقرر
 المؤتمر فى مسألة الغرامة الحربية عدم جواز استبدالها بأراض أو بلاد
 عثمانية واعتبار روسيا آخر دائن لتركيا أى انه لا يجوز لها أن تتقدم فى
 المطالبة بالغرامة الحربية قبل الدائنين السابقين لتركيا

أما ما يتعلق بالمسيحيين فى الدولة العلية فقد صرح مندوبو تركيا بأن
 دولتهم تحترم كل الديانات فى بلادها وتعامل رعاياها على السواء فقرر
 المؤتمر جعل المساواة فى الحقوق بين المسلمين والمسيحيين تامة وجعل
 المسيحيين فى بلاد الدولة العلية تحت حماية أوروبا المعنوية

ولم يبق أمام المؤتمر بعد المسائل السالفة الذكر الا مسألة استيلاء

الروسيا على بعض بلاد ومواقع في آسيا فتعهدت روسيا بالتنازل عن مدينة
(بايزيد) للدولة العلية مقابل تنازل الدولة عن مدينة « خوتور » للعجم
وتعهدت كذلك بعدم تحصين ثغر (باطوم) وجعله ثغراً حراً للتجارة . وقد
قرر المؤتمر أيضاً ان الاصلاحات المزمع اجرائها في أرمينيا تعرض على
الدول الاوروبية كافة وان حرية بوغازى البسفور والدرديانيل تبقى كما
قررتها معاهدة باريس عام ١٨٥٦ ومعاهدة لوندن عام ١٨٧١

ولما رأي مندوبو انكلترا ان أعمال المؤتمر قد انتهت وان الساعة
آذنت باعلان استيلاء دولتهم على جزيرة (قبرص) أعلن الكونت
(دي بيكونسفيلد) ذلك في ٨ يوليو عام ١٨٧٨ لاعضاء المؤتمر فاندش
مندوبو روسيا غاية الاندهاش وتحقق العالم كله ان انكلترا قد خدعت
الدولة العلية اكبر خدعة وانه خير لها ان تعتمد على أعدائها من ان تعتمد
على دولة الانكليز . ولم يندش البرنس (بسمارك) ولا الكونت
(اندراشي) من اعلان الكونت (دي بيكونسفيلد) استيلاء انكلترا على
قبرص لانهما كانا عالمين بالامر ولم يعارضاه تلميذ بيكونسفيلد بمساعدتهما
في تقرير استيلاء النمسا على (البوسنة والهرسك)

وقد طلب البرنس (غورتشاكوف) مندوب روسيا قبل انفضاض
المؤتمر تقرير الوسائل الفعالة التي تستطيع بهادول اوروبا اجبار تركيا على
تففيذ قرارات مؤتمر برلين واستمرت المناقشة في هذا الطلب ثلاثة أيام
ولكنها انتهت برفضه وخرج البرنس (غورتشاكوف) من مؤتمر برلين
منهزماً شر هزيمة سياسية

وفي يوم ١٣ يوليو عام ١٨٧٨ أمضى مندوبو المؤتمر على معاهدة برلين وانتهت بذلك جلسات المؤتمر

*
* *

لقد فقدت الدولة العلية في هذا الحرب ما لم تفقد مثله في حرب أخرى . ولم ير العالم من يوم تقسيم بولونيا واتحاد الدول ضد فرنسا عام ١٨١٥ اعتداء على حقوق مملكة مثل ما رأى عام ١٨٧٨ . فان دول أوروبا كلها كانت ضد الدولة العلية وكانت كل واحدة منها تعمل للاستيلاء على شئ من أملاكها . وما ضر الدولة العلية الا حسن ظنها بدولة انكلترا فانها عملت بنصائحها واتبعت آراءها ورفضت مطالب أوروبا في مؤتمر لاستانة مؤتملة مساعدة انكلترا لها وقت قيام الحرب . مع ان مطالب الدول في مؤتمر الاستانة كانت لا تعد شيئاً مذكورا اذا قورنت بقرارات الدول في مؤتمر برلين . ولو كانت الدولة العلية سمعت أصوات الذين كانوا ينادونها بان دولة انكلترا خداعة في ودها لا تعمل الا لمنفعتهم وتضحى كل مودة وكل صداقة في سبيل الوصول الى غاياتها لكانت نجت من المصائب الجسام التي أسقطت عليها بسبب الحرب وبعدها وان الانسان ليندهش غاية الاندهاش من ان الدولة العلية آمنت بالانكليز بعد انتهاء الحرب وبعدها خداعهم لها وأعطتهم (قبرص) مؤتملة مساعدتهم لها في مؤتمر برلين . بل ويزداد اندهاشه واستغرابه ويقف حيران عند ما يعلم أنه بقي للانكليز نفوذ عند الدولة وكلمة مسموعة بعد مؤتمر برلين نفسه . نعم ان نفوذ الانكليز في الاستانة لم يبق طويلا بعد مؤتمر

برلين ولكنهم استطاعوا ان يخذعوا الدولة بأقبح صفة وأسفل وسيلة
في مسألة مصر

ومن غرائب الامور ان السكونت (دي بيكو نسفيد) لم يخجل من
ان يقول امام البرلمان الانكليزي بعد عودته من مؤتمر برلين ان هذا
المؤتمر قوى سلطة الدولة العلية وأيد استقلالها وسلامتها
وعندى ان سبب وثوق الدولة العلية وقتئذ بانكلترا وانخداعها لها
هو ما كان للدخلاء فيها من السلطة والنفوذ ، وبعبارة أصرح وأجلي ان
سبب مصائب الدولة العلية هو انتشار الدخلاء في جسمها . فقد
رأى القارئ في خلال هذا الفصل ان رجلا روسي الأصل اسمه الحقيقي
(شارل دتروا) استطاع ان يصل الي رتبة قائد عثمانى وان يستلم زمام
الجنود العثمانية بدل البطل العثماني المشهور المرحوم (عبد الكريم باشا)
. نعم الأصل في اضمحلال الدولة العلية الدخلاء . وكيف تستطيع هذه
الدولة الارتقاء في المدنية والحضارة والتقدم الي الامام والانتصار على
خصومها ومصالحها بأيدي الدخلاء تدبر كيف يشاؤون وكما تقتضى الغايات
والاهواء فقد كانت مصالحها مسلمة في مؤتمر برلين الي (قره تيودوري
باشا) اليوناني { ومحمد علي باشا } أو (شارل دتروا) الروسي ؟؟؟

ولاريب ان اكبر عمل يقوم به جلالة السلطان الاعظم { عبد الحميد
خان } نحو الدولة والملة انما هو تطهير الدولة من الدخلاء والاعتماد في كل أمور
الدولة وفي الجيش قبل كل شيء على العثمانيين الحقيقيين . فكلم من عثمانى
وكم من مسلم كان يقضي الليل والنهار أيام الحرب العثمانية اليونانية قلتما

خائفًا وجود دخيل في الجيش يخونه ويعرض به للانزمام. ولكن (أدهم باشا) ورجاله برهنوا على أن الخليفة الأعظم معتمد في أمور الدولة على أبنائها الحقيقيين الصادقين وأن ليس المدخلاء اليوم من نفوذ في الدولة

رأى القارىء أن الحرب مع روسيا قامت في عام ١٨٧٧ بسبب بلاد البلقان . فكان من الواجب على أوروبا أن تجعل مرمى أنظارها تأييد الأمن والسلام في هذه البلاد وتوطيد أركان السكينة فيها ولكن قرارات مؤتمر برلين ولدت البغضاء والشحناء بين أمم البلقان وبين بعضها وأوجدت أسباب العداوة والكراهة المستمرة . فان رومانيا عادت روسيا وقلبت لها ظهر المحن بعد مؤتمر برلين لاعتداء هذه الدولة عليها وعدم اعترافها لها بالجبل على مساعدتها لها بالمال والرجال . واشتدت كذلك كراهة الصرب والجبل الأسود لمملكة النمسا بسبب استيلاء هذه المملكة على البوسنة والهرسك مع طموح أنظار كل من هاتين الامارتين الى الاستيلاء عليهما . وأخذت بلغاريا بعد مؤتمر برلين تستعد لضم الروملى الشرقي اليها وتكوين وحدتها بالرغم عن قرارات الدول ولو أدى ذلك الى الاضطراب والحرب . وأخذت اليونان كذلك تستعد للاستيلاء على تساليا وأبيرا ولو اضطرت الى استعمال القوة واشعال نيران الحرب . فصارت بذلك بلاد البلقان بعد مؤتمر برلين مضطربة الاحوال لاتعرف السلم ولا السلم يعرفها

وقد كانت روسيا تعمل لسلخ بلاد البلقان من الدولة العلية أملاً

منها في نشر سيطرتها عليها وتسييرها حسب أهولها ولكنها تحققت بعد مؤتمر برلين أنها أوجدت بنفسها أعداء لها في البلقان وأنه يستحيل عليها استخدام هذه البلاد الناشئة في سبيل أغراضها . وبلاد بلغاريا نفسها التي بذلت روسيا أقصى مجهوداتها في جعلها مستقلة وضم الرومالي الشرقي إليها اتبعت طويلا سياسة مخالفة لمقاصد روسيا حينما كان (ستامبولوف) قابضا على أزمة الوزارة البلغارية

ولقد كان الشأن الاول في حوادث هذه الازمة التي نحن بصدد هالبرنس (بسمارك) فانه هو الذي شجع روسيا في بادي الامر وهو الذي كان يرشد النمسا في سياستها وهو الذي كان له الصوت الأعلى والرأي الاول في مؤتمر برلين . وبالجملة هو الذي خلق أغلب البلايا التي نزلت بالدولة العلية في هذه الازمة الشديدة . وما كان عاملا للمصاحبة بلاده وخير وطنه شأن سائر عظماء الرجال ، فانه رأى في مبدأ الازمة أن روسيا طامعة في ضم أملاك تركيا إليها وحل المسئلة الشرقية باتباع الدولة العلية ورآها مؤملة مساعدة ألمانيا لها كفاة على رعايتها لها في عامي ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ضد النمسا وفرنسا . وسبق أننا بينا ان روسيا والمانيا والنمسا كانت متفقة اتفاقا ثلاثيا فأدرك البرنس (بسمارك) انه اذا وقف في وجه روسيا من بادي الامر وعارضها في أغراضها أمكن لهذه الدولة أن تتحد مع النمسا وان تضم اليهما فرنسا وتؤلف اتحادا ثلاثيا ضد المانيا . وكان من الامور البديهية عند البرنس (بسمارك) ان مصلحة المانيا تقضي عليها بالمحافظة على استقلال الدولة

العلية لتبقى الى الابد شغلا شاغلا للروسيا ومانعا حصينا امامها وسيدا قويا للمشاكل بينها وبين انكثرتا مما يمنع روسيا من الاعتداء على المانيا . فكانت مصلحة المانيا تحتم على البرنس (بسمارك) أن لا يقف أمام روسيا في بادئ الامر وان لا يساعدوا كل المساعدة ضد الدولة العلية . فلذلك شجع الروسي اعند ما قامت ثورة البوسنه والهرسك واضطربت الاحوال في البلقان . ولكنه رأى أن روسيا ستسخط عليه ولا محالة بعد انتهاء الحرب لعدم مساعدته لها حسب مرامها ووجد من صالح دولته ايجاد العداوة بين روسيا والنمسا والاتحاد مع هذه الدولة الاخيرة اتحادا يضمن لالمانيا السلام وعدم اعتداء روسيا عليها . فأخذ يحرص النمسا بكل الوسائل على الاهتمام بمسائل البلقان ومنافسة روسيا . ومن حسن حظه ان امبراطور النمسا كان ميالا للاستيلاء على بعض املاك تركيا لتوسيع نطاق مملكته التي استولت المانيا على مقاطعتين منها وانفصلت عنها ايطاليا تماما فوجدت نصائح { بسمارك } لدي سواس النمسا آذانا صاغية واستعدادا تاما لقبولها . وبذلك استطاع بسمارك ايجاد العداوة والبغضاء بين النمسا والروسيا

ولما انتهت الحرب وتحققت أفكار { بسمارك } وصار سواس روسيا وسواس النمسا على طرفي نقيض في الاميال والآراء ساعد رجل السياسة الالمانية دولة النمسا على الاستيلاء على البوسنه والهرسك حتي تقرر ذلك في مؤتمر برلين وازداد حقد روسيا على النمسا . ولم يمض زمن قليل بعد المؤتمر حتى اتحدت النمسا والمانيا وتم فوز (بسمارك) في سياسته الماهرة

وقد رأى (بسمارك) ان ما بين ايطاليا وفرنسا من الروابط المتينة والعلائق التاريخية ربما أدى الى عقد تحالف بين هاتين الدولتين يكون بانضمام روسيا اليه تحزبا دوليا ضد المانيا والنمسا وأن لا سلامة للتحالف الالمانى النمساوي الا بانضمام ايطاليا اليه فأوعز الى سواس فرنسا بالاستيلاء على (تونس) لتقوية السلطة الفرنسية في شمال أفريقيا . وكان (بسمارك) يعلم ان لسواس فرنسا وقتئذ ميلا شديدا للاستيلاء على البلاد التونسية كما انه كان يعلم علم اليقين ان تقوية نفوذ فرنسا في تونس يضر بالمصالح الايطالية ضررا عظيما ويوجد عداوة لدودة بين فرنسا وايطاليا .

وما علم سواس فرنسا بان المانيا ترى بعين الرضى تقوية السلطة الفرنسية في (تونس) حتى قرروا ارسال حملة على البلاد التونسية لفتحها ورفع الحماية عليها . وانتهى الامر برفع حماية فرنسا على هذه البلاد العثمانية التعيسة الحظ وسقوطها في أيدي دولة أوروبية . وقد بلغ (بسمارك) بهذه الحماية غايته التي كان يسعى اليها حيث استحكمت العداوة بين فرنسا وايطاليا وانضمت ايطاليا الى التحالف الالمانى النمساوي تشفيا من فرنسا وانتقاما منها

ولما تم تشكيل التحالف الثلاثى اجهد البرنس (بسمارك) في تحسين علائق دولته مع الدولة العلية وتقوية نفوذها في الاستانة . وهكذا اقتضت مصلحة بلاده أن يعمل ضد الدولة العثمانية ويساعد الدول الاخرى على سلبها أملاكها ثم يعود الى التقرب منها بعد ذلك لتمتع روسيا عن الاعتداء على المانيا ولكي يزداد نفوذ المانيا في الشرق وتتقدم فيه تجارتها

ولقد انتهت روسيا الى سياسة (بسمارك) وحولت أنظارها نحو فرنسا وعملت على تمكين المودة بينها وبين الجمهورية الفرنسية حتى لا تكون الكلمة في أوروبا لالمانيا وحدها . ويمكننا أن نقول ان الحجر الاول لأساس التحالف الفرنسي الروسي قد وضع عقب مؤتمر برلين أما علاقات روسيا مع انكلترا فقد تكدر صفاؤها بعد مؤتمر برلين وأيقن سواس روسيا ان كل حروب دولتهم مع الدولة العلية لا تفيد غير انكلترا أحدا . فان لهذه الدولة مصلحة تبي مابقي الوجود في ان روسيا تحارب تركيا لتضعف كلتها فتبقى لها السيادة في الشرقين الادنى والاقصي كما ان لها مصلحة أبدية في وجود العداوة بين فرنسا والمانيا لتبقي صاحبة الكلمة النافذة في أوروبا

وقد أوجدت عداوة روسيا لانكلترا وعداوة تركيا لانكلترا بعد مؤتمر برلين تقربا بين روسيا والدولة العلية وتحسينا عظيما في روابطهما . فان روسيا تبي مصافية للدولة العلية مادامت وجهة سياستها التقدم في الشرق الاقصي والعمل على اسقاط نفوذ انكلترا في البلاد الآسيوية . وتزداد هذه المصافة كلما ازدادت العداوة بين الدولة العلية وانكلترا . فان الدولتين الواقفتين امام بعضهما في كل أزمات المسئلة الشرقية انما هما انكلترا والروسيا حتى صح ان تسمى المسئلة الشرقية بمسئلة الخلاف بين انكلترا والروسيا في الشرق . فاذا ظهرت انكلترا في مظهر نصيرة تركيا اشتدت العداوة بين تركيا والروسيا واذا ظهرت انكلترا بمظهر عدوة تركيا تمكنت المحبة بين تركيا والروسيا .

وانى لأجهل ان روسيا بعد مؤتمر برلين اجتهدت كثيرا فى ضم
الروملى الشرقى الى بلغاريا وتقوية نفوذها الدينى والسياسى فى بلاد
البلقان ولكن العالم كله رأى تغير السياسة الروسية نحو الدولة العلية فى هذه
السنين الاخيرة وخصوصا فى المسئلة الارمنية وفى مسئلة الحرب بين الدولة
العية واليونان

وانه لا يمكننا ان نجزم بان السياسة الروسية تبقى أبدا الدهر مصافية
للدولة العثمانية . فان الدول كلها تسير سياستها على حسب ما تقتضيه مصالحها
ومنافعها . فهذه المانيا حاربت النمسا واخذت منها مقاطعتين عظيمتين ثم
اتحدت معها . وهذه ايطاليا ثارت ضد النمسا وانفصلت عنها ثم اتحدت معها .
ونسيت مساعدة فرنسا لها وعادتها بعد ان كانت أول دولة وافية لها . وهذه
فرنسا حاربت روسيا فى حرب القرم ثم صارت الآن متحدة معها .
وهكذا شأن الدول كلها لا تستخدم الامصالحها ولا تعمل الا لما نفعها فان اتحدت
المصلحة اتحدت الدول وان اختلفت افرقت

ومما لامراء فيه ان للروسيا وتركيا مصلحة مشتركة ضد انكتر او يمكن
لكل انسان ان يجزم بان العلائق بين الدولة العلية والروسيا تبقى ودية حبية
مادامت السياسة العثمانية لا تستخدم المصالح الانكليزية والاغراض البريطانية
 . وقد أدرك سواس بريطانيا هذه الحقيقة حتى ذهب بعضهم الى القول
بان ثورة الهند الحاضرة مدبرة بالاتفاق بين تركيا والروسيا

ولاريب ان المستقبل سيرفنا عمر سياسة مصافاة روسيا للدولة
العية والخطة التى ستتبعها كل دولة نحو دولة آل عثمان

﴿ ما بعد مؤتمر برلين ﴾

ظهر للقاري من الفصل السابق ان مؤتمر برلين اوجد في بلاد البلقان أسباب الاضطراب ودواعي الهيجان ونزيد الآن انه لم يمض زمن يسير بعد المؤتمر حتى نزع كل أمة من أمم البلقان الى تكدير السلم بالمطالبة بأشياء جديدة . وقد عرفت هذه الامم ان أوروبا مساعدة لها في كل أمر فازدادت لذلك أطمعها وكبرت آمالها

وقد رأي القاري ان مؤتمر برلين قرر تأسيس ولاية جديدة في جنوب بلغاريا تسمى بالروملي الشرقي وتكون تابعة للدولة العلية مباشرة . وقرر احتلال الجنود الروسية لهذه الولاية مع امارة بلغاريا مدة تسعة أشهر . ولما كانت الوحدة الدينية هي سبب تداخل الروسيا في بلاد البلقان وهي الرابطة القوية المتينة التي تربط الروسيين بالبلغاريين عمل الروسيون مدة احتلالهم لاقليم الروملي الشرقي على إهاجة خواطر أهله ضد الدولة العلية وحثهم على الاتحاد مع بلغاريا لتكوين امارة واحدة . وبالجملة زرعوا بأيديهم بذور الهيجان والثورة مؤملين أنهم اذا غادروا الاقليم وجاءت الجنود التركية لاحتلال هذه البلاد العثمانية فوجدتها نائرة مضطربة مشتعلة نيران الفتنة في كل أنحاء اضطرت أوروبا للتدخل في الامر وتكليف روسيا باحتلال اقليم الروملي الشرقي مرة ثانية أو اعلان انضمامه لامارة بلغاريا

ولما اقترب ميعاد انجلاء العساكر الروسية من بلاد الروملي الشرقي أرسلت روسيا الى الدول الأوروبية مذكرة استلقت فيها أنظارها الي

أن رجوع العساكر العثمانية الى هذا الاقليم قبل تنظيمه واصلاحه يكون سببا لايجاد القلاقل والاضطرابات وعرضت عليها في هذه المذكرة مد أجل اللجنة الدولية المكلفة بتنظيم بلغاريا والروملي الشرق سنة كاملة بعد انقضاء الاجل الاول وارسال جيش مختلط أوروبى لاحتلال الروملي الشرقى هذه السنة ، وكانت روسيا تعلم ان دول أوروبا لا تقبل ارسال جنودها الي بلاد الروملي الشرقى وصراف المصاريف الطائلة بغير نفع لها فكانت تقصد في الحقيقة بمذكرتها استمرار احتلال جنودها لهذا الاقليم سنة كاملة بعد التسعة أشهر الاولى. ولكن الباب العالى أجاب على هذه المذكرة بأن استمرار احتلال الجنود الروسية أو الاوربية لاقليم الروملي الشرقى من شأنه اضعاف سلطة الدولة العلية في نظر أهالى هذه البلاد والاخلال بقرارات مؤتمر برلين وتشجيع أمم البلقان على مخالفة هذه القرارات الدولية مما تكون نتيجته اشتعال نار الاضطرابات في بلاد البلقان والاضرار بالسلام العام فى أوروبا. وهى ملاحظات حقّة عادلة أحلتها بعض الدول محلها من القبول. ولكي يظهر الباب العالى اعتداله أعلن الدول الاوربية بأنه عازم على تعيين « أليكوباشا » واليا على اقليم الروملي الشرقى وهو رجل بلغارى الاصل ارثوذكسي الدين

ولكن بذور السوء والبؤس قد أقيمت فى أرض خصبة في العداوة للدولة العلية فلم تمهل العالم الا قليلا حتى أنتجت الشرور وقام أهلها في وجه صاحب السيادة الشرعية عليهم وما تعين « أليكوباشا » والياً على الروملي الشرقى حتى أقبلت عليه

المصاعب والمشاكل - وكان ولاشك يسر في الباطن بها ويقبل هو كذلك عليها - فطلب منه الاهالي المسيحيون عدم رفع الراية العثمانية على قلاع الاقليم وأن لا يضع على رأسه الطربوش أبداً حتى في الاحتفالات الرسمية فلما رأت الدول ذلك سألت روسيا أن تأمر أهالي الروملي الشرقي بالركون الى السكنينة والانصياع لقرارات مؤتمر برلين فأجابت روسيا سؤال الدول ولكنها اشترطت عدم رجوع الجنود العثمانية الى هذه البلاد . فطلبت أوروبا ذلك من الدولة العلية وهددتها بعدم مخالفة طلبها . وهكذا . شأن أوروبا مع الدولة العلية تسمح لرعاياها المسيحيين بآتيان كل أمر فظيع وكل مخالفة ضد السيادة الشرعية وعند ما تريد الدولة استعمال سلطتها الشرعية وحقوقها المعترفة بها وأوروبا نفسها تمنعها كل المنع وتهدها بسائر أنواع التهديد !!!

ويدرك القاريء من نفسه ان اشارة روسيا على أهالي الروملي الشرقي بالخلود الى السكنينة لم تكن الا اشارة قضت بها الحوادث والظروف والافسياسة الروسية في بلاد البلقان بعد مؤتمر برلين بقيت واحدة ثابتة ترمى الي ضم الروملي الشرقي لامارة البلغار



وقد سلمت الدولة العلية آتباعاً لقرارات مؤتمر برلين قلعتي (بوز) و(بودجورتزا) من بلاد البانيا لامارة الجبل الاسود ولكن حكومة الجبل الاسود لم ترض بنصيبها الذي قرره لها. ومتم برلين بل صرحت على لسان جريدتها الشبيهة بالرسمية . جلاس تسرنا جورساء انها تنتظر

الفرص المناسبة للاستيلاء على ماتراه ضروريا ولازما لامارتها
 أما الالبانيون فقد أحدث ترك الدولة العلية لموقعي « بوز »
 و(بود جورترا) تأثيرا هائلا عندهم وأهاجهم ضد حكومة الجبل الاسود
 فقاموا ضدها وأعلنوا العداء لها ورفعوا راية العصيان في وجهها ولم
 يمض الا زمن يسير حتي اشتعلت نيران المارك الدموية بين جنود الجبل
 الاسود وبين أبطال ألبانيا . وكانت الدولة العلية قد سحبت جنودها من
 البلاد الالبانية المتنازل عنها للجبل الاسود فلما هاج أهلها دعت حكومة
 الجبل الاسود ان الدولة العلية هي المحرصة لهم وانها أخلت البلاد المتنازل
 عنها قبل الميعاد . ولكن الحقيقة التي لامراء فيها هي أن الالبانيين قوم
 شديدو التمسك بعري الولاة للدولة العلية ولا يرضيهم أن يكونوا تحت سلطة
 حكومة أخرى

ولما خابت حكومة الجبل الاسود في وقع ثورة الالبانيين استنجدت
 باوروبا فأرسلت الدول الاوربية للدولة العلية بلاغا سألها فيه احتلال
 البلاد المتنازل عنها للجبل الاسود ووقع الثورة فيها ثم تسليمها بعد ذلك
 الي امارة الجبل الاسود ... فأهملت الدولة العلية طلب الدول وتركت
 الالبانيين يدافعون عن بلادهم أشرف دفاع ويطردون جنود الجبل
 الاسود منها . وقد كانت انكلترا في هذه المسئلة اشد الدول تظاهرا
 بالعداوة لتركيا فعرضت على الدول الاوربية اعطاء ثغر (دولسينيو)
 لامارة الجبل الاسود . ولكن الدولة العلية صممت على المعارضة
 واحتلت أعلى مدينة (دولسينيو) . فلما رأيت ذلك انكلترا عرضت

على الدول الأوروبية عمل مظاهرات بحرية في المياه العثمانية تهديدا
للدولة العلية

وفي ٣ أغسطس عام ١٨٨٠ أرسلت الدول الأوروبية بلاغا للدولة
العلية طلبت منها فيه العمل على اعطاء ثغر { دولسينيو } للجبل الاسود
في مدة ثلاثة أسابيع أو الاشتراك مع الدول في عمل مظاهرات بحرية
أمام ثغر (دولسينيو) لارهاب اهله واجبارهم على التسليم . فاجاب
الباب العالي في ١٩ أغسطس بان الدولة العلية لا تستطيع اعطاء ثغر
(دولسينيو) للجبل الاسود الا اذا بقيت مالكة لمدينتي (دينوش)
و { جرودا } وبانها تطلب بعد ذلك أجلا أطول من ثلاثة أسابيع لتسليم
(دولسينيو) للجبل الاسود

وقد أشيع وقتئذ أن الصرب تحالفت مع بلغاريا تحالفا هجوميا
دفاعيا فاصدر جلاله السلطان أمره بجمع الجنود والاستعداد للطوارئ
وكانت الدولة أرسلت (رضا باشا) على رأس فرق عسكرية الى
(دولسينيو) لاحتلالها فظن أهلها انه جاء لتسليمها الى الجبل الاسود
فقاوموه مقاومة عنيفة حتى اضطر الي الإقامة هو وجنوده بالقرب من
(دولسينيو) وبقي منتظرا أوامر الدولة العلية

وفي هذا الاثناء أعلن اللورد غرانفيل في مجلس العموم الانكليزي
بتاريخ ٣٠ أغسطس عام ١٨٨٠ أن الدول الأوروبية وافقت انكلترا على
عمل مظاهرات بحرية أمام ثغر (دولسينيو) ووضع أساطيلها تحت قيادة
الاميرال الانكليزي (سيمور) . فلما علمت الحكومة العثمانية بذلك

أرسلت في ١٥ سبتمبر من السنة نفسها منشورا لسفرائها لدى الدول الأوروبية أمرتهم فيه بإبلاغ الحكومات الأوروبية ان اعطاء (دولسينيو) بالقوة الى الجبل الاسود يكون سببا لهيجان عظيم واضطراب عام في بلاد البلقان وان الدولة العلية لاتقبل التنازل عن (دولسينيو) الا بالشروط الآتية : أولا عدم اجراء مظاهرات بحرية . ثانيا المحافظة على أرواح وأموال المسلمين والمسيحيين القاطنين في { دولسينيو } . ثالثا بقاء { دينوش } و { جرودا } في يد الدولة العلية . رابعا عدم اعطاء امارة الجبل الاسود شيأ من أملاك الدولة في المستقبل

وفي الوقت نفسه أرسل أهالي (دولسينيو) الى قناصل الدول بها خطابا مؤثرا للغاية احتجوا فيه على اعطاء مدينتهم للجبل الاسود وقالوا فيه : واننا عازمون على المقاومة أشد المقاومة ولو دمرت مدينتنا ومتنا جميعاً عن آخرنا . ومع ذلك فاننا لانزال نؤمل ان الخلاف لايقع لمناعلمه من ان دول أوروبا تعمل لمصلحة الأئمة وخيرها لا لدمارها وخرابها . وقد أحدث هذا الخطاب عند سائر المسلمين في تركيا تأثيرا شديدا وهاجت النفوس والضمائر هياجا كبيرا واندهش الكل من ان أوروبا لاتكتفي باخراج المسيحيين من تحت سلطة المسلمين بل تعمل أيضاً لاخراج المسلمين من تحت سلطة دولتهم الشرعية ووضعهم بالقوة والقهر وبالرغم عنهم تحت السلطة المسيحية وتحت سلطة أمم البلقان أى تحت سلطة أعدائهم

وقد انتهزت انكثرا فرصة وقوع الخلاف بين أوروبا وبين الدولة

العلية وطلبت من الدول ان تسمح لها باحتلال ثغور تركيا ومحاصرة الدردايل . وكانت الجرائد الانكليزية تطعن وقتئذ على جلالة مولانا السلطان الاعظم (عبد الحميد خان) طعنا قبيحا وتطلب من أوروبا انزاله عن عرشه ملكه الجليل . وقد اجتهدت ألمانيا في حل المشكلة حلا سلميا واعادة السكينة والسلام الي ربوع البلقان فنصحت الدولة العلية بقبول اعطاء (دولسينيو) للجلب الاسود وتسليمها لحكومته في أقرب وقت حتي لا تجد انكترا حجة لحاق المشاكل وايجاد القلاقل . فاضطرت الدولة العلية للعمل بنصيحة ألمانيا لانفرادها وحدها ضد أوروبا كلها وعدم وجود مساعد لها بين الدول الاوروبية وأعلنت أوروبا في ١٢ اكتوبر عام ١٨٨٠ بانها مستعدة للاتفاق مع امارة الجبل الاسود على اعطائها (دولسينيو) . وانتهى الامر باستيلاء امارة الجبل الاسود على هذا الثغر في ٢٦ نوفمبر عام ١٨٨٠

* *
*

مانتهى مؤتمر برلين حتى خابرت اليونان الحكومة العثمانية في أمر تحديد تخوم جديدة بين الدولتين بمقتضى قرارات مؤتمر برلين فرضت الدولة العلية بالتنازل لليونان عن ثلث خليج (فولو) ورفضت اعطاءها يانينا ولاريسا وفولو . ونظراً لطمع اليونان في الاستيلاء على تساليا وابيرالم تم المخابرات بين الدولتين على شيء واستنجدت اليونان بأوروبا لمساعدتها ونصرتها . فأرسل اللورد سالسبري وزير خارجية انكترا مذكرة رسمية للدول الاوروبية عرض عليها فيها عقد لجنة دولية

للفصل بين تركيا واليونان

وفي ذلك الحين تعين المسيو (جوشن) سفيراً لانكترا لدي الباب العالي وكلف من قبل حكومته بمساعدة اليونان على أخذ تساليا وايرا من الدولة العلية

وقد أجابت الدول الأوروبية طلب انكترا وأرسلت بلاغا للدولة العلية أخبرتها فيه بأنها قررت عقد لجنة دولية ببرلين في شهر يونيو عام ١٨٨٠ لفصل الخلاف بينها وبين اليونان

وفي شهر يونيو اجتمعت اللجنة الدولية ببرلين كما اتفقت الدول وكان اجتماعها تحت رئاسة البرنس (دى هوهنلوه) ولم يقبل فيها مندوبو تركيا ولا مندوبو اليونان . وقد قررت اعطاء جزء عظيم من تساليا وايرا مع (يانينا) و (متروفو) و (لاريسا) لليونان وقدم سفراء الدول في الاستانة وفي أثينا في ١٥ يوليو سنة ١٨٨٠ مذكرة للحكومة العثمانية والحكومة اليونانية متضمنة قرار اللجنة الدولية ببرلين . فقبلته حكومة اليونان بمزيد الامتنان ورفعت شكرها للدول الأوروبية . ولكن الباب العالي رفض هذا القرار كل الرفض وأبان للدول الأوروبية ان تنازل الدولة العلية لليونان عن هذه المدائن والمواقع يجعل لليونان طريقا على الدولة العلية ويسهل لها الاعتداء على البلاد التركية في كل وقت فضلا عن ان سكان هذه البلاد التي قررت اللجنة الدولية ببرلين اعطاءها لليونان أغلبهم من المسلمين

وقد ألحت الدول الأوروبية مرة ثانية على الدولة العلية بقبول قرار

اللجنة الدولية ببرلين ولكن الدولة بقيت على خطتها الاولى ورفضت التنازل عن يانينا و متروفو ولا ريسا

اما حكومة اليونان فقد اهتمت بتجنيد جنودها وأظهرت استعدادها لمحاربة الدولة العلية وصرحت على لسان جرائدها وخطبائها بأنها تنفذ قرار اللجنة الدولية ببرلين بالقوة ان لم تستطع أوروبا اجبار الدولة العلية على قبوله . ولكن الدولة العلية كانت تستعد للحرب أحسن استعداد ولم تهمل شيئاً من معدات القتال . وكانت اليونان تؤمل مساعدة أوروبا لها ضد الدولة العلية اذا قامت الحرب بينهما . وكان لها الحق أن تؤمل هذا الامل لأنها وجدت من أوروبا المساعدة التامة في كل وقت وفي كل أمر . غير ان الدول الاوروبية كانت تأبى قيام الحرب بين الدولة العلية واليونان خوفاً منها على دمار اليونان وخرابها ومنعاً لاشتعال نيران الحرب في بلاد البلقان . فلذلك اجتهدت في فصل الخلاف بين اليونان وتركيا واقناع الباب العالي بضرورة قبول ماقدرته وما تقرره

وقد عرضت فرنسا على الدول الاوروبية وعلى تركيا واليونان تحكيم دولة من الدول لفصل الخلاف بين الحكومة العثمانية والحكومة اليونانية بصفة نهائية ولكن الدولة العلية رفضت هذا الطلب . وكان اليونانيون يعملون وقتئذ كل مافي وسعهم لاعلان الحرب على تركيا فقد عرضت حكومتهم على مجلس نوابهم مشروع عقد سلفة لشراء الاسلحة اللازمة للجيش ولاتمام الاستعدادات الحربية . وأقر مجلس النواب اليوناني على هذا المشروع بالاجماع

وفي ١٤ يناير عام ١٨٨١ عرضت الحكومة العثمانية على الدول الأوروبية ان يلغى قرار اللجنة الدولية ببرلين وان تعقد لجنة دولية جديدة بالاستانة يحضرها مندوبو الدولة العلية ولا يحضرها مندوبو اليونان ويكون قرارها نهائيا . فبادرت الدول الأوروبية بالموافقة على طلب الدولة العلية وصارت الدولة بذلك ملزمة بتنفيذ قرار اللجنة التي طلبت عقدها بالاستانة

ولما عقدت اللجنة الدولية بالاستانة طلب بعض الاعضاء التنازل لليونان عن كريد وجزء من تساليا وطلب البعض الآخر التنازل عن تساليا كلها وجزء من ايرا . وفي أثناء مناقشة اللجنة الدولية كان اليونانيون يسلمون جنودهم وينظمون جيشهم ويتمون معداتهم الحربية استعدادا لمحاربة تركيا حتى ان المسيو { تريكويس } رئيس حزب المعارضين في مجلس النواب اليوناني قال امام المجلس « بأن الحكومة اليونانية متفقة مع حزب المعارضين على أن الحرب مع تركيا لا مناص منها » . وقد أجابه المسيو (كومندروس) رئيس الوزارة اليونانية وقتئذ اني لا أقول بان الحرب لا مناص منها ولكني أقول بانها ربما كانت قريبة الوقوع جدا »

وقد استمرت اللجنة الدولية في مناقشتها . ولكن مندوبى الدول لم يستطيعوا الاتفاق مع مندوبى تركيا فانفقوا على وضع قرار فيما بينهم يقدم لتركيا بصفة انذار نهائى من دول أوروبا . وأخذ مندوبو أوروبا يتناقشون وحدهم حتى اتفقوا في آخر الامر على اعطاء تساليا كلها وأيرا لغاية نهر « أريا » لليونان وهدم قلاع « بريفيزا » التي تقرر تركها للدولة

العلية . وأبلغ سفراء الدول هذا القرار للحكومة العثمانية وللحكومة اليونانية
 قبلته الحكومة اليونانية وأبلغت الدول ذلك في ١٢ ابريل عام
 ١٨٨١ وسألتها التعجيل بتسليمها البلاد المتنازل لها عنها . أما الحكومة
 العثمانية فأنهال المرات اجماع الدول واتفاقها كلها ضدها وأبلغتها قبولها لقرار
 اللجنة الدولية بالاستانة وسألتها قبول الشروط الآتية : أولاً عدم تجنيد
 المسلمين القاطنين بالبلاد المتنازل عنها لليونان في العسكرية اليونانية مادامت
 الدولة العلية لا تجند اليونانيين المقيمين ببلادها في عسكريتها . ثانياً هدم
 قلاع مدينة « فولو » . ثالثاً جعل محكمة اليونانيين القاطنين بتركيا امام
 محاكمها العادية

ولكن دول أوروبا بالعت في تعضيدها ليونان واعتدائها على الدولة العلية
 ورفضت قبول هذه الشروط العادلة وأمضت كلها في ٢٢ مايو على اتفاقية
 بخصوص اجبار الدولة العلية على تنفيذ قرار اللجنة لدولية فاضطرت الدولة
 العلية الى مخاربة حكومة اليونان والاتفاق معها على تنفيذ قرار اللجنة
 الدولية وعلى خروج الجنود التركية من البلاد المتنازل عنها ليونان في مدة
 لا تزيد عن خمسة أشهر

*
 * *

وقد اشتعلت النمسا بعد مؤتمر برلين بالاستعداد لاحتلال مقاطعتي
 البوسنة والهرسك فأرسلت جيشاً جراراً اليهما تحت قيادة الجنرال
 (فيليبوفيتش) وأصدرت لانهالي البوسنة والهرسك منشورا أبانت لهم
 فيه أن الدول الأوروبية كلفتها باحتلال بلادهم لتوطيد السكينة فيها واسعادها

وان جلاله السلطان أنابها عنه في تنظيم أمورهم — وهو ما يخالف الحقيقة بالمرّة وقد ذكرت النمسا ذلك كذبا لتخدع المسلمين من أهالي البوسنة والمهرسك — وانها (أي النمسا) لا تميز بين الديانات بل جل مقاصدها نشر لواء المساواة والعدل والحرية بين الاهالي

وبالرغم مما جاء في هذا المنشور فان أهالي البوسنة والمهرسك من المسلمين قاموا أجمعين عند ما علموا باقترب النمساويين من بلادهم لاحتلالها واستعدوا للدفاع عن وطنهم الدفاع الواجب وانضم اليهم الارثوذكسيون — أي الذين يدينون بدين الروسيا ويخلصون الحب لها — واتخذت مدينة (بوسنة سراي) أو (سراي فو) ومدينة (موستار) مركزا للدفاع عن بلاد البوسنة والمهرسك

وقد دافع أهالي البوسنة والمهرسك عن بلادهم دفاع الابطال وقاوموا جنود النمسا مقاومة عنيفة وأذاقوهم مر القتال حتى اضطروا قواد الجيش النمساوي للرجوع بالجيش الى الورا في مواقع كثيرة واضطرت الحكومة النمساوية الى ارسال جنود عديدة لتزداد القوة بهم ويستطيع الجيش النمساوي الانتصار على أهالي البوسنة والمهرسك . وكان على رأس المسلمين من أهالي البوسنة في هذه الحركة الوطنية رجل شديد العزم والحزم اسمه (حاجي لودجا) قاد الجموع ضد النمساويين أحسن قيادة واستحق بما أتاه شكر أمته ووطنه وثناء التاريخ

وفي ١٠ أغسطس عام ١٨٧٨ سقطت مدينة (بوسنة سراي) في أيدي النمساويين وهذا اليوم كان يوما شهودا فقد فيه النمساويون عددا

عديدا من جنودهم ورأوا أمامهم البنات والنساء تدافع عن البوسنة في مقدمة الرجال . فهكذا تكون الوطنية الحققة وهكذا يكون الذود عن الاوطان . وقد مات في هذا اليوم العبوس كثيرون من أهالي البوسنة وذهبوا شهداء الوطنية الحققة والاخلاص الملي

ولم تثبطهم أهالي البوسنة والمهرسك بسقوط عاصمة البوسنة في أيدي النمساويين بل استمروا يقاتلون قتال الأبطال واستمرت الثورة ضد النمساويين في شمال البوسنة وفي بلاد المهرسك كلها . وقد انهزم النمساويون أمام حماة البوسنة والمهرسك مرة بعد أخرى ولاقوا في هذه المعارك الدموية من الاتعاب والمصاعب وما لا يجده جيش في حرب كبيرة مع دولة عظيمة . وفي آخر شهر أغسطس عام ١٨٧٨ اضطر الجنرال (سابارى) الى ترك ما كان استولى عليه بين نهر (درينا) و (سائب) بعد أن خسر جيشه الخسائر الجمة وفقد العدد الوافر من رجاله . وفي ١٠ سبتمبر انسحب الجنرال (زاش) هو و جنوده من موقع (بيهاش) فرارا من هجمات أهالي البوسنة والمهرسك الأبطال

ولم ينتصر الجيش النمساوى بعد سقوط (بوسنة سراي) الا عند ما ازداد وعده بوفود فرق جديدة من النمسا . وعندئذ استولى على مدينة « تريينيه » ومدينة « زفور نيك » وأخذ يتقدم شيئا فشيئا حتى قمع الثورة واستولى على البلاد كلها ولكن بعد ان أذاقه أهالي البوسنة والمهرسك أشد العذاب وبرهنوا على أنهم رجال لا يستسلمون للعدو ولا يسلمون وطنهم وشرفهم للاجنبي عن طيب خاطر

وقد كان المجريون من أول الازمة لآخرها مع الدولة العلية وكانت مصالحهم تقضى عليهم بذلك. فان استيلاء النمسا على البوسنة والهرسك يزيد من عدد السلافيين في المملكة النمساوية ويضر بنفوذ المجر وكذلك ازدياد نفوذ روسيا في بلاد البلقان من شأنه أن يجعل المجر في قلق مستمر على حياتها ووجودها السياسي فان روسيا هي أول وأكبر عدو للمجر وهي التي قمت الثورة المجرية عام ١٨٤٩ بعد ان خابت النمسا في قعها واذا أضفنا الى اشتراك المجر في المصلحة مع الدولة العلية اخلاص أهالي هذه البلاد للاتراك واعترافهم بالجميل للدولة التي استقبلت ثوارهم عام ١٨٤٩ أحسن استقبال واكرمت مثواهم ورفضت تسليمهم للنمسا كل الرفض فهمنا كنه تظاهر المجرين بمحبة الدولة العلية واطهار أميالهم نحوها بكل قوة. ومما يخذ ذكره أبد الدهر ان النمسا أرسلت مع الجنود النمساوية التي بعثتها للاستيلاء على البوسنة والهرسك أورطة مجرية وأصدرت اليها الاوامر بطرد جنود الاتراك من هذه البلاد فلما وصلت الاورطة ووجدت الجنود العثمانية - وهم الذين بقوا بعد اخلاء الدولة للبوسنة والهرسك - تذكرت ان هؤلاء الجنود ينتسبون لهذه الامة التركية الشريفة وانهم جنود الدولة التي أحسنت الى أبناء وطنها فألقت الاورطة كلها السلاح وأبت اطلاق الرصاص على الاتراك قائلة بصوت واحد « اننا لانطلق الرصاص على أصدقائنا ». فاغتاظ الامبراطور « فرنسوا جوزيف » من هذا العمل ومن هذه المخالفة العسكرية وأمر بضرب عشر الاورطة بالرصاص اذا استمرت على مخالفتها فابلق الامر

للجنود المجرية واسكنها فضاء اظهار اعترافها بالجميل للعثمانيين عن الطاعة
لاوامر الامبراطور

وقد استحكمت الخلاف بين النمسا والمجر وظهر ظهور الشمس في رابعة
النهار عند ما طلبت النمسا من الوزارة المجرية الاشتراك معها في تقرير
مبلغ ٥٥ مليوناً من الفلورينو ، أى نحو الخمسة ملايين من الجنيهات ،
لمصاريف الحملة النمساوية ضد البوسنة والمهرسك بعد ان صرف على
هذه الحملة مبلغ ٨٢ مليوناً من الفلورينو . فهاج المجريون وأخذت جرائدهم
تظعن على النمسا وتوجه اليها الملام والتعنيف حتى اضطرت الوزارة المجرية
— التي كان رأسها وقتئذ المسيو « تيسا » الشهير — الى تقديم استعفاؤها
ولما رأى الامبراطور « فرنسوا جوزيف » ان الموقف خرج سأل المسيو
« تيسا » أن يسبق في منصبه هو وزملاؤه حتى يجد من يخلفهم وأخذ يستميل
الحزب الاهلي في المجر نحوه ويرجوه عدم احداث قلاقل في البلاد
ولكى يسهل الامبراطور على المجرين قبول طلب الحكومة النمساوية
بشأن مصاريف الحملة على البوسنة والمهرسك قرر جعلها عشرين مليوناً
من الفلورينو بدلا عن خمسة وخمسين . وبذلك انتهى الخلاف بين
النمسا والمجر ظاهريا . ولكن احتلال النمسا للبوسنة والمهرسك أبقى
في نفوس المجرين كراهة شديدة للنمساويين فوق الكراهة الاصلية
الكامنة في نفوسهم

وقد احتلت النمسا في ٨ ستمبر عام ١٨٧٩ اقليم « نوفي بازار »
بالاشتراك مع الجنود العثمانية — ولم يستمر احتلال النمسا له زمنا طويلا

— وكان لهذا الاحتلال شأن مهم لان « نوفي بازار » على طريق سالونيك
وبواسطتها كان يسهل للنمساويين ان يبلغوا الاستانة قبل الروسيين اذا قامت
الحرب بين روسيا والدولة العلية

والذي أوعز للنمسا باحتلال (نوفي بازار) هو البرنس (بسمارك)
فانه لما رأى ان روسيا أظهرت العداء لالمانيا واتهمتها بنكران الجميل
عمل على الاتحاد مع النمسا ضدها كما قدمنا ووجه عنايته لاضعاف
نفوذ روسيا في بلاد البلقان وجعل نفوذ النمسا فيها قويا عظيمًا لترداد
العداوة بين هذه الدولة وبين روسيا وتبقى بذلك النمسا مضطرة دائماً
الى المحافظة على تحالفها مع ألمانيا . وكان يقصد البرنس (بسمارك)
بتقوية نفوذ النمسا في بلاد البلقان غير ما ذكرنا ايجاد الشقاق بين النمسا
والمجر وتحويل أنظار النمسا بهذا الشقاق وبمصالحتها في البلقان عن البلاد
الامانية لتبقى دائماً تحت سلطة المانيا وفي دائرة نفوذها

وقد توصل البرنس (بسمارك) بسياسته هذه الى توطيد العلاقات
والروابط بين رومانيا والنمسا وسهل عليه ذلك لحقد رومانيا على روسيا بعد
الحرب الروسية التركية . ونجح كذلك في تحسين علائق الصرب مع
النمسا وادخال بلغاريا نفسها في دائرة نفوذ النمسا

وبذلك أفلح البرنس « بسمارك » في سياسته الماهرة وبلغ متمناه
فازدادت العداوة بين النمسا وروسيا وتقربت من النمسا امارات البلقان
— التي أوجدتها روسيا بمالها ورجلها — واشتغلت النمسا ببلاد البلقان
وبمشاكلها مع المجر عن البلاد الامانية . ولما رأى البرنس « بسمارك »

ثم ارسياسسته سافر الى فيينا حيث استقبل فيها استقبالا عظيما واحتفل به سواسها واهابا احتمالا شائقا - ولا ينسي القاريء الكريم ان «بسمارك» هو سبب مصائب النمسا وأصل انحلالها . ولكن الامم النازلة في مهواة التقهقر والانحطاط من شأنها النسيان - وأعلن وقتئذ في كل انحاء العالم ان النمسا تحالفت مع المانيا تحالفاً دفاعياً هجومياً وان سياسة «بسمارك» توجت بالنجاح والفلاح

*
* *

أسلفنا ان البرنس «بسمارك» بذل جهده في ابعاد ايطاليا عن فرنسا وايجاد الشحنة والبغضاء بينهما وأظهر لفرنسا انه مستعد لمساعدتها على رفع حمايتها على البلاد التونسية . ولما كان سواس فرنسا ميالين لتقوية نفوذ بلادهم في تونس فقد تلقوا أقوال البرنس «بسمارك» بعناية الارياح وانتظروا الفرصة المناسبة لارسال حملة على البلاد التونسية وقد كانت ثلاثة أمخاس ديون الامارة التونسية لفرنسا والخمسان الآخران لايطاليا وانكأترا مما جعل لفرنسا مركزا خاصا بها في تونس . ولم يكن لها منافس بين الدول غير ايطاليا التي كانت تنصح (باى تونس) على الدوام بما كسة فرنسا وعرقلة مساعيها وكان الايطاليون في البلاد التونسية يجارون الفرنسيين في كل عمل ويجهدون في سبقهم الى الربح والمكسب وقد حدث ان بعض قبائل رحالة اعتدت على حدود الجزائر فانهزت فرنسا هذه الفرصة لتحقيق غاياتها وتنفيذ مشروعها وقررت ارسال حملة فرنساوية على الحدود التونسية

فلما علمت الدولة العلية بذلك أرسلت مذكرة لفرنسا وللدول الاوربية بتاريخ ٢٧ ابريل عام ١٨٨١ احتجت فيها على عمل فرنسا وأبانت ان البلاد التونسية هي جزءاً من المملكة العثمانية وان الاعتداء عليها يعتبر اعتداء على الدولة نفسها

فأجاب المسيو «بارتاجي سانت هيلير» وزير خارجية فرنسا على مذكرة الدولة العلية بمنشور أرسله في ٩ مايو عام ١٨٨١ الى سفراء فرنسا لدي الدول الاوربية أوضح فيه الاسباب التي حملت فرنسا على ارسال تجريدة الى البلاد التونسية وأبان الاعتبارات التي تجعل البلاد التونسية في نظر فرنسا مستقلة تمام الاستقلال عن الدولة العلية. وهذه الاعتبارات هي ان علاقة تونس مع الدولة العلية ليست الا علاقة دينية محضة وان امارة تونس عقدت مع دول أوروبا جملة معاهدات بدون توسط الدولة العلية أو تصديقها عليها. فقد عقدت مع فرنسا معاهدة في ٨ أغسطس عام ١٨٣٠ تعهدت فيها بالغاء الرقيق وعقدت مع انكلترا نحو عشرين معاهدة وعقدت مع ايطاليا معاهدة في عام ١٨٦٨ بدون أن تحتاج في كل هذه المعاهدات الى أمر أو الى توسط من الدولة العلية. وأضاف على ذلك وزير خارجية فرنسا ان جملة حروب قامت بين الامارة التونسية وبين بلاد أخرى بدون تدخل تركيا. ففي عام ١٨٣٣ حاربت مملكة «ساردينيا» ولاية تونس وكانت علاقتها مع الدولة العلية جيدة حسنة ولم يتكدر صفاؤها بحربها مع تونس. وقبل ذلك في عام ١٨١٩ قرر مؤتمر (راكس لاشايل) اجبار تونس على منع لصوصية البحار بدون توسط الدولة العلية

واستند كذلك وزير خارجية فرنسا على استقلال تونس بأن فرنسا استقبلت في عام ١٨٤٧ (أحمد) باي تونس كما تستقبل الملوك والأمراء وبغير توسط سفراء الدولة العلية وبأن دستور الولاية التونسية المشتمل على ١١٤ مادة لم يذكر فيه حرف واحد عن تابعة هذه الولاية للدولة العلية

وختم وزير خارجية فرنسا منشوره بقوله « وان أغاب دول أوروبا موافقة على ارسال حملة فرنسية الى البلاد التونسية » . ولاشك انه كان يشير الى المانيا والنمسا

ولكن هذه الاعتبارات التي أتى عليها وزير فرنسا كلها تسقط أمام أمر واحد وهو أن باي تونس أرسل في آخر عام ١٨٦٤ { خير الدين باشا } الى الاستانة ليستصدر فرمانا شاهانيا بتعيينه أميرا على البلاد التونسية وصدر فرمان بالفعل بمقتضى طلب باي تونس نفسه . وفي ٢٥ أكتوبر عام ١٨٧١ صدر فرمان السلطاني بتعيين (محمد الصادق) باي تونس وقرأه (خير الدين باشا) في (البارود) يوم ١٨ نوفمبر عام ١٨٧١ في حفلة حافلة فاذا سلمنا بأن البلاد التونسية كانت مستقلة تمام الاستقلال قبل عام ١٨٦٤ وعام ١٨٧١ فلا يمكن لاحد ما أن يعتبرها مستقلة من الدولة العلية بعد ارتباطها بها هذا الارتباط القاضي بصدور فرمان شاهاني لتولية الباي عند موت سلفه . وكيف يستطيع سواس أوروبا أن ينكروا تابعة تونس للدولة العلية وقد رأينا الدول الأوروبية تضع حمايتها على بعض بلاد أفريقية بمجرد عقد معاهدة حية بين أمراء هذه البلاد وبينها ؟

وقد طلبت الدولة العلية من الدول الاوروبية أن تتدخل في الامر وتفصل الخلاف الواقع بينها وبين فرنسا ولكن سياسة الدول كانت قيادتها بأيدي البرنس (بسمارك) وكانت الروسيا ميالة لفرنسا وعاملة على التقرب منها . فلم تجدد الدولة العلية نصيراً ينصرها وينصر الحق ولما أرادت أن ترسل سفنها الى تونس هددتها فرنسا باعلان الحرب عليها اذا أرسلتها . ومن البديهي أنه كان يصعب على الدولة العلية بعد حربها مع الروسيا أن تحارب فرنسا وتفتح باباً جديداً لتدخل الدول في شؤونها والاضرار بمصالحها . فلم تستطع لهذا السبب أن تحتج على عمل فرنسا في تونس احتجاجاً فعلياً بل كان كل ما في استطاعتها أن تحتج احتجاجاً قولياً ولما رأيت فرنسا أن عملها في تونس لا يلقى معارضة من دول أوروبا أرسلت حملتها على البلاد التونسية وكانت مؤلفة من ٢٦٠٠٠ جندي . وقد قهرت قبائل الحدود بعد مجهودات عظيمة وتوصلت الي عقد معاهدة مع باي تونس هي في الحقيقة اعلان حماية فرنسا على البلاد التونسية وقد عرضت على مجلس النواب الفرنسي في ١٩ مايو عام ١٨٨١ صورة هذه المعاهدة التي أمضاها الجنرال (بريار) باسم فرنسا مع باي تونس في (البار دو) بتاريخ ١٢ مايو عام ١٨٨١ وهي تشمل : أولاً على احتلال فرنسا للمواقع التي تراها ضرورية لها في البلاد التونسية . ثانياً على تعهد فرنسا لباي تونس بحمايته وحماية عائلته ودفع كل خطر عنه وعنها . ثالثاً على تعهد فرنسا بضمان تنفيذ المعاهدات المعقودة بين تونس وبين الدول الاوروبية . رابعاً على تعيين وزير فرنساوي في تونس

يقوم بتنفيذ هذه المعاهدة ويكون الوساطة بين فرنسا وبين الولاية التونسية . خامسا على جعل الرعايا التونسيين في الخارج تحت سلطة وحماية سفراء فرنسا وقناصلها وعلى تعهد تونس بعدم عقد معاهدة مامع دولة من الدول قبل عرضها على فرنسا والاتفاق معها عليها . وتتضمن المعاهدة غير ذلك بعض شروط بشأن تنظيم مالية تونس وبشأن الديون التونسية وبخصوص عدم وصول الاسلحة والذخائر الى القبائل المعادية لفرنسا .

وقد وافق مجلس النواب الفرنسي بالاجماع على هذه المعاهدة عند عرضها عليه . ولما علمت بها الدول رسميا هنأت المانيا والنمسا واسبانيا الحكومة الفرنسية على نجاحها . أما الباب العالي فقد احتج على عمل فرنسا باسم حقوقه الشرعية وترك للتاريخ الحكم على معاملة أوروبا للدولة العلية واعتدائها عليها

وقد أحدثت معاهدة فرنسا مع تونس في ايطاليا كدرا شديدا وسخطا على فرنسا وحولت انظار ايطاليانحو النمسا و المانيا . واشتدت العداوة بين فرنسا وايطاليا الى حد أن الفرنسيين والايطاليين صاروا يتشاحنون في كل بلد من بلاد فرنسا . ففي ١٤ يوليو سنة ١٨٨١ يوم عيد الجمهورية الفرنسية حصلت معركة كبيرة في مرسيليا بين الفرنسيين والايطاليين مات فيها ثلاثة من الفرنسيين واطالى واحد

وقد أظهرت الجرائد الالمانية عندئذ ارتياحها للعداوة الناشئة بين

ايطاليا وفرنسا وصارت الجرائد الايطالية تطعن على فرنسا أقبح الطعن
وتسبها أخش السباب وتمدح ألمانيا وتطريء في المديح تشفيا من فرنسا
وانتقاما منها. وفي شهر يونيو من عام ١٨٨١ نفسه تقابل المسيو { كيرولي }
رئيس الوزارة الايطالية وقتئذ مع البرنس (بسمارك) في مدينة { كيسينجن }
وطالت المحادثة بينهما واعتبرت هذه المقابلة في كل دوائر أوروبا السياسية
مبدأ لانضمام ايطاليا لتحالف الألمانى النمساوي أى نجاحا لسياسة
(بسمارك)

أما فرنسا فقد استمرت على خطتها في البلاد التونسية واحتلت في ١٠
اكتوبر عام ١٨٨١ مدينة { تونس } نفسها وأرسلت جيشا جرارا لاحتلال
مدينة (القيروان) . ومن الأمور المشهورة عن احتلال فرنسا للقيروان أن
رجلا فرنساويا دخل في دين الاسلام وسمى نفسه (سيد احمد الهادى)
واجتهد في تحصيل الشريعة الغراء حتى وصل الي درجة عالية فيها وعين
اماما لمسجد كبير في القيروان . فلما اقتربت الجنود الفرنسية من
المدينة استعد أهلها للدفاع عنها وجاءه يسألونه ان يستشيرهم
ضريح شيخ في المسجد يعتمدون فيه فدخل الضريح وخرج مهولا
لهم بما سينالهم من المصائب وقال لهم بان الشيخ ينصحكم بالتسليم لان
وقوع البلاء صار محتما . فاتبع القوم البسطاء قوله ولم يدافعوا عن مدينة
(القيروان) أقل دفاع بل دخلها الفرنسيون آمنين في ٢٦ اكتوبر
عام ١٨٨١ . وهكذا سقطت المدينة في أيدي فرنسا بحيلة دخيل من الدخلاء
وما سقطت بلاد اسلامية في أيدي دولة أوروبية الا وكان للدخلاء

يد في سقوطها

وبذلك حلت البلاد التونسية بالجزائر ووقعت في قبضة فرنسا
وتمت لفرنسا الكلمة فيهما وانتهت النتيجة الاخيرة للحرب المشؤومة
بين روسيا وبين الدولة العلية

﴿ الازمة الخامسة ﴾

(المسئلة المصرية)

ان سبب مصائب مصر هي ديونها التي اقترضها { اسماعيل باشا }
 الخديو السابق . فانها العلة الوحيدة لتداخل الاجانب في شؤون مصر
 ولتداخل انكرا على الخصوص في امورها . وقد اشتهر بين الناس كافة
 ان قاعدة سياسة التداخل الاجنبي في شؤون امة من الامم والعمل على
 استعبادها هي { فرق تحكم } فان الشقاق والتفريق بين افراد امة واحدة
 يجران حتما الى اضمحلال هذه الامة وسقوطها في قبضة اعدائها . وقد
 اوجد سواس هذا العصر قاعدة جديدة لاستعباد الامم وهي { ادن
 تستعبد } فان اعتماد السياسة الاوروبية في استيلائها على البلاد الافريقية
 والاسيوية انما هو على إقراض أمرائها . فتي أرادت دولة أن تستعبد امة
 وتستولي على بلادها سلطت على أميرها من يحسن له المدينة وزخرفها
 وتغير حاله بأحسن منها فاذا كان الامير ضعيف الرأي قصير النظر في
 العواقب أو كان ذا أهواء شريرة أصغى الي هذه الاقوال المزخرفة
 واستدان وأثقل عاتق أمة وبلاد بالديون التي تجر وراءها التداخل الاجنبي
 والاستعباد

وقد انخدع { اسماعيل باشا } بزخارف أقوال بعض الاوروبيين
 وتعلبت عليه أمياله الطبيعية وأهواؤه فاستدان من أوروبا الديون الطائلة
 وفتح أبواب مصر للأوروبيين وجرب بذلك على ملك مصر وعلى بلاد
 مصر العريزة المصائب الكبار والبلايا الجسام وانتهى به الامر أن خلمه

من كرسي ملكه أصحاب الديون أنفسهم أي أولئك الذين كان يظنهم
أصدقاء له وكان يفضلهم على بني وطنه ويعمل بأرائهم ونصائحهم . وهي
عبرة تاريخية يجب على أمراء الشرق كافة ان يعتبروا بها . فان قوة الممالك
في قوة الأمم وسعادتها الحقيقية لافي الزخرف الكاذب والطلاء الباطل
. وكلما كانت الامة قليلة الديون كان استقلالها قويا متينا وكانت كلمتها
عالية عزيزة وبالعكس كلما ازدادت ديون أمة ازدادت مصائبها وتسلط
الاجنبي عليها وهددت في استقلالها وفي حياتها نفسها

وقد تغيرت أمور مصر وتغيرت سياسة الدول نحوها من عام ١٨٧٥
بشراء انكلترا من (اسماعيل باشا) لأسهم مصر في قنال السويس حيث
ازداد نفوذ هذه الدولة في بلادنا العزيزة وصارت منافسة لفرنسا أشد
المنافسة . وقد توصلت انكلترا بمصاصارها من النفوذ في السنين الاخيرة من
حكم (اسماعيل باشا) الى تعيين جملة موظفين من الانكليز في ادارات
مصر وفي السودان المصري وجعلتهم ذريعتها في بذور السوء والقتل
في أرض مصر . وتوصلت كذلك الى عقد معاهدة منع الرقيق مع
الحكومة المصرية عام ١٨٧٧ وهي المعاهدة التي منحت انكلترا في المادة
السادسة منها « حق جولان الطرادات الانكليزية في مياه البحر الاحمر
وحق البحث في السفن المصرية الحاملة للرق أو المشتبه في أنها حاملة له
والاستيلاء عليها لتسليمها فيما بعد للحكومة المصرية وحق الاستيلاء
على الرقيق الذي تعثر عليه احدى الطرادات الانكليزية في سفينة مصرية
وإتخاذ الوسائل اللازمة لتحريره » . أي منح الانكليز سيطرة عالية على ماهو

من شؤون مصر وحقوقها ومنحهم حق التداخل في أحوال مصر
وبازدياد نفوذ انكلترا في مصر ازدادت المشا كل في بلادنا وتمهدت
لهاسبيل احتلالها . فقد قررت انشاء المراقبة على المالية المصرية بالاشتراك
مع فرنسا وكانت أول عاملة على خلع (اسماعيل باشا) . وبعد تولية المغفور
له (توفيق باشا) نشرت سياسيتها في كل أنحاء مصر وشجعت الحزب
الوطني من جهة وفرقت بينه وبين مولاه وفريق آخر من المصريين
من جهة أخرى حتى نزل القضاء باحتلالها لمصر وتمت خديعتها للمصريين
وللدولة العلية ولأوروبا كلها

ومن سوء حظ مصر ان سياسة الانكليز نجحوا في التفريق بين
المصريين وبعضهم فاستحكمت الشقاق بين الجراكسة والمصريين في
الجيش وبعبارة أخرى بين المصريين وبعضهم لانه لا يمكن اعتبار الجراكسة
الذين قضوا في مصر طول حياتهم واستوطنوا البلاد وتناسلوا فيها أجناب
عنها بل هم فيها مصريون لافرق بينهم وبين سلالة القراعنة القدماء
 . ولو كان زال من بين الجراكسة والمصريين سوء التفاهم وعرفوا
انهم كلهم مصريون تجتمعهم جامعة الوطن العزيز وأن لبلادهم عدوا
طامحا الى الاستيلاء عليها من عهد بعيد لكانت نجت مصر من الخطر
الجسيم الذي هي واقعة فيه الآن ولكانت تمت لمصر السعادة والرفاهية والحرية
 . ولكن العداوة استحكمت بين بينهما فقتل أمرهم وذهبت ريجهم
وتداخل الاجنبي بينهم وساقطت على مصر المصائب العديدة . وهذا شأن كل
أمة يقع الشقاق والتفريق بين أفرادها

وقد ابتدأت الحركة العرابية باتفاق جملة ضباط مصريين على رفع عريضة شكوى للمغفور له (توفيق باشا) ضد (عثمان باشا رفقي) ناظر الحربية بسبب تعصبه ضد المصريين وتحزبه للجرأ كسة وتكليف أحمد عرابي بك وعلى فهمي بك وعبد العال حلمي بك بتقديمها للخديوى . وما تقدمت هذه العريضة حتى اهتم بالامر أصحاب الدسائس الاجنبية العاملون على ضياع مصر وبذلوا جهدهم في توسيع الخرق وجعل الشقاق عظيما فنصحوا برفت عرابي وعلى فهمي وعبد العال حلمي . وبالفعل استدعى (عثمان باشا رفقي) هؤلاء الضباط الى نظارة الحربية وأعلنهم أمام مجلس مكوّن من الذوات بانهم صرفوتون من وظائفهم وان ثلاثة من الضباط الجرا كسة عينوا في مناصبهم وأمر بسجنهم فقبضت عليهم الجنود وسجنتهم وأمر كذلك بارسال كل الضباط المصريين المعروفين بالميل اعرابي وزميليه الى سجن القلعة . فهاجت الضباط والعساكر المصرية عند ما علمت بما جرى لرؤسائهم وهجموا على سجن نظارة الحربية وأخرجوهم منه وابتدأ بهذه الحركة الاضطراب في البلاد وقلقت الافكار كما كان يبتغيه أصحاب الغايات وأرباب الدسائس الاجنبية .

وبعد ان خرج عرابي وزميلاه من السجن أرسل (عرابي) الى قناصل الدول الاوروبية في مصر كتابا بتفصيل ماجري واستلفت أنظارهم الى هذه الامور وذهب الى عابدين وقابل سمو الخديو فصرح له المرحوم (توفيق باشا) بانه عفا عنه وعن كل الضباط وأخبره بأنه عين (محمود باشا سامى البارودى) ناظرا للجهادية بدلا من { عثمان باشا رفقي } . وكان

ذلك في يوم ٢ فبراير عام ١٨٨١ . وقد أفهم السير { ماليت } متصل
انكلترا الجنرال { عرابي } وأنصاره بأنه هو الذي نصح الخديو بالقبول عنهم
وباستبدال عثمان باشا رفاقي . وقصد بذلك استمالتهم اليه وتقريرهم بأنه
نصير لهم

وفي يوم ٤ فبراير من السنة نفسها أمر الخديوي عرابي وعلى فهمي
بأن يذهبا الى قنصلى فرنسا وانكلترا ويؤكد لهما بأنهما يتكفلان بالراحة
العمومية ويضمنان المحافظة على أرواح وأموال الاوروبيين فتوجها وعملا
بأمر العزيز

ولو كان الأمر وقف عند هذا الحد لكانت انتهت المسئلة وبقى السلام
سائدا في ربوع مصر ولكن أصحاب الدسائس كانوا يبذلون الجهد الجهد
في بلوغ غاياتهم السيئة فأوعزوا الى بعض خدمة الخديو الخصوصيين
بتهيج الجنود ضد ضباطهم وباغرائهم على القتل بهم . وقد وجدت هذه
الايمازات السيئة آذانا صاغية عند بعض ضعفاء العقول وذهب { فرج
بك الزيني } ليلا الى أحد الأليات وحرص المساكر على قتل ضباطهم
فلم توافقه المساكر وقبضت عليه وفي اليوم الثاني أرسل لنظارة الحربية
وجرى التحقيق بشأنه . وقد ظهر من التحقيق أنه أمر بتخريض الجنود
على قتل ضباطهم من أحد خدمة الخديو ويقول (عرابي باشا) في تقريره
ان خادم الخديو أمر بذلك من مولاه . وجرأت جملة مور من هذا
القبيل حكم على الذين أتوا بها بالابعاد الى السودان . ولما كان لبعض
الاشخاص الذين أبعدهوا الى السودان علاقات ببعض خدمة الخديو فقد

أحدث ابعادهم غضبا شديدا عند حاشية العزير واستعمل ذوو النفوذ في المعية نفوذهم في اقناع الخديو بضرورة عزل محمود باشا سامي من نظارة الحربية فعمل العزير برأيهم وطلب من محمود باشا سامي الاستقالة فاستقال وعين مكانه { داود باشا } صهر العائلة الخديوية . وماتين حتى أصدر الاوامر بعدم اجتماع الضباط مع بعضهم والتشديد عليهم كل التشديد . ويقول { عرابي باشا } في تقريره انه وضع على بيته وعلى بيت عبد العال بك حلمي ارواما للفتك بهما

وقد أحدثت هذه الامور كلها تأثيرا سيئا على نفوس الضباط فاتفقوا على عمل حركة أهلية عامة لتغيير دستور البلاد ونظامها واسقاط وزارة (رياض باشا) التي كانوا يتهمونها بمعارضتهم وبتقوية السلطة الاستبدادية في البلاد . وانضم اليهم الكثيرون من أعيان البلاد وفضلائها وفي ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ ذهبت الجنود المصرية في الساعة الثالثة بعد الظهر تحت قيادة (عرابي) الى ميدان عابدين وطلبت من الحضرة الخديوية اسقاط وزارة رياض باشا وانشاء مجلس نواب مصري وجعل عدد الجيش ١٨٠٠٠ جندي كما تسمح به فرمانات الشاهانية . واقتضت الصدفة وقتئذ ان قنصل فرنسا الجنرال والمراقب الفرنسي كانا غائبين عن مصر وكان المراقب الانكليزي المستر (كوكفيل) موجودا في مصر مع المستر (كوكسون) الذي كان قائما مقام السير { ماليت } قنصل انكلترا الجنرال . فنصح المستر كوكفيل والمستر كوكسون الخديو بقبول مطالب (عرابي) وجنوده ، ولم يمض الا ساعتان

حتى قبل الحديو طلبات { عرابي } وأسقط وزارة (رياض باشا)
وأمر (شريف باشا) بتشكيل وزارة تحت رئاسته

وقد استفادت انكثرا في هذه الحادثة ازدياد نفوذها عند رجال
الحزب الوطني وعند المغفور له { توفيق باشا } وعند خدامه وأنصاره
فصار بذلك وكلاؤها في مصر محل ثقة الفريقين

وان السياسة التي اتبعها انكثرا من أول الحوادث العرابية لآخرها
لسياسة كلها غش وخداع وكذب . أو كما يقول عنها السياسيون سياسه
كلها دهاء ومهارة . فانها أفلحت في تكبير الشقاق بين الجراكسة
والمصريين أي بين افراد أمة واحدة وأفلحت في القاء بذور النفور
والعداوة بين الحديو و (عرابي) إذ ظن عرابي وحزبه ان الحديو
يريد الفتك بهم وانه هو المحرض على قتلهم . وأفلحت في تفهيم المغفور
له (توفيق باشا) ان جلالة السلطان يريد خلعه ومحو حقوق العائلة الحديوية
في مصر وأفلحت كذلك في تفهيم رجال الدولة العلية ان (توفيق باشا)
طامح الى انتهاج خطة المغفور له محمد علي باشا في مسألة الشام ضد الدولة
وبذلك صارت انكثرا مسموعة الكلمة عند عزيز مصر وعند رجال الحزب
الوطني وعند رجال الدولة العلية . وصارت الحوادث تجري حسب مشيئتها
وكما تقضيه آمالها وأمانها

وما تظاهر (عرابي) مظاهرتة الحربية في ٩ ستمبر عام ١٨٨١ حتى
شجع سواس بريطانيا الباب العالي على الانتقام من { توفيق باشا } وانتهاز
هذه الفرصة لنوال سلطة فعلية على مصر بمساعدة الحزب الوطني وتعظيمه

. ولم تكتف وقتئذ الوزارة البريطانية بتحريض الباب العالي على تشجيع {عرايى} بواسطة سفيرها فى الاستانة بل أوحى الى الجرائد الانكليزية أن تساعد فى سياستها فنادت التيمس وزميلاتها وقتئذ بأن الطريقة الوحيدة لايقاف تيار القلاقل والاضطرابات فى مصر هى تداخل الدولة العلية واحتلال الجنود التركية للديار المصرية

وقد اتخذت الدولة العلية لسواس بريطانيا وحسبتهم صادقين فى أقوالهم مصافين لها فى مسألة مصر وظنت انه يمكنها الاعتماد عليهم وقررت حسب إشارتهم ارسال وفد لمصر لدراسة الاحوال فيها ورفع تقرير لجلالة السلطان. فحضر لمصر وفد مكون من على باشا نظامي وأحمد أسعد أفندي وقدرى أفندي. وقبل وصول هذا الوفد الى مصر بيومين صدرت الاوامر بسفر ألى (عرايى) الى التل الكبير وألى {عبد العال بك} الى دمياط لكي لا يجتمع عرايى وعبد العال باعضاء الوفد ولكنهما لم يسافرا وتقابلا مع الوفد عند حضوره. وقد حقق المغفور له (توفيق باشا) لاعضاء الوفد بانه متفق مع (عرايى) وانه راض عن جيشه. ولما علمت فرنسا وانكلترا بأن الدولة العلية أرسلت وفداً لمصر أرسلتا أسطوليها الى ميناء الاسكندرية. وقد غادر الوفد العثماني مصر وعاد للاستانة فى ١٩ أكتوبر عام ١٨٨١ وبعد سفره بارحت سفن فرنسا وانكلترا تفر الاسكندرية. وقد أشيع وقتئذ فى سائر أنحاء العالم ان الوفد العثماني كان مكلفا بتشجيع (عرايى) وحزبه واعتقدت الامة المصرية كلها بهذه الاشاعة وصارت تعتبر (عرايى) النائب الحقيقي عن جلالة السلطان فى

مصر والمدافع عن حقوقه فيها

وقد جرت انتخابات أعضاء مجلس النواب المصري في ١٠ نوفمبر عام ١٨٨١ وأظهر (شريف باشا) ارتياحه من النتيجة التي تمت عليها الانتخابات . واجتمع المجلس لأول مرة في ٢٦ ديسمبر من السنة نفسها وفي ٣١ يناير عام ١٨٨٢ نشرت جريدة (التيمس) الانكليزية مبادئ الحزب الوطني في مصر وهي تنحصر في ستة أمور : أولا الاعتراف بسيادة الدولة العلية مع المحافظة على الامتيازات الممنوحة لمصر . ثانيا الطاعة والاخلال لسمو الخديو مادام محترما لوعوده التي فاه بها في سبتمبر عام ١٨٨١ . ثالثا الاعتراف بالخدم الجليلة التي أدتها فرنسا وانكلترا لمصر وبان المراقبة الثنائية موافقة لحالة البلاد المالية ولازمة لضمانة حقوق الدائنين . رابعا المحافظة على الامن في سائر أنحاء مصر وضمانة أرواح وأموال الاهالي والنزلاء . خامسا اعلان مبادئ الحرية الدينية والسياسية في بلاد مصر واعتبار سائر المصريين سواء أمام القانون وتشكيل مجلس نواب مصري وتحديد حقوق كل سلطة . سادسا ترقية شأن البلاد بنشر التعليم في كل أرجائها

وقد أعجبت التيمس بمبادئ الحزب الوطني وأميله وأظهرت تخوفها من تداخل فرنسا في مصر تداخلا عسكريا وأبانت ان تداخل فرنسا أو أية دولة أوروبية في مصر تداخلا عسكريا يجر على مصر وعلى مصالح أوروبا فيها أكبر الاخطار . ولكن التيمس نسيت رأيها هذا بالمرّة ولم تتذكره عند احتلال الجنود الانكليزية لمصر بل صفقت لهذا

الاحتلال طربا واستحسانا

أما الأمة المصرية فقد أظهرت من مبدأ الحوادث العرابية ميلها لعرابي وموافقتها له على عمله وشجعت به بكل أنواع التشجيع . ولم يكن ذلك عن كراهة للمغفور له (توفيق باشا) الذي لم يسيء إلى الاهالي قط بل عن رغبة الأمة في نوال حريتها وتحقيق سعادتها واستقامة أحوالها . وقد أوجد حكم (اسماعيل باشا) في نفوس المصريين كافة بغضا شديدا للحكم المطلق وكراهة لدودة للسلطة الاستبدادية وتشوق الكل إلى جعل حكومة مصر حكومة دستورية شوروية حتى قام (عرابي) وجماعته فانضمت اليهم أصوات الأمة واجتمعت حولهم المئات والالوف من أبنائها . ونظراً لكون الجنود كانوا في قبضة يمين « عرابي » فإن الفلاحين البسطاء أنفسهم كانوا يهللون ويكبرون عندما يذكرون اسم « عرابي » وكانوا ينتظرون من ذلك المصري البحت السعادة المرغوبة والرفاهية المأمولة

وهذه الحركة الوطنية التي لم يعهد لها مثيل من قبل في الأمة المصرية كانت تعود ولا محالة على مصر بالفوائد الجمّة والتقدم السريع لو كانت وقفت الأمور في الحوادث العرابية عند حد محدود . ولكن الشقاق والطمع والجهل والدسائس الاجنبية أوقعت البلاد في حضيض الذل والهوان بعد ان كانت مشرفة على الخير والسعادة والحرية

وقد تعين { عرابي } وكيلا لوزارة الحربية في ٤ يناير عام ١٨٨٢ وازدادت بذلك سلطته في الجيش وقوى نفوذه واجتمع حوله من الاهالي

خاق كثيرين . وقد كثرت عندئذ الاشاعات بان الدولة العلية مساعدة لعرايى سرأ وانها تجتهد فى استماله بعض الدول الاوروبية تعضيدها على محو حقوق العائلة الخديوية وجعل مصر ولايه عثمانية كالشام وطرابلس واستدل الناشرون لهذه الاشاعات على صحتها — وما كانوا الا سماسرة للانكليز — بان الدولة العلية أرسلت على نظامي باشا ورشيد بك الى برلين وفيينا فى مأمورية سرية . وادعوا أن هذه المأمورية انما هى السعى فى بلوغ تلك الغاية

ولا شك ان هذه الاشاعات كان من شأنها ان تزيد فى النفور والشقاق بين المغفور له (توفيق باشا) وبين جلالة السلطان الاعظم وكان الانكليز يستخدمونها عند الخديو ويجسمونها له ليلتعد عن الدولة العلية ويبقى دائماً تحت سلطتهم وآلة فى أيديهم

ولما رأأت فرنسا ان نفوذ الحزب الوطنى يزداد كل يوم وان كل شىء فى مصر صار فى قبضة العسكرية خافت على مركز الخديو وأرسلت بالاتفاق مع انكلترا مذكرة لوكيلها فى مصر أمرته فيها كما أمرت انكلترا وكيلها أن يبلغ المغفور له (توفيق باشا) ان فرنسا وانكلترا متفتتان على مساعدته كل المساعدة ضد المصاعب القائمة فى وجهه وانهما تعتبران سلامة مصر وسلامة مصالح أوروبا بها فى بقاءه على كرسى الخديوية

فكانت هذه المذكرة بمثابة اعلان للعالم كله بان فرنسا وانكلترا متفتتان كل الاتفاق فى المسئلة المصرية وانهما تعملان بالاشتراك . ولو

كانت فرنسا اتبعت هذه السياسة الى النهاية لكانت سلمت مصر من مخالب انكلترا ولكانت بقيت المصالح الفرنسية في مأمن من الخطر . وقد أظهرت الجرائد الانكليزية سخطها على حكومة بلادها لاتفاقها مع فرنسا واشتراكمها معاني ارسال هذه المذكرة . وبالجملة كانت الصحف الانكليزية تلح كل يوم على وزارة انكلترا بالانفصال عن فرنسا والعمل بالانفراد أما الباب العالي فقد احتج على ارسال هذه المذكرة بكتاب بعث به لسفرائه في الخارج بتاريخ ١٣ يناير عام ١٨٨٢ مظهرا فيه ان للدولة العلية وحدها حق التداخل في مصر بصفتها صاحبة السيادة عليها . فضلا عن انه لم يحصل بمصر أقل أمر يحمل فرنسا وانكلترا على ارسال هذه المذكرة

ومن سوء حظ مصر أن وزارة « غمبتا » سقطت في فرنسا وقتئذ واستبدلت بوزارة « فريسينيه » . وكانت سياسة « غمبتا » في المسئلة المصرية واضحة صريحة ترمي الى السير مع انكلترا في كل خطواتها ومشاركتها في كل عمل وعدم تركها تعمل شيئا ما بانفرادها . ولو كان « غمبتا » بقي رئيسا لوزارة فرنسا لكانت اشتركت مع انكلترا في احتلالها مصر وكانتا خرجتا معاً أو لكانت اجتبتت فرنسا وانكلترا ضرب الاسكندرية واحتلال مصر . وعلى أى حال كانت نجت بلادنا العزيزة من الوقوع في أيدي الانكليز . ولكن بلية الجمهورية الفرنسية ان وزارتها قصيرة الاجل وقد سن مجلس النواب المصري بعض القوانين ولكنه لم يتفق مع وزارة « شريف باشا » على مسئلة المناقشة في الميزانية المصرية . فشرىف باشا كان يرى أنه يسوء فرنسا وانكلترا ان مجلس نواب مصر يتناقش في كل فروع

الميزانية حتى فيما يختص بالديون ويغير ويبدل فيها كيف يشاء مع ان هاتين الدولتين عينتا لجنة مراقبة لتقرير الميزانية مع الحكومة المصرية ومراقبة سيرها . ومجلس النواب المصرى كان يرى انه من اول حقوقه وواجباته دراسة الميزانية والمناقشة فى موضوعاتها موضوعا موضوعا . وبذلك حصل الخلاف بين المجلس وبين الوزارة الشريفية واضطر (شريف باشا) للاستقالة هو وبقية النظار فى يوم ٢ فبراير عام ١٨٨٢ . وقد تعين « محمود باشا سامي البارودي » رئيسا للنظار بدلا منه وتعين « عمري » وزيرا للحربية وأعطى لقب باشا هو وبعض زملائه من رجال العسكرية . واتفق محمود باشا سامي مع أعضاء مجلس النواب بشأن الميزانية فقرر معهم انتخاب لجنة منهم يكون عددها مسايا لعدد النظار تدرس مع النظار الميزانية وأن يكون تقرير الميزانية باجماع أصوات أعضاء اللجنة والنظار معاً أو بالأغلبية . وانه اذا وقع خلاف بين النظار وبين أعضاء اللجنة أو تساوت الاصوات يعرض الامر على المجلس للفصل فيه وقد أغضب سقوط وزارة (شريف باشا) سائر الدائنين واعتبرت فرنسا وانكلترا تمسك مجلس النواب المصرى بدراسة الميزانية كلها وتقريرها حسب مرامه اعتداء على حقوق المراقبة الثانية أى اعتداء على حقوق الدولتين فى مصر . وقد استعفى وقتئذ المراقبان الفرنسي والانكليزى . وكان ولا محالة من الحكمة والصواب ان الحزب الوطنى فى مصر يقف عند حد محدود فى هذه الاوقات المضطربة ويرضى بالنتائج السامية التى نالها . وكان من نهاية السداد فى الرأي

والتبصر في العواقب ان النواب المصريين يرضون بدراسة الميزانية الا
مايختص بالديون فيها . ولكن قضي على رجال الحزب الوطني في مصر
يومئذ ان يتمسكوا بأمر أضع عليهم التمسك به أتباعهم وجرّ على الوطن
المصري أشد البلاء . على أن نوال الحرية والعدالة والمساواة في أمة
لايكون دفعة واحدة ولا يأتي في يوم واحد . وانه كان يكني الحزب
الوطني أن ينال تشكيل مجلس نواب مصرى ومنح المصريين الحقوق
السياسية والمالية التي لسائر الافراد في الامم المتعدنة . فانها خير نتيجة
يحق لكل مصرى محب لبلاده أن يفتخر بها

ومما زاد في تخوف الاوروبيين وهلمهم هو تعيين { عرابي } وزيراً
للحربية فانهم كانوا يعتبرونه المحرض لمجلس النواب المصرى علي طلب
المناقشة في كل فروع الميزانية والمسبب لسقوط وزارة { شريف باشا }
وانعامل على الاضرار بمصالح أوروبا وبمصالح رعاياها باستلام زمام القوة
والسلطة في مصر

وقد قام المسيو { دلافوس } في مجلس النواب الفرنساوي في يوم
٢٣ فبراير عام ١٨٨٢ وسأل المسيو (فريسينيه) رئيس الوزارة ووزير
الخارجية عن الخطة السياسية التي تنوى فرنسا اتباعها بعد تغيير الوزارة
المصرية وحدوث هذا الانقلاب العظيم . فأجابه المسيو (فريسينيه) بان
فرنسا وانكلترا تتخبران مع أوروبا في الامر وتعملان لاشراك الدول
معهما في مسألة مصر

ولما كانت الدسائس الاجنبية عاملة على تفريق كلمة المصريين

وتقويض أركان الاستقلال المصرى أو عن المفسدون وسماسة السوء الى جماعة من الجراكسة بانفتك بعراى وأنصاره واثخلص منهم . ولكن أحدهؤلاء الجراكسة لم يقبل الاشتراك في هذه الدسيسة وأخبر (طلبه باشا) بأمرها فكتب هذا الاخير الى نظارة الجهادية والى رئاسة النظار والى سمو الخديو بتفصيل المسئلة . وعندئذ تقرر محاكمة الجراكسة المتهمين بتدبير المكيدة . وقد حوكموا وصدر الحكم عليهم بالابعاد الى السودان فلما علم المرحوم « توفيق باشا » بالحكم أرسل تلغرافيا الى الحضرة السلطانية يعرض عليها الامر ويسألها عما يجب عليه عمله . وقبل وصول الرد السلطانى تداخل قنصل فرنسا الجنرال وقنصل انكلترا الجنرال وطلبا من الجناب الخديوى تعديل الحكم بالابعاد الى الشام . فعمل العزيز برأيهما وسافر الجراكسة الى الشام . وقد نشأ من ذلك نفور بين العزيز وبين وزارته وكتب قنصلا فرنسا وانكلترا الى دولتيهما بان « محمود باشا سامى » هدد حياة الخديو وحياة الاوربيين في حضرة الخديو نفسه فاتفقت الدولتان على ارسال أسطوليهما الى مياه الاسكندرية . وبعثتا في ١٦ مايو عام ١٨٨٢ مذكرة الى الباب العالى أعلنتاه فيها باتفاقهما على ارسال أسطوليهما الى ثغر الاسكندرية وسألته عدم إرسال الاسطول التركى وعدم الاشتراك معهما . وقد أجاب الباب العالى على هذه المذكرة بتاريخ ١٧ مايو بان الدولة العلية هي وحدها دون غيرها صاحبة السيادة على مصر وانه ليس لاحد غيرها حق التداخل في شؤون هذه البلاد وأرسل في الوقت نفسه تلغرافا الى وزراء مصر أمرهم فيه بعدم مخالفة

أوامر الجناب الخديوى

وبعد ان جاء الاسطولان الفرنساوى والانكليزي الي مياه الاسكندرية رفع وكيلا دولتي فرنسا وانكلترا في ٢٥ مايو عام ١٨٨٢ كتاباً الى سمو الخديو ذكر له فيه أن { سلطان باشا } رئيس مجلس النواب المصرى رأى ان وطنيته تقضي عليه بأن يعرض على (محمود باشا سامى) رئيس الوزارة المصرية الاقتراحات الآتية التى تضمن راحة مصر وسلامتها وهي : أولاً إبعاد { عرابى باشا } عن مصر إبعاداً مؤقتاً مع بقاءه في رتبته العسكرية ونقده مرتبه الشهرى . ثانياً إبعاد (على فهمى باشا) و (عبدالعال حلمي باشا) الى داخل البلاد المصرية . ثالثاً استعفاء وزارة محمود باشا سامى . وأبأن وكيلا دولتي فرنسا وانكلترا سمو العزير أنهما يعضدان رأي (سلطان باشا) كل التعضيد ويطلبان من الجناب الخديوى تنفيذ اقتراحاته الثلاثة

وقد دل هذا الكتاب على وجود اختلاف في الرأى بين الحزب العسكرى وبين بعض أعضاء مجلس النواب الذين كانوا يعملون برأى رئيسهم. أما المرحوم (توفيق باشا) فقد قبل كتاب وكيلى فرنسا وانكلترا ورأى رأيهما خلافاً لوزرائه . وقد اجتمع النظار عندئذ ورأوا تقديم استعفائهم الى الخديو بعله ان قبول مطالب وكيلى فرنسا وانكلترا يعتبر اجحافاً بحق جلاله السلطان في مصر وتداخلاً أجنبياً في شؤون مصر الداخلية . كأن أعضاء الوزارة المصرية كانوا يجهلون يومئذ ان فرنسا وانكلترا تداخلتا من قبل في شؤون مصر الداخلية وان هذه ليست

بأول مرة تداخلت فيها الدولتان

ولاريب أن كل مصري يخلص الحب لبلاده ويتألم من نتائج الحوادث
العرايية الوخيمة يرى انه كان يجب على (عراي باشا) أن يتعد عن
مصر ويعمل برأي (سلطان باشا) لتطمئن الحواطر وتزول أسباب التداخل
الاجنبي . نعم ان (عراي باشا) كان يحزنه كثيرا أن يترك مصر بهذه الحالة
ويترك خصومه يعتبرون خروجه من مصر هزيمة معنوية له ولحزبه ولكن
رجلا مثله قام بدعوة أمته للحرية والاستقلال الداخلي وتولى رئاسة الحزب
الوطني فيها كان يجب عليه ان يقلب نظره في التاريخ ويتذكر أن انكلترا
شرعت في أوائل القرن الحاضر في الاستيلاء على مصر وانها تمنى نفسها
دائما بهذه الامنية العزيزة وأن اضطرابات مصر وقلقلها لا تفيد الا هذه
الدولة الماهرة في السياسة ذات الدسائس القوية والمكائد العظيمة وكان
يتحتم عليه (أي على عراي) أن يخرج من بلاده ويدفع عنها الخطر
وقد أجاب (عراي باشا) على اعتراض القائمين بضرورة خروجه من
مصر وقتئذ بأن خروجه يعتبر من جهة تنفيذاً لا واصر فرنسا وانكلترا في
مصر وتبريراً لتداخل هاتين الدولتين في أحوال البلاد الداخلية ويجعل من
جهة أخرى أنصاره تحت رحمة أعدائهم وعلى خطر عظيم . ولكن هذا
الجواب ضعيف جدا فان فرنسا وانكلترا تداخلتا في أحوال مصر الداخلية
في عهد اسماعيل باشا وهما اللتان عزلناه باستمالة الحضرة السلطانية
اليهما . ومن مبدأ الحوادث العرايية تداخلت الدولتان . و (عراي باشا) نفسه
كان يعتقد ان السير د ماليت ، قنصل جنرال انكلترا هو أول من نصح

الخديو في يوم ٩ سبتمبر عام ١٨٨١ - أي يوم مظاهرة الجنود المصرية تحت رئاسة «عراي» في ميدان عابدين - بعزل الوزارة الرياضية وقبول طلبات الجيش . أما من حيث الخطر الذي كان يخافه «عراي باشا» على انصاره بعد خروجه من مصر فهو خطر وهمي . لأن «عراي باشا» كان يعلم جيداً أن في أنصاره رجالاً كثيرين يغارون مثله على حقوق بلادهم ويطالبون بحريتها وتسليم زمام أمورها لابنائها . فلو كان «عراي باشا» خرج من وطنه وأتبع رأي «سلطان باشا» لكانت هددت الاحوال وبطلت دسائس أعداء مصر وفشلت مكائدهم ولكان بقي شريفاً جليلاً في أعين العالمين غير متحمل للمسئولية الكبرى التي يتحملها اليوم أمام الوطن وأمام التاريخ بالرغم عن حسن نيته وصدق اخلاصه لوطنه

وقد اجتهدت الوزارة قبل استعفائها في عقد مجلس النواب ولكن الخديو لم يقبل اصدار الامر بعقده . بل قبل استعفاء الوزارة واشتغل بتشكيل وزارة جديدة . ولما كانت السلطة العسكرية في قبضة يمين «عراي» رأى «سلطان باشا» وأصدقاؤه من أعضاء مجلس النواب أنه اذا لم يتعين «عراي» باشا «وزيراً للحربية» كما كان اشتد النفور بينه وبين العزيز وأوسع الخرق على الراقق فعرضوا على الجناب الخديوي إرجاعه في وظيفة ناظر الحربية . فقبل المغفور له (توفيق باشا) ذلك وعين «عراي باشا» وزيراً للجهادية للمرة الثانية

وعندئذ عرضت فرنسا على كافة الدول الأوروبية ان تسأل معها الباب العالي استدعاء «عراي» ورفقائه الي الاستانة للتشرف بمقابلة جلالة

السلطان وتلقى أوامره فاشتركت معها الدول في هذا الطلب ولكن انكثرا نصحت الباب العالي بعدم قبول طلب الدول وبارسال مندوب عثمانى لدراسة الاحوال في مصر . فاتبع الباب العالي نصيحة انكثرا وعمل بها

ولما كانت السياسة الانكليزية في الحوادث العرابية سياسة ذات وجهين فقد سحب السير (ماليت) قنصل انكثرا الجنرال بمصر كتابه الذي أرسله لسمع الخديو في ٢٥ مايو بالاشتراك مع قنصل فرنسا وأرضي بذلك الحزب الوطني . وقد اعتبر هذا العمل مبدأ لانفصال انكثرا من فرنسا في المسئلة المصرية . وعند ما رأيت فرنسا ذلك عرضت على الدول الاوروبية عقد لجنة دولية بالاستانة للمداولة في مسئلة مصر فقبلت الدول واتفقت على احترام التعهدات الدولية المختصة بمصر واحترام فرماني عام ١٨٧٣ و ١٨٧٩ وقد دارت المناقشة في مجلس النواب الفرنسي في أول يونيو عام ١٨٨٢ على مسئلة مصر . وكان الرأي العام الفرنسي وقتئذ ميالا لعراي وحزبه متصراً للدعوة التي هم قائمون بها وكان يأبى تدخل فرنسا في مصر تداخلا عسكريا وقد وقف المسيو (دلافوس) على منبر الخطابة وسأل وزير خارجية فرنسا عن السياسة المتبعة لها فرنسا في الازمة المصرية فأجابه المسيو (فريسينيه) بان سياسته مقتضاها عدم تدخل فرنسا في مصر تداخلا عسكريا وعدم ترك الدولة العلية ترسل جنودها لمصر . وكانت حجته في معارضة مجيء الجنود التركية لمصر هي ان تدخل تركيا في مصر يرفع من شأن الدولة العلية في أعين المسلمين كافة ويكون سببا لقيام

التونسيين والجزائريين في وجه فرنسا . وقد ندد المسيو (دولافوس)
 بسياسة المسيو { فريسينيه } وقال ان مصلحة فرنسا تقضي عليها بالاتفاق
 مع تركيا والعمل على رفع شأنها ليسهل لها حكم المسلمين واستمالتهم
 نحوها وأثبت أن حل المشكلة المصرية لا يكون الا بتدخل الدولة العلية
 . وقد ألقى المسيو (نغمبتا) في هذه الجلسة نفسها خطبة طويلة على المسئلة
 المصرية نصح فيها الوزارة الفرنسية بعدم ترك انكلترا تعمل بانفرادها
 وبأن تشارك معها في كل عمل وأنذرها بسوء العاقبة اذا بقيت على الحيادة
 وتركت مصر لانكلترا

وان السياسة التي اتبعها المسيو (فريسينيه) لسياسة خرقاء فانه أبى
 التدخل في مسألة مصر تدخلا عسكريا وعارض الدولة العلية في ارسال جنودها
 لمصر . وكانت نتيجة هذه السياسة تدخل انكلترا وحدها وسقوط
 مصر في قبضتها !

وقد جرت مناقشة في مجلس النواب الانكليزي في يوم ١ يونيو
 نفسه على مسألة مصر قال فيها المستر (غلادستون) بصفته رئيسا للوزارة
 الانكليزية ان (عمراني) يعمل على عزل توفيق باشا وتعيين البرنس « حليم »
 مكانه ولكن الدول متفقة على تعضيد الحديد والحالي { أي توفيق باشا } وانها
 اذا كانت لا تريد احتلال جنودها لمصر فذلك لانهم يخاف اشتعال نيران
 التعصب الديني في مصر وجعل حياة الحديد في خطر »

وهو تصريح من الغرابة بمكان . وما كان يقصده المستر { غلادستون }
 الا زيادة استمالة توفيق باشا الى الانكليز وثقته بهم واعتماده عليهم

وما علم سواها بريطانيا بتصريحات المسيو «فريسينيه» حتى طاروا بها فرحا وتحققوا أن الجوا خلاصهم واهتموا بتدبير الدسائس لاحتلال مصر وقد رأت انكلترا وقتئذ انها في حاجة لتعزير تركيا وتفهمها أن نواياها حسنة من جهتها في مسألة مصر فأوحى الي المغفور له { توفيق باشا } بان يطلب من الحضرة السلطانية ارسال مندوب عثمانى عال لمصر وعززت هذا الطلب في الاستانة . فأجابت لدولة طنب الحديو وحضر { درويش باشا } الي مصر حيث وصلها في ٧ يونيو عام ١٨٨٢ . وكان للانكليز مصلحتان في حضور { درويش باشا } لمصر : أولا تفهم رجال الدولة العلية بانهم يريدون تداخلها في مصر . ثانيا تشجيع الدولة بواسطة (درويش باشا) لرجال الحزب الوطني في مصر

وكان وكلاء انكلترا في مصر وصنائعها يعملون وقتئذ على احداث اضطراب عظيم . فكنت تري السير (ماليت) قنصل انكلترا الجنرال ينصح الانكليز المقيمين في مصر بالسفر لاوروبا « نجاة من خطر قريب الحدوث » . وكنت تري المستر (كوكسون) قنصل انكلترا بالاسكندرية يفرق بنفسه الاسلحة والذخائر على الانكليز القاطنين بالاسكندرية — وقد أرسلت اليه هذه الاسلحة والذخائر من الاسطول الانكليزي الواقف في نهر الاسكندرية —

وقد وضع المستر « كوكسون » بالاشتراك مع الضابط الانكليزي «ماريوت» خطة للدفاع عن الاوربيين ضد المصريين وهي تقتضي تسليح ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ اوروبي بالاسكندرية . وقد أخبر المستر « كوكسون » بهذه

الخطّة زميله الفرنسي في ٧ يونيو عام ١٨٨٢ وأبلغها لوكلاء الدول في القاهرة غير أنهم لما علموا بها صرحوا جميعاً بأن هذا التسليح يحدث اضطراباً عظيماً في البلاد وهي اجاعاما وأمروا قناصل دولهم في الاسكندرية بالامتناع عن كل عمل عدائي

ولكن المستر « كوكسون » لم يرضخ لقرار وكلاء الدول بالقاهرة وسلح كل المالطين وجميع اليونانيين وسائر سفلة الافرنج الموجودين بالاسكندرية مما يدل دلالة صريحة على ان المدير لمذبحه الاسكندرية والمسبب لها انما هي انكلترا دون سواها

وقد ابتدأت المذبحة بمشاجرة وقعت بين مالطي وجمار مصري وأطلقت فيها البنادق من الشبابيك على المصريين واستمرت طول يوم ١١ يونيو المشؤوم . ويحقق الكثيرون بأن المالطي الذي سبب المشاجرة والمذبحة هو شقيق خادم المستر (كوكسون) نفسه

وقد اجتذت فرنسا وانكلترا انزال عساكرهما الى البر وقت مذبحة الاسكندرية . وذلك بناء على رأى انكلترا التي كانت تخاف اشتراك فرنسا معها في احتلال مصر

ولما انتشر خبر مذبحة الاسكندرية في أوروبا ادعى كتاب الانكليز وسواسهم ان سبب هذه المذبحة هو التعصب الديني عند المصريين . ولكن الحقيقة التي لا ريب فيها هي أن الانكليز وصنائعهم هم أصل هذه المذبحة المشؤومة وهم الموجودون لها . وقد صرح المسيو (دى فريسينيه) رئيس الوزارة الفرنسية في ١٢ يونيو أمام مجلس الشيوخ « بأن عدة

أسلحة أعطيت للمالطين قبل المذبحة بأيام قلائل وان نسبة المذبحة لتعصب
الديني خطأ محض ، وأثنى المسيو { دي فريسينه } على خطة حكومة مصر
في هذه الحادثة

ولما علمت الحكومة المصرية بمذبحة الاسكندرية أرسلت في الحال
(يعقوب باشا سامي) وكيل الجهادية على رأس الألبان من البيادة وبطاريتين
من الطوبجية وأورطتين من السواري لحفظ الامن العام في الاسكندرية
واعادة السكنية بين أهاليها

وقد أرادت الحكومة المصرية اجراء تحقيق بشأن مذبحة الاسكندرية
واظهار الحقيقة فيها وعرضت على فرنسا وانكلترا عقد لجنة مكونة من
تسعة أعضاء مصريين ومن تسعة أوروبيين لاجراء هذا التحقيق فرفضت
انكلترا ذلك بتاتا

وفي صبيحة مذبحة الاسكندرية أرسلت ايطاليا والنمسا أسطوليهما
الى مياه الاسكندرية للمحافظة على حياة رعاياهما. وفي ذلك اليوم نفسه
وقف اللورد سالسبوري في مجلس اللوردات وعنف الحكومة الانكليزية
على عدم احتلالها الاسكندرية وقت المذبحة فأجابه اللورد (غرانفيل) بان
الوزارة الانكليزية تركت للاميرال { سيمور } الحرية التامة فهو يعمل مستي
رأى لزوء العمل. ولا شك أن كل سواس بريطانيا كانوا يعلمون ان السبب في
عدم تدخّل الاسطول الانكليزي وقت مذبحة الاسكندرية وعدم نزول
المسافر الانكليزي الى البر هو تخوف الاميرال الانكليزي من اشتراك
الاسطول الفرنسي معه في الامر

وقد سافر الجناب الخديوي و(درويش باشا) والقناصل الى الاسكندرية بعد المذبحة لتطمئن خواطر النزلاء وتم السكنينة المدينة. وتشكلت عندئذ الوزارة المصرية في ١٧ يونيو عام ١٨٨٢ تحت رئاسة (راغب باشا) وبقي فيها (عمر ابي باشا) وزيراً للحربية

ولما شعرت دول فرنسا والروسيا والمانيا والنمسا واطاليا باشتداد الازمة ألحت على الدولة العلية بضرورة اشتراكها مع باقي اللجنة الدولية المزمع عقدها بالاستانة. ولكن سواس تركيا أصغفوا لنصائح الانكاز ورفضوا الاشتراك مع الدول الاوربية معلنين ذلك بان اشتراك تركيا في اللجنة الدولية يعتبر اعترافاً منها بأن حقوقها في مصر تعادل حقوق الدول الاخرى. وقد اضطر مندوبو الدول وقتئذ أن يجتمعوا في الاستانة بدون اشتراك سواس تركيا معهم. وحضر هذه اللجنة رسمياً اللورد (دوفرين) بصفتة مندوباً عن الحكومة الانكليزية وأمضى مع بقية المندوبين في ٢٥ يونيو عام ١٨٨٢ القرار أو البروتوكول الآتي :

« تمهد الحكومات التي يمضي مندوبوها على هذا القرار بانها في كل اتفاق يقع بشأن تسوية المسئلة المصرية لا تجتث على امتلاك شيء من أراضي مصر ولا على الحصول على امتياز خاص بها (أي باحدي الحكومات دون سواها) ولا على نوال امتياز تجاري لرعاياها يكون غير ممكن لرعايا الحكومات الاخرى نواله »

وهذا التقرير يعتبر تعهداً من دول أوروبا بعدم المساس بحقوق مصر وبعدم الاعتداء عليها. وهو تمهد قبلته الحكومة الانكليزية على نفسها

كسائر الحكومات الاوروبية وأمضاه بالنيابة عنها اللورد { دوفرين } أي سياسي من أكبر سواها . ويمكننا أن نعتبر هذا التعهد - بقطع النظر عن تصريحات جلالة الملكة ووزراء انكلترا بشأن الجلاء - احتجاجا أديا من أوروبا ضد احتلال الانكليز لمصر ومن انكلترا نفسها ضد عملها في بلادنا .

وفي أثناء اشتغال اللجنة الدولية في الاستانة بالمداولة والاتفاق على حل الازمة المصرية كانت انكلترا تجهز سفنها وتستعد لتقوية أسطولها في الاسكندرية وكانت الجرائد الانكليزية تلح على حكومة بلادها باحتلال مصر وحدها . وقد أثرت كتابات الجرائد الانكليزية على الرأي العام الانكليزي وصار يطالب الحكومة البريطانية بالعمل وحدها حتى أن اللورد (كامبرلي) وزير المستعمرات وقف خطيبا وقال . ان انكلترا بالرغم عن ميلها للسلام واحترامها لآراء أوروبا لا يمكنها أن تترك - سلامة قتال السويس للصدفة أو ان تهمل الدفاع عن مصالحها في الشرق . وعندئذ أنذر الاميرال (سيمور) الحكومة المصرية بانها اذا عملت أي عمل عدائي ضد أسطوله ضرب الاسكندرية ودمرها .

وقد اهتمت فرنسا بتجهيز سفنها أسوة بانكلترا وعرض المسيو (فريسنيه) يوم ٨ يوليو عام ١٨٨٢ على مجلس النواب الفرنسي طلب ثمانية ملايين من الفرنكات لهذا الغرض الا أنه صرح بأنه لا يقصد ارسال جيش فرنساوي لمصر وانه لا يأمر بتدخل فرنسا في وادي النيل تداخلا عسكريا الا بقرار من مجلس النواب نفسه وان القصد بتجهيز السفن

هو الاستعداد للطواريء

ولما رأته انكلترا ان من صالح سياستها زيادة التقرب بين عرابي باشا وبين الحضرة السلطانية وزيادة النفير بين عزيز مصر وبين جلالة السلطان أشارت على رجال الدولة العلية - الذين لم يسيثوا الظن بالانكليز لحظة واحدة في الحوادث العرابية كلها - بارسال نيشان لعرابي اظهاراً لرضي جلالة السلطان عنه وامتنانه من خطته وعمله ، فعمل رجال الدولة باشارة انكلترا وأرسل النيشان المجيدي الاول مع الفرمان الخاص به لعرابي باشا . فكان هذا الانعام تشجيعاً لعرابي وحزبه وتغييراً للجناب الخديوي من الدولة العلية . وكان من شأنه ان يحمل عزيز مصر على الالتجاء الى الانكليز

وعند ما تحقق رجال السياسة الانكليزية من أن فرنسا لا تتدخل في مصر تداخلاً عسكرياً وانها تجتنب ذلك كل الاجتناب أمروا الاميرال الانكليزي {سيمور} بخلق الاسباب الداعية لضرب الاسكندرية . فأرسل هذا الاميرال انذاراً للحكومة المصرية بانها ان لم تكف عن اصلاح الاستحكامات ضرب الاسكندرية لأنه يعتبر اصلاح الاستحكامات أو ترميم الطوابي تهديداً للأسطول الانكليزي !!! فأمر الخديوي بناء على أمر الحضرة السلطانية بابطال اصلاح الاستحكامات وعدم ترميم الطوابي . فامثل رجال الجيش أمره وأبطالوا كل اصلاح وكل ترميم في الاستحكامات والطوابي غير ان الاميرال (سيمور) كان مكافئاً بخلق الاسباب لضرب الاسكندرية فلذلك أرسل انذاراً ثانياً للحكومة المصرية قال لها فيه ان عمالها يقنلون

بوغاز الاسكندرية بالأحجار وأنهم ان لم يمتنعوا عن رمي الاحجار أمر
 أسطوله بضرب الاسكندرية . فأجابته الحكومة المصرية بانها لم تأمر
 مطلقاً باقفال بوغاز الاسكندرية وان عمالها لم يرموا فيه أحجاراً وأن
 لاحقية البتة لهذه الدعوى . وسمح له وكيل البحرية المصرية بالقبض على
 كل من يرمي أحجاراً في البوغاز . ولكن الاميرال { سيمور } لم يقتنع بالحق
 وأرسل في يوم ١٠ يوليو عام ١٨٨٢ خطاباً آخر للحكومة المصرية ادعي
 فيه كذباً أنها تشتغل بوضع مدافع جديدة في طابية صالح والمكس وقائد
 بك وأنذرها بانها ان لم تسلمه جميع المدافع والاسلحة الموجودة في طوابي
 الاسكندرية من العجمي الى قائد بك ضرب الاسكندرية !

ولما علم قنصل الدول بالاسكندرية بتهديدات الاميرال { سيمور }
 للحكومة المصرية كتبوا اليه كتاباً سألوه فيه ان يمتنع عن ضرب الاسكندرية
 لان هذا العمل يضر بمصالح الاوروبيين كافة ويدمر منازلهم وأملأهم
 وتعهدوا له بالاتفاق مع الحكومة المصرية على ما يرضيه . فأجابهم الاميرال
 بان منازل الاوروبيين وأملأهم ستكون في مأمن من الخطر لانه لا
 يقصد الاتدمير طوابي الاسكندرية . وكان يريد الاميرال { سيمور }
 بهذا الجواب تطمين خواطر القناصل ولكنه كان يعمل لتدمير الاسكندرية
 كلها وتكليف الحكومة المصرية بدفع الغرامات الطائلة !

وقد عقد المغفور له { توفيق باشا } مجلساً من الوزراء تحت رئاسته في
 يوم ١٠ يوليو لتقرير ما يلزم عمله نحو الاميرال { سيمور } وحضر هذا
 المجلس { درويش باشا } المندوب العثماني العالي واتفق كل الحاضرين في

المجلس على ارسال ناظر المالية وناظر الخارجية ووكيل البحرية وأحدرجال
 المعية الى الاميرال (سيمور) ليلفوه أن طوابى صالح والمكس وقائد بك
 هى كما كانت فى عهد ساكن الجنان (محمد على باشا الكبير) وانه ليس
 بها أشغال ولم توضع فيها أسلحة ولا مدافع جديدة وان الحكومة
 المصرية تقبل انه (أى الاميرال سيمور) يطلع عليها . فتوجه الاربعة
 المذكورون وأبلغوا الاميرال (سيمور) هذا الجواب فلم يمتنع به بل كرر
 طلبه الاول بشأن تسليمه الاسلحة والمدافع الموجودة فى الطوابى . فلما
 عرض هذا الطلب على سمو الخديو وعلى النظار أقر رأي الجميع على
 ان قبوله يكون عارا كبيرا على مصر وانه اذا أطلقت السفن
 الانكليزية على الطوابى أجابها الطوابى بعد خروج خمس أوست طلقات
 من مدافع السفن الانكليزية حتى تقع المسؤولية كلها على الاسطول الانكليزى
 وأرسلت الحكومة المصرية فى مساء ١٠ يوليو عام ١٨٨٢ كتابا الى الاميرال
 (سيمور) قالت له فيه « انها لم تعمل شيئا مما يستوجب اعتداء الاسطول
 الانكليزى على ثغر الاسكندرية وانها محافظة على شرفها ومقامها لا تقبل
 مطلقا تسليمه الاسلحة والمدافع الموجودة فى الطوابى وانها تلتقي مسؤولية
 النتائج الوخيمة التى ستنتج من ضرب الاسكندرية على الامة التى اعدت
 بغير سبب وبدون اعلان الحرب بينها وبين مصر على الاسكندرية تخالفة
 فى ذلك القانون العام ونواميس الحرب »

ولما علم المسيو (فرسينيه) وزير خارجية فرنسا بالانذار الاخير
 الذى أرسله الاميرال « سيمور » للحكومة المصرية أمر الاسطول

الفرنساوي — الذي كان واقفاً في مياه الاسكندرية بجوار الاسطول الانكليزي — بالابتعاد عن الاسكندرية والسفر الى بورسعيد . وبذلك قضت فرنسا على مصالحها في مصر وخالفت سياسة قرن كامل وارتكبت أكبر خطأ سياسي في تاريخها . ولقد تحمل المسيو « فريسينيه » تبعه هذا العمل وصار مبعوضاً في أمته واتهمه الكثيرون من الفرنسيين بالخيانة وبأنه باع شرف فرنسا الانكترا . ولكن للحوادث العرابية ولسياسة الدول فيها أسرار لم يكشفها لنا التاريخ الى اليوم . وعلى كل حال فان المسيو « فريسينيه » اتبع في الحوادث العرابية سياسة خرقاء وأوجد لبلاده مشكلة لا تقص عن مسألة الازراس والاورين أهمية وخطارة

وقد أرسل اللورد (غرانفيل) في ١٠ ساء ١٠ يوليه مذكرة للدول الاوروبية أخبرها فيها « بان ضرب الاسطول الانكليزي للاسكندرية ليس الادفاعاً اقتضته الضرورة وان انكترا الانوى ضد مصر شيئاً آخر » . فهاهي الظروف التي اقتضت ضرب الاسكندرية وما هذا الدفاع ؟ ألم يكن الاسطول الفرنسي واقفاً بجوار الاسطول الانكليزي فلم يدع أن طوابي الاسكندرية تهدده ؟ ألم تكن سفن ايطاليا والنمسا واقفة في ميناء الاسكندرية فلم تدع ان طوابي الاسكندرية تهددها وانه يجب عليها الدفاع عن نفسها ؟ ألم يعترف قناصل الدول بالاسكندرية بان الحكومة المصرية اتبعت مع الاميرال (سيمور) تساهلاً لا مثيل له وانهم لم تهدد أسطوله أبداً ؟ ألم تسمح الحكومة المصرية للاميرال (سيمور) بالقبض على كل من يرمى أحجاراً في قنال الاسكندرية ؟ ألم تسمح

له بتمتدش طوابي الاسكندرية ؟ وهل أطلقت طوابي الاسكندرية مدافعها
على الاسطول الانكليزي حتى اضطر للمدافعة عن نفسه ؟
ان هذه الرواية المخزنة لعار كبير على دولة تدعي محبة العدل والانسانية
ولفضيحة تبقى حديثاً للامم على تعاقب الايام والسنين
وما طاعت شمس يوم الثلاثاء ١١ يوليو عام ١٨٨٢ - وهو أسوأ أيام
مصر وأشقاها - حتى أطلقت السفن الانكليزية كلها المدافع على الطوابي
المصرية وبعد خروج نحو ١٥ كلة من مراكب الاسطول الانكليزي
أجابتها الطوابي المصرية واستمر الفريقان على اطلاق الككل مدة عشر
ساعات متوالية حتى تهدمت الطوابي كلها وتدمر جزء من سراي
رأس التين واحترقت منازل عديدة . وقد اجتمع مجلس النظاري مساء
ذلك اليوم العبوس تحت رئاسة سمو الخديو وقرروا ان اذا استمر الاسطول
الانكليزي على اطلاق الككل رفعت الرايات البيضاء علامة على طلب
اجراء المخبرات السلمية وفي صبيحة ١٢ يوليو ابتدأت المراكب الانكليزية
تطلق المدافع على مدينة الاسكندرية نفسها ثانياً - ويتذكر القاري ان
الاميرال (سيمور) حقق اقناض الدول بان أسطوله لا يتعرض للمدينة بسوء -
فرفعت الرايات البيضاء وانقطع بذلك ضرب الاسطول الانكليزي لمدينة
الاسكندرية . وذهب طلبه باشا الي الاميرال (سيمور) فقابله أحد مضباط
الاسطول وأخبره بان الاميرال الانكليزي يطلب صدور أمر الخديو قبل
الساعة الثالثة بعد الظهر بتسليمه طابية المعجمي وطابية المكس وطابية
العرب لجعلها معسكراً للجنود الانكليزية . فعاد طلبه باشا وأخبر الخديو

والنظار بطلب الاميرال الانكليزي . فلما علموا به قرروا ارسال تلغراف للحضرة السلطانية لعرض الامر عليها اذ انه لا يمكنهم تسليم أرض من أراضي مصر لدولة أجنبية بغير أمر الدولة العلية وكلفوا طلبه باشا بتبليغ ذلك للاميرال (سيمور) . غير ان الوقت الذي حدده الاميرال لانتظار الجواب كان قد فات وترك مندوب الاميرال في ديوان البحرية المصرية خيرا بأن الاسطول الانكليزي سيضرب الاسكندرية مرة ثانية . وعندئذ أمر المغفور له الخديو السابق (عراي باشا) بإرسال الجنود المصرية الى جهة طابية العجمي لمنع العساكر الانكليزية من الخروج الى البر واحتلال ساحل مصر . فلم يتبع (عراي باشا) أمر الخديو واعتذر بأن الأرض هناك مكشوفة وأن مقذوفات المراكب الانكليزية لا تتمكن العساكر المصرية من الدنو الى البحر .

ولما علمت أهالي الاسكندرية بعزم الاسطول الانكليزي على ضرب المدينة هاجت وماجت وأخذ الكل يهاجر واضطربت أحوال الاسكندرية وانتشر السفلة والاشرار والاصوص في المدينة حتى سلبوا كل شيء في أسواقها ورأت مدينة الاسكندرية الزاهرة يومئذ مالم تعهده من قبل في تاريخها . وهكذا قضت بريطانيا المتمدنة أن يضرب أسطولها مدينة آمنة مطمئنة كان الاوربيون والمصريون يمشون فيها كالاخوة وان يعود الى ضربها مرة ثانية حتى انتشرت الفوضى فيها وعم القرع أرجاءها وهاجر منها أهلها وسكانها !

وقد كثر عندئذ تجمع العساكر المصرية حول سراي الخديو بالرمل

حتى ظن العزيز أن (عربى باشا) يريد الفتك به ورأى ان ملجأه الوحيد انماهى انكترا! ويقول «عربى باشا» ان تجمع العساكر حول سراى العزيز كان بقصد المحافظة على حياة سموه . وبعد ضرب الاسكندرية بأيام قلائل توجه المغفورله (توفيق باشا) الى سراى الاسكندرية تحت حرس انكليزى أما (عربى باشا) فقد غادر الاسكندرية وجمع الجيش فى جهة (كنج عثمان) وابتدأت العساكر فى عمل المتاريس وأخذ الاحتياطات اللازمة . وأعلن وقتئذ فى كافة أنحاء مصر أن البلاد صارت فى حالة عرفية لوجودها فى حالة الحرب وتشكل مجلس حربى فى نظارة الجهادية تحت رئاسة وكيلها للنظر فى جميع المسائل والقضايا . وفى يوم ١٧ يوليو أرسل الخديو تلغرافا لعربى باشا يخبره فيه بأن الصالح تم بين مصر وبين الاميرال الانكليزى ويأمره بالسفر لمقابلة سموه بالاسكندرية فطلب (عربى باشا) تلغرافيا من سمو الخديو أن يرسل اليه بشروط الصلح فلم يجبه العزيز بشيء لعدم اتباعه أمره بالسفر للاسكندرية . وعندئذ أرسل الخديو لجميع مصالح الحكومة ولنظارة الحربية بأن الصلح تم عقد بين مصر وانكترا وان الاستعداد للحرب غير واجب فاجتمع بنظارة الحربية تحت رئاسة وكيلها مجلس من وكلاء النظارات ورؤساء الدواوين والمصالح والعلماء والأعيان للمداولة فى الأمر وقرروا إرسال وفد يدعو الخديو للحضور الى القاهرة فسافر الوفد وعاد مخبرا (عربى) وأعضاء المجلس بأن الخديو لا يمكنه مبارحة الاسكندرية الا باذن خصوصى من الانكليز . فازداد حقد العربيين على المغفورله { توفيق باشا } ونادى بعضهم بعزله . وكان وقتئذ (مصطفى باشا فهجى)

— رئيس الوزارة المصرية الآن — من أشد الناس ميلا لعرابي وأكثرهم
مجاهرة بالانتصار لعمله وخطته !

وفي يوم ٢٠ يوليو عام ١٨٨٢ أصدر سمو الخديو اعلانا بعزل
(عرابي) بحجة انه لم يتبع أمره ولم يرسل العساكر المصرية الى جهة
العجمي لمنع الجنود الانكليزية من النزول الى البروانه أخذ الجيش وتوجه الى
كفر الدوار بغير اذن العزيز . وأبلغ سمو الخديو تلمغرافيا أمره الصادر بعزل
(عرابي) الي وكيل الحربه وأمره بإبطال التجهيزات العسكرية . فجمع وكيل
الحربيه مجلسا حافلا حضره بعض أمراء العائله الخديوية وأغلب العلماء
ووكلاء النظارات ورؤساء جميع المصالح وكلاؤها والمدبرون وقضاة المديريات
والمفتيون وكثير من أعيان الامة وفضلائها وتجارها . وكان عدد الذين حضروا
هذا المجلس يريد عن خمسمائة نفس وقد عرض عليهم وكيل الحربيه تلمغراف
الحضرة الخديوية فقرروا بعد المذاكرة والمناقشة أن لا يتبع للخديو أمر وان
يكاف (عرابي باشا) بالدفاع عن البلاد وصد الانكليز عنها . وقرروا كذلك
تشكيل مجلس اداري للنظر في أحوال البلاد وحفظ النظام فيها . وختموا
جميعا على هذا القرار وأرسلوه للحضرة السلطانية وأبلغوه رسميا لعرابي باشا
فكان الخديو وقتئذ مع الانكليز في الاسكندرية والامة كلها مع الجيش
ضده وضدهم

هذا ما جرى في مصر بعد ضرب الاسكندرية أما في أوروبا فقد أحدث ضرب
الاسكندرية اندهاشا عاما وأرسلت الدولة العلية في مساء ١١ يوليو نفسه
لكافة الدول الأوروبية احتجاجا ضد عمل الاسطول الانكليزي وسأتها

الاهتمام بالامر . فقرر أعضاء اللجنة الدولية بالاستئانة - ولم يخالفهم
 مندوب انكلترا في ذلك لعلمه بان سواس تركيا سيعملون بنصيحة دولته -
 في ١٥ يوليو عام ١٨٨٢ إرسال مذكرة للباب العالي يكلفون فيها الدولة
 العلية باسم أوروبا بارسال جنودها لاحتلال مصر على شرط أن الدول
 تحدد اختصاصات القائد العثماني الذي يرسل على رأس الجنود وأن لا
 يتداخل هذا القائد في ادارات مصر وأن لا يكون لهذا الاحتلال تأثير
 على امتيازات مصر الممنوحة لها بمقتضى فرمانات السلطانية والاتفاقيات
 الدولية وان تنفق الدول على تحديد أجل للاحتلال التركي وان تكون
 مصاريف الحملة العثمانية على نفقة مصر . وقد أرسلت هذه المذكرة الى
 الباب العالي في مساء يوم ١٥ يوليو ولبثت الدول منتظرة الجواب
 عليها . وكان ولا محالة من صالح تركيا ومن صالح مصر أن تقبل
 الدولة العلية تكليف أوروبا لها باحتلال مصر وترسل جنودها المظفرة
 الى بلادنا العزيزة ولكن قضي على سواس تركيا أن يتبعوا نصائح
 الانكليز حتى بعد ضرب الاسكندرية ويجيبوا مندوبي الدول بأن قبول
 تركيا لتكليف أوروبا لها باحتلال مصر يعد ماسا بحق الدولة التي هي
 صاحبة السيادة على مصر والتي لها الحق في ارسال جنودها اليها بغير
 تكليف من أوروبا . ولا يدهشن القارئ أن انكلترا كانت ذات وجهين
 في سياستها فهذه عادتها ومن القواعد الثابتة عند سواسها أن ارتكاب
 الامور الدنيئة في سبيل الوصول الي غرض كبير يعد أمراً شريفاً . فسواس
 بريطانيا كانوا يفهمون تركيا أن أوروبا تريد السوء لها وانهم لم يشتر كوامع

مندوبى اللجنة الدولية بالاستانة الا ليقفوا على نواياهم ويعرقلوا مساعيهم
 وفي هذا الاثناء طلبت الحكومة الفرنسية من مجلس النواب
 الفرنسي تقرير المبالغ اللازمة لتجهيز السفن استعداداً للطوارئ وبقصد
 حماية قنال السويس عند الحاجة . فدارت المناقشة بسبب هذا الطلب
 على مسألة مصر وتماقب الخطباء على منبر الخطابة مندداً بعضهم بالوزارة
 ومصوباً البعض الآخر خطتها وانتهت الجلسة بقبول طلب الحكومة
 وتقرير المبالغ اللازمة . ولم يكلف المجلس الوزارة باتباع خطة مخصوصة
 في مصر كما أنه لم يظهر موافقته على سياستها بل انتظر نتائج هذه السياسة
 وقبل ان يبعث الباب العالى جوابه على مذكرة أعضاء اللجنة الدولية
 المرسلة اليه فى ١٥ يوليو عرض مندوباً فرنسا وانكائتر على اللجنة تعيين الدولة
 أو الدول التي يجب عليها المحافظة على قنال السويس . ولكن أعضاء اللجنة
 انتظروا جواب تركيا على مذكرة ١٥ يوليو . وقد أرسل (سعيد باشا)
 للجنة الدولية فى ١٩ يوليو جواب الدولة العلية على مذكرة ١٥ يوليو
 وهو عبارة عن قبول تركيا الاشتراك مع مندوبى الدول فى مداولاتهم
 بشأن مصر . ولم يذكر شيء ما عن قبول الدولة أو رفضها لتكليف الدول
 لها باحتلال مصر . فهي بعد ان رفضت الاشتراك مع أعضاء اللجنة
 قبلت الاشتراك معهم وبعد ان كلفتها أوروبا باحتلال مصر أهملت هذا
 التكليف وأخذت تذاقش مع أعضاء اللجنة ! ومن الاسف الشديد أن
 يدون التاريخ هذه السياسة التي لم تخدم الا الاغراض البريطانية مع أن
 سواس تركيا اشتهروا فى كل الحوادث والازمات بالدهاء العظيم

وقد جرت المناقشة حينئذ في يوم ٢٥ يوليو عام ١٨٨٢ في مجلس الشيوخ الفرنسي بعد أن جرت في مجلس النواب . فقبل المجلس تقرير المبالغ اللازمة لتجهيز السفن وتقوية البحرية ولكنه وجه الى الوزارة أشد الملام والتعنيف عن سياستها في المسئلة المصرية . وبعد أن أقر مجلس الشيوخ على طلب الحكومة عرض المسيو { فريسينيه } على مجلس النواب الفرنسي تقرير مبلغ تسعة ملايين ونصف من الفرنكات لحماية قنال السويس فعين المجلس لجنة للنظر في هذا الطلب والمناقشة مع الحكومة وتقديم تقرير للمجلس . وكان المسيو « فريسينيه » مختلفا في الرأي مع الاميرال « زوريجيرتى » وزير البحرية بشأن احتلال قنال السويس . فكان هو يرى ان الجنود الفرنسية يجب ان لا تحتل الا الشاطئ الشمالي للقنال وكان وزير البحرية الفرنسية يرى ضرورة احتلال الجنود الفرنسية لمدينة « الزقازيق » . ولما علمت اللجنة التي عينها مجلس النواب لدراسة مشروع احتلال قنال السويس باختلاف الوزيرين في الرأي وبأن أوروبا لم ترض تكليف فرنسا وانكادرا باحتلال القنال وتركتهما يتحملان مسؤولية أعمالهما رفضت تقرير مبلغ التسعة ملايين ونصف وأظهرت برفضها هذا عدم موافقتها على خطة الوزارة وسياستها . ولما دارت المناقشة في مجلس النواب الفرنسي يوم ٢٩ يوليو عام ١٨٨٢ على طلب مبلغ التسعة ملايين ونصف قام المسيو « فريسينيه » وشرح سياسته في المسئلة المصرية - التي عرفها القاريء - من مبدئها - وسأل المجلس اعلان ثقته بالوزارة فقام الخطباء واحدا بعد واحد وكلهم نددوا

بسياسة « فريسينيه » . وبعد انتهاء المناقشة كبر المسيو « فريسينيه » طلب الاقتراع على الثقة بالحكومة فأقر المجلس بأغلبية ٤١٧ صوتاً ضد ٧٥ صوتاً على عدم ثقته بالوزارة وسقط بذلك المسيو { فريسينيه } وأعضاء وزارته . ولو كان مجلس النواب الفرنسي يثق بالوزارة وسقط بذلك المسيو « فريسينيه » في سياستها وأستقالتها قبل ضرب الاسكندرية لكانت نجت مصر من مصائبها وخرجت فرنسا من الازمة ظافرة . إلا أن المجلس ترك المسيو (فريسينيه) في الوزارة مؤملاً سيره على خطة قوية وطريق مستقيم ولكنه لم يتبع السياسة خرقاء خدمها انكثرا أجل خدمة وأضر بها فرنسا ومصر الضرر الجسيم

وقد أعلنت الدولة العلية اللجنة الدولية بالاستانة ببلاغ أرسلته اليها في يوم ٢٨ يوليو عام ١٨٨٢ - أي قبل سقوط وزارة فريسينيه بيوم واحد - أنها تقبل ارسال جنودها لاحتلال مصر ولكنها تشترط جلاء العساكر الانكليزية عنها عند وصول الجنود التركية اليها . فأجاب اللورد (دوفرين) على بلاغ الدولة العلية بأن انكثرا لا تقبل احتلال الجنود التركية لمصر الا اذا أصدر جلالته السلطان « اعلاناً بعصيان عرابي » ؛ ففي بعد أن شجعت عرابي وحزبه وبعدها أن أوعزت الى تركيا المرة بعد المرة بتشجيع الحزب الوطني ورئيسه سألت الدولة العلية ان تعلن عصيان عرابي ؛ وفي الوقت نفسه كتب الخديو الي الاميرال « سيمور » كتاباً سمح له فيه باحتلال قنال السويس وبأخذ كل الاحتياطات الضرورية لمنع العرابيين من الوصول اليه . وكان المسيو « دي لسبس » قد وعد « عرابي باشا »

بعدم احتلال الجنود الانكليزية لقنال السويس وعداً صريحاً وطلب منه مقابل ذلك عدم احتلال الجنود المصرية له وعدم الاعتداء عليه. فقبل «عربي باشا» سؤال المسيو «دى لسبس» ، وظن أن الانكليز يجتنبون احتلال القنال وفاء بوعده (دى لسبس) ولكن الانكليز من عاداتهم أن يأتوا كل أمر يفيدهم ولو كان في ذلك مخالفة وعودهم الصريحة وأيمانهم العلنية :

أما اللجنة الدولية بالاستانة فانها تناقشت طويلاً في اقتراح قدمه المندوب الايطالي يتضمن احتلال كل دول أوروبا لقنال السويس احتلالاً مؤقتاً فقبلت المانيا والنمسا والروسيا هذا الاقتراح . وكانت روسيا أشد الدول ميلاً للدولة العلية في المسئلة المصرية واكثرها تقرباً منها - وقد جرت في ذلك على السياسة التي أوضحناها في آخر الفصل السالف من انها تصافي تركيا اذا عادت انكلترا - فعرضت عليها مساعدتها بكل ما في وسعها وتأجيل قبض الغرامة الحربية المتأخرة من حرب عام ١٨٧٧ لكي ترسل بجنودها لمصر

وفي ٢ أغسطس عام ١٨٨٢ احتلت الجنود الانكليزية الآلية من الهند مدينة « السويس » . ولم تنفذ دول أوروبا مشروع احتلالها لقنال السويس لأن تركيا وعدتها باحتلال مصر . وكانت الحكومة العثمانية تتخابر مع اللورد (دوفرين) في عقد اتفاقية حربية بخصوص الاحتلال المشترك لتركيا وانكلترا . وان اتفاق دول أوروبا عندئذ على احتلال قنال السويس وحمايته يعد اجماعاً منها على رفض الاحتلال الانكليزي وعدم الموافقة عليه

وقد جرت مناقشة في مجلس العموم الانكليزي يوم ١١ أغسطس عام ١٨٨٢ على المسئلة المصرية فصرح المستر (غلادستون) بأن مقصد انكثرا من احتلال مصر هو اعادة الأمن والسلام فيها وأنه سيعرض المسئلة المصرية على دول أوروبا لتسويتها التسوية النهائية

وفي يومى ١٩ و ٢٠ أغسطس احتلت الجنود الانكليزية بور سعيد والاسماعيلية وأصدر الجنرال (ولسلي) أمره باقتفال قنال السويس في وجه السفن التجارية ليسهل للسفن الحربية الانكليزية المرور فيه وانزال الجنود على شواطئه . وقد احتج المسيو (دى لسبس) على عمل الجنرال (ولسلي) ولكن هذا الاحتجاج لم يقد شيئاً ما . ولما انتشر خبر احتلال الجنود الانكليزية لقنال السويس هاجت الصحف الفرنسية وسخطت على وزارة (فريسييه) التي أضرت بفرنسا ضرراً عظيماً . أما الجرائد الألمانية فكانت لهجتها المهجة تهكم بفرنسا التي قضى شقاقها الداخلى على مصالحها في الشرق وكانت تصرح بأن ليس لألمانيا مصلحة في مصر سوى رغبتها في مساعدة تركيا صدقتها

وقد جرت الحرب بين الجيش المصري والجيش الانكليزي في المحسمة ، يوم ٢٥ أغسطس عام ١٨٨٢ وقطع الانكليز عن المصريين خط الرجعة فلنهرمت العساكر المصرية وكان معهم الشهرم الصادق (راشد باشا حسنى) -- وليعتبر بهذا الشهرم سائر المصريين فإنه مع كونه جركسيّ الاصل انضم الي جيش (عمراى) عند ما علم بأن الانكليز احتلوا الاسكندرية وانهم عازمون على دخول البلاد المصرية وقام للدفاع عن

الوطن العزيز ناسياً كراهة الجراكسة للعرابين وكراهة العرايين للجراكسة -
وعندئذ أخذ (عرابي باشا) التل الكبير مركزاً له وتتابع ورود
العساكر المصرية من القاهرة

ولم يمض الأيام قليلة بعد هذه الواقعة حتى انهزمت الجنود المصرية
في التل الكبير وسار الانكليز على القاهرة . وهذا ما ذكره (عرابي
باشا) عن واقعة التل الكبير في تقريره الذي كتبه بعد دخول الانكليز
القاهرة وقبل سفره للمني حيث قال

« ومع ذلك حصل حركتان حربيتان جهة كوبري القصاصين ثبت
فيهما الجيشان ثباتاً عظيماً وجرح في نائيتهما سعادة راشد باشا حسني فاستبدله
سعادة علي باشا الروبي وقبل أن تتمكن من انشاء المتاريس كما ذكر
عاجلتنا العساكر الانكليزية والهندية وهاجمتنا السوارى ومعها الطوبجية
السوارى التي تطير معها أينما طارت وعلى حين غفلة في ظلام الفجر
اشتعلت نيران الطوبجية والبيادة المهلكة من الطرفين مقدار ساعتين ثم أتت
فرقة سوارى وطوبجيتها من وراء الجيش فكان ذلك سبباً لخدلانه وتشتته
في يوم الاربعاء ٢٩ شوال سنة ٩٩ الموافق ١٣ ستمبر سنة ١٨٨٢ افرنجيه
. ولما حصل هذا الخذلان توجهت من الجبل الى بليس وسوارى الانكليز
على مقربة مني وهناك تقابلت مع سعادة علي باشا الروبي فتوجهنا الى
محطة انشاص ومن هناك ركبنا وابورالسكة الحديدية وتوجهنا الى مصر
فوجدنا أهل المجلس جميعه في ديوان الجهادية وحضرات البرنسات أيضاً
حضر والى الديوان وبعد المداولة والتيقن بان دولة الانكليز لا تريد الاستيلاء

على مصر تقرر أنه حيث الامر كما ذكر فلا يلزم مدافعة بعد ذلك اعتماداً على ان دولة الانكليز موصوفة بحب الانسانية والاعتدال وأنها متي تحققت الامر ووقفت على أفكار أهل البلاد لاشك انها تسعي في تحريرهم وراحتهم وحفظهم»

وإن الانسان لتستولى عليه الدهشة عند ما يقرأ هذه الفقرة ويتساءل كيف ان (عرابي باشا) بعد مذبحه الاسكندرية وبعد ضرب الاسطول الانكليزي لهذا الثغر العزيز كان يثق بالانكليز ويقول عن دولة انكلترا انها موصوفة بحب الانسانية والاعتدال وان لا لزوم للدفاع عن مصر مادامت انكتراهي الداخلة فيها ؟ فهل كان { عرابي باشا } يعتبر مذبحه الاسكندرية عملاً ثاقباً بدولة موصوفة بحب الانسانية والاعتدال ؟ أو هل كان يعتبر ضرب الاسكندرية دليلاً على حسن نوايا الانكليز نحو مصر ؟ لاريب ان الانكليز قد استطاعوا ان يخدعوا بدهائم تركيا كما قدمنا وان يخدعوا عزيز مصر ورجال الحزب الوطني !.

وفي اثناء اشتعال نيران الحرب بين عساكر مصر وجنود بريطانيا كان الباب العالي يتخبر مع اللورد (دوفرين) في عقد الاتفاقية الحربية وكان هذا الاخير يبذل جهده في تأخير سفر الجنود العثمانية ويقدم كل يوم شرطاً جديداً ويغير كل يوم مادة من مواد الاتفاقية ويلح على الدولة بضرورة « اعلان عصيان عرابي ». وقد بلغ اللورد (دوفرين) متمناه وأصدر جلالة السلطان في يوم ٥ سبتمبر عام ١٨٨٢ منشوراً أعلن فيه « عصيان عرابي » وأمر الجنود المصرية وسائر المصريين بعدم اتباعه في أمر من الامور!

ولايونس القاري ان الدولة العلية عضدت قبل ذلك {عمراني} كثيرًا وان الحضرة السلطانية أنعمت عليه بالنيشان المجيدى الاول اظهار الرضا عنه ! ولا ريب ان هذا الاعلان - الذى صدر قبل واقعة التل الكبير بأسبوع واحد - كان من شأنه ان يضعف همم الجنود والاهالي فان الجميع كانوا يعتبرون {عمراني} مدافعاً عن حقوق جلالة السلطان في مصر وحائز الرضى جلالاته . واذا أضفنا الي ذلك ان الحديدو السابق كان مع الانكليز ضد {عمراني} وانه كان متفقاً معهم على خطتهم الحربية وانه أرسل معهم ضباطاً مصريين لارشادهم في سيرهم ادر كنا حرج الموقف الذى كان صار اليه {عمراني} فى آخر الحوادث العربية وقبل انهزام الجيش الهزيمة النهائية .

وقد كان الباب العالى لا يزال يؤمل احتلال مصر والاتفاق مع الانكليز ولكن الجنود الانكليزية دخلت القاهرة فى ١٤ سبتمبر عام ١٨٨٢ وبعد دخولها بثلاثة أيام أعلن اللورد (دوفرين) الباب العالى بأن لا حاجة لسفر الجنود التركية لمصر !!!

وهكذا خدعت انكلترا الدولة العلية . فانها أوعزت اليها بتعصيد {عمراني} عند ما كان من مصلحتها تعصيده وخلق أسباب الشقاق والنفور بين المصريين وبعضهم وبين الحزب الوطنى وسمو الحديدوى . ولما رأت ان مصلتها تقضى عليها باعلان الحضرة السلطانية لعصيان {عمراني} سألت الدولة ذلك وأجيب سؤالها . ولما كلفت دول أوروبا الدولة العلية رسمياً باحتلال مصر لم تجبها الدولة لطلبها بل قبلت الاشتراك فى مداورات اللجنة الدولية بالاستئانة بعد ان رفضت ذلك . ولما ألت عليها اللجنة

باحتيال مصر وقبلت هذا الاحتلال قضت زمنا طويلا في مخابرة اللورد
{دوفرين} بشأن عقد اتفاقية عسكرية ولم تعجل بارسال جنودها المصرو تركت
سواس انكلترا يخذعونها أكبر خديعة : وهو درس تاريخي يجب ذكره
وتذكره في كل فرصة وفي كل آن . فان انكلترا لاتضر باعدائها الظاهرين
مثل ماتضر بمن تتظاهر لهم بالصدافة

وبعد دخول الانكليز القاهرة أصدر الخديو أمراً بالغاء الجيش
المصري وشرع بالاتفاق مع الانكليز في انشاء جيش جديد يكون تحت
امرة ضباط من الانكليز

وقد رأي الانكليز بعد احتلالهم لمصر أن بقاء المراقبة الثنائية يعوق
سيرهم ويضايقهم في أغراضهم فقرروا الغاءها . ولذلك أعلن السير
كولفين المراقب الانكليزي في ٣٠ اكتوبر عام ١٨٨٢ الحكومة المصرية
و بأنه بناء على أمر واردا اليه من حكومته لا يحضر من ذلك اليوم فصاعداً
جلسات مجلس النظارة ، فكان في الحقيقة هذا الاعلان الغاء للمراقبة الثنائية
لانها كانت زوجية والمراقب الفرنسي وحده لا يستطيع تكوينها . وبذلك
اعتدت انكلترا على نفوذ فرنسا في مصر وابتدأت في أعمالها العدائية ضدها
وقد سلم {عراي باشا} ورفقاؤه أنفسهم الى الجنرال {لو} بعد دخول
الانكليز القاهرة وجرت محاكمتهم امام محكمة عسكرية وكان المدافعون
عن {عراي} محامين من الانكليز . وجرت المحاكمة بغاية السرعة وبعد
أن حكم على {عراي} وزملائه بالاعدام صدر أمر الخديو بتغيير الحكم
بالنفي المؤبد . وكان دوللو {رياض باشا} وزيراً للداخلية وقتئذ فله رأي

أن المحاكمة جرت بغاية السرعة ولم تظهر المسؤولية الحقيقية في الحوادث
العراقية خلافاً لرأيه قدم استعفاءه واعتزل الوزارة
وبذلك انتهت الحوادث العراقية المحزنة وخابت آمال المصريين وأفلح
الانكليز في سياسة الخداع والكذب والافتراء التي اتبعوها لاحتلال
مصر وبلوغ غاياتهم وتحقيق مآربهم

*
* *

لقد اختلف المصريون والناس كافة في الحكم على الحوادث العراقية
وتوزيع المسؤولية على الاشخاص الذين كان لهم يد فيها . فمن قائل ان
(عرابي باشا) كان متفقاً مع الانكليز على تسليمهم مصر أي أنه كان خائناً
لوطنه فاقد الذمة والشرف . وهو قول أراه غير صحيح بالمرة فان الرجل
كان سليم النية وغاية ما يؤخذ عليه انه تعجل كثيراً وانخدع كثيراً . ومن قائل
ان (توفيق باشا) كان متواطئاً مع الانكليز من بادى الأمر وكان يتظاهر بأنه
لم يجد حيلة للتخلص من الحزب العرابي الا بدعوة الانكليز لاحتلال مصر .
وهو قول غير صحيح أيضاً فان (توفيق باشا) كان يعلم ان مصيبة الامم هي
تداخل الاجانب في أمورها وكان يود ولا محالة استقامة الاحوال بغير
تداخل أجنبي ولكنه أفهم بعد ضرب الاسكندرية ان العرابيين
يريدون خلعه أو القتل به وان الدولة العلية مساعدة لهم على ذلك فلما لم
يجد نصيراً من قومه ينصره ضد العرابيين ألقى بنفسه بين أيدي الانكليز
محافظة على ملكه وعلى حياته . ولاريد ان المغفور له (توفيق باشا) كان
متألماً من الاحتلال الانكليزي غاية التألم والذين سمعوه يشكوه منه

يمكنهم أن يشهدوا بذلك أمام التاريخ . والافهل يعقل أن أميراً من سلالة (محمد علي) يرضي عن طيب خاطر بتسليم مملكه وبلادها لدولة اشتهرت بالشهده والاطماع ؛ وانما غاية ما يؤخذ به على المغفور له (توفيق باشا) في كل حياته هو أنه كان كثير الميل للسلم حتى انه كان يضعف في بعض الظروف ويظهر مستسلماً . ولا شك انه لو كان شديد الحزم قوي الارادة لكانت نجت مصر من أخطار كثيرة

ومع ذلك فانه يتعذر على المؤرخ أن يقدم لقراءه حكماً صريحاً على الحوادث العرايية وعلى الاشخاص الذين كان لهم شأن فيها . فان هنالك أسراراً كثيرة لاتزال مستورة لوظهرت وانكشفت لتغير الحكم على أمور جملة وعلى أشخاص عديدين

وعلى كل حال فان العبرة التاريخية التي تظهر للعيان من الحوادث العرايية هي أن الشقاق سبب ضياع الأثم وسبب دمارها فلولا الشقاق بين الحزب العرابي والجراكسة ما وجدت الحوادث العرايية . ولولا الشقاق بين الحزب العرابي والمغفور له (توفيق باشا) ما كبرت الحوادث وتجمعت وتداخلت انكثرتا في الامر . ولولا الشقاق بين جلالة السلطان والحديو السابق ما وثقت الدولة العلية بانكثرتا وما شجعت الحزب العرابي وما لجأ المغفور له «توفيق باشا» الى الانكليز ؛ وبالجملة لولا ذلك الشقاق المشؤوم ما احتل الانكليز مصرنا العزيزة

فيجب اذن على سائر المصريين ان يتحدوا كل الاتحاد فيما بينهم وان لا يتركوا للاجانب والدخلاء وسماسة السوء والفساد سبيلاً لالقاء بذور

الشقاق بينهم وبين بعضهم . فنحن اليوم أمام أعداء كبار يعملون بالاتحاد بالرغم عن قوتهم فكيف بنا ونحن أقل منهم قوة ؟ انه ليجب على كافة أبناء مصر ان يتعلقوا بسمو الخديو المعظم أشد التعلق وان يدافعوا عن أريكته ولو ماتوا عن آخرهم في سلامة الخديوية الجليلة سلامة الوطن العزيز وكل سوء يمس عزيز مصر يمس مصر نفسها . وليس الحزب الوطني في مصر الآن ذا أميال مناقضة لأميال العزيز بل الرئيس الحقيقي لهذا الحزب — أي الامة كلها — هو سمو الخديو (عباس حلمي باشا الثاني) الذي أيقظ العواطف الوطنية في بلاد مصر ونبه الامة عن بكرة أبيها الى حقوقها المقدسة

ويجب على المصريين فوق ذلك أن يتمسكوا أشد التمسك بالرابطة الاكيدة التي تربطهم بالسلطنة العثمانية . وقد أدرك سمو الخديو المعظم هذا الواجب قبل كل انسان فجدد ريثب الصلة بين مصر والدولة العلية وملاً بذلك قلوب المصريين آملاً في المستقبل وفي نجاة الوطن العزيز

*
* *

ما احتلت انكلترا مصر حتى أعلن سواها ووزراؤها ان هذا الاحتلال مؤقت لا تريد به الدولة البريطانية سواً لمصر وانها أرسلت بجنودها الي وادي النيل لتوطيد دعائم العرش الخديوي ولترقية شأن الامة المصرية وانها متى أتمت مأموريتها تركت البلاد لاهلها يديرون أمورها بغير سلطة أجنبية وبدون تدخل أجنبي . وإن الكاتب لو أراد أن يسرد تصريحات وزراء انكلترا وسواها بشأن مصر ووعدهم العلنية بالجلاء عن بلادنا

العزيزة لملاً الصحف بهذه التصريحات وبهذه الوعود . فكم من مرة قام اللورد « سالسبوري » وأمثاله ونادوا على مسمع من أمتهم ومن أمم العالم كلها بأن شرف إنكلترا يقتضى الجلاء عن مصر وان هذا الشرف الرفيع لا يسلم الا باعطاء المصريين بلادهم وتسليمهم زمام الامور فيها . وكم من مرة وقف رجال الحكومة البريطانية وأشهدوا العالمين على أنهم انما يخدمون المدنية والانسانية في مصر وأن الجلاء أمر مقرر . وكم من مرة أقسم ساسة بريطانيا بالشرف البريطانى وبتاج جلالته الملكة أن مال مصر للمصريين وان الجنود الانكليزية خارجة من بلاد النيل بعد استتباب الامن فيها وتوطيد مركز الامير . وكم من مرة قال المستر { غلادستون } بصوته الرنان « ان امتلاك مصر شئ جميل ولكن الوفاء بوعود بريطانيا أشرف وأجمل »

وآخر تصريح من هاته التصريحات الجميلة هو الكتاب الذى بعث به الى المستر (غلادستون) فى يناير عام ١٨٩٦ وقال فيه :

« أما آرائى فانها لم تتغير قط وهى دائماً انه يجب علينا ان نترك مصر بعد أن تتم فيها بكل شرف وفى فائدة مصر نفسها العمل الذى من أجله دخلناها

وان زمن الجلاء عن مصر على ما أعلم قد وافى منذ سنين ولما كنت فى منصبى أخيراً أمت مساعداً للحكومات الاخرى توصلنا الى تسوية هذه المسئلة (المصرية) المهمة . والسلوك الذى اتبعه المسيو وادنجتون (سفير فرنسا بانكلترا وقتئذ) فى عام ١٨٩٢ شجع أملى

غير ان المحابرات لم تخط خطوة واحدة مع عظيم ما أملنا اذ ذلك . ولست أدري لاي سبب

فاعترف المستر (غلاستون) بنفسه في هذا الكتاب بان زمن الجلاء قد وافي . أي ان العمل الذي من أجله دخلت انكلترا مصر قد تم مندسين . فلماذا لم تسحب انكلترا عساكرها من مصر ؟ ؟

وقد اغتر الكثيرون من المصريين ومن سواس أوروبا أنفسهم في مبدأ الاحتلال بهذه التصريحات الجميلة والوعود الصريحة وظنوا ان انكلترا التي دبرت مذبحه الاسكندرية بأافل الوسائل والتي ضربت الاسكندرية بطريقة يابأها التاريخ وتعافها نفوس الامم كافة والتي لطخت شرفها في الحوادث العربية بدسائسها وخداعها ونفاقها أرادت أن تقدم للنوع البشري بعد الذي عملت ضد مصر مثلامن أمثال مدينتها وبرهانها على صدقها في وعودها واحترامها لشرفها

واكن أعمالها في مصر برهنت على ان وعودها الصريحة وعودها العلنية لم تكن الا ستاراً لاطماعها ورمادا ألقته في أعين سواس أوروبا وفي أعين المصريين ودلت خطتها في بلادنا الاسييفة على أن عبارات { الشرف البريطاني } و { تاج جلالة الملكة } و (مقام الامة البريطانية) التي كنا نحسبها مقدسة يصح لسواس بريطانيا أن يستعملوها للتعمية والتفجير ! فلقد اتبعت انكلترا في مصر سياسة واحدة ثابتة هذه مبادئها: أولاً . هدم كل سلطنة أوروبية وقتل كل نفوذ أجنبي «غير انكليزي»

في مصر

ثانيا . قتل النفوذ المعنوي لجلالة السلطان الاعظم في مصر وقطع الروابط
التي تربط مصر بالدولة العلية شيئا فشيئا
ثالثا . سلب الجناب الخديوى سلطته والاستيلاء على الادارات المصرية
وطرد المصريين من الوظائف السامية وتعيين الانكليز مكانهم
رابعا . خلق الاضطراب في مصر وايجاد الاسباب الموجبة لدوام الاحتلال
خامسا . نشر النمام والاكاذيب في أوروبا على المصريين
فلقد اعتدت انكلترا على حقوق فرنسا في مصر وطاردت
الفرنساويين في المصالح بكل قوتها وعمت على إضعاف اللغة الفرنسية
في المدارس ونشر اللغة الانكليزية . ولم يكن لها الاعتداء على نفوذ
فرنسا بل اعتدت كذلك على كل حقوق أوروبا وأعمالها الحديثة في
صندوق الدين وأظهرت لكل الدائنين وحلمة القراطيس انها اذا استولت
على مصر { لا قدر الله } بصفة نهائية قضت على حقوقهم ومصالحهم
أشد قضاء . وخطتها في الهند وفي سائر مستعمراتها تبين جليا انها اذا
صارت صاحبة السكامة الوحيدة في مصر قتلت تجارة أوروبا ووارداتها
في بلادنا وحرمت على كل أوروبا المعيشة والتكسب على شواطئ
نهر النيل . وهو أمر يعرفه كل الاجانب في مصر . وقد كانت انكلترا
في السنين الاولى للاحتلال معتدة كل الاعتماد في المسئلة المصرية
على المانيا ولكن هذه الدولة عرفت في الاعوام الاخيرة أن انكلترا
هي أكبر عدوة لها . وقد قضت عليها مصالحها الصناعية والتجارية ان
تنافسها في كل بلد وفي كل ثغر . وإن تقدم المانيا في الاستعمار لحادث

من أهم حوادث السياسة العصرية فإنه سيجعل العداوة بين انكلترا
والمانيا في مصر قوية شديدة مستمرة . ومن يعيش ير
فلم يبق اليوم أحد من الاوروبيين يعتقد ان انكلترا تخدم في مصر
المصالح الاوروبية وان بقاءها في بلادنا وازدياد نفوذها وسلطانها
لا يضران بأوروبا

وكما ان الانكليز وجها عنايتهم لقتل نفوذ أوروبا في مصر فانهم عملوا
ما في استطاعتهم لتغيير المصريين من الدولة العلية ومن جلالة السلطان
الاعظم . فأوعزوا الى فئة من الدخلاء الذين لا وطن لهم ولا شرف ولا
عقيدة بالظمن على جلالة الخليفة الاكبر والسلطان الاعظم وتشويه
أعمال الدولة العلية وأحوالها . ولم يسمحوها بمحاكمة هؤلاء الطاعنين
الذين يسبون الأمة المصرية وعقيدتها أعظم السباب بطعنهم على خليفة
الاسلام وسلطان مصر

ولكن الانكليز لم يفلحوا ولن يفلحوا أبداً في تغيير المصريين من
الدولة العلية . فحب بنى مصر للدولة العثمانية ولسلطانها المعظم حب صادق
امتزج بالدم وبالحياة ولا يخرج من قلوبهم الامع الأرواح يوم تردخالقها جل
شأنه . وقد وهب الله المصريين في سمو العباس أميراً عالي الذكاء بعيد
النظر قفوي دعائم الصلة بين مصر والدولة العلية وحقق بذلك أماني
المصريين عن بكرة أبيهم وبنية العثمانيين أجمع . وما أظهر العباس اخلاصه
لسلطانه العلى الشأن حتى حنق الانكليز عليهم وادسوا الدسائس ضد الدولة في
كل بلادها وخلقوا المسئلة الارمنية وأوحوا الى سماسرتهم في الاستانة ببذر

بذور الشقاق والبغضاء بين العباس وبين جلاله السلطان الاعظم ، ولكن حكمتهما أحبطت المساعي الانكليزية وخرجت انكثرا من المسئلة الارمنية بالفشل والخذلان بفضل السياسة الحميدية النبيلة والمجهورات العظيمة العديدة التي بذلتها انكثرا للتفريق بين مصر والدولة العلية وتكدير صفاء العلائق بين سمو الخديو المعظم وجمالة السلطان الاعظم هي دليل ساطع على أن في الاتفاق بين مصر والدولة العلية سلامة مصر وخيبة انكثرا.

ولقد ادعت انكثرا قبل الاحتلال الانكليزي وبعده أن جل أمانها تقوية السلطة الخديوية في مصر وترقية شأن المصريين وجعلهم كقوة الآن يحكموا بلادهم بأنفسهم . ولكنها لما احتلت مصر جرت على نقيض ذلك فعملت على هدم السلطة الخديوية ودك أركانها وملأت المصالح والادارات بالانكليز وطردت المصريين من الوظائف السامية . وقد ظهرت أعمال الانكليز في مصر ونواياهم ظهور الشمس في رابعة النهار في عهد سمو الخديو الحالي { عباس حلمي باشا الثاني } حيث جاء مطالباً بحقوقه الشرعية متمسكاً بحقوق أمته واستقلالها فعارضته انكثرا ووجهت اليه على لسان جراند لها وصنائعها الطعن القبيح وصار الانكليز في مصر يقربون منهم كل دخيل أو كل خائن يتظاهر بكرهه الامير المحبوب وبمخالفة آرائه واحساساته ويبعدون عنهم ويعاقبون كل مخلص لسموه . وأصبحت القاعدة الاولى للتوظيف في بلادنا التعمية هي الجحود للوطنية وكرهه العزيز . فليكن طالب الوظيفة جاهلاً ما استطاع وليكن

غير كفو ما أراد فانه يعين ويقدم ويساعد من الانكليز متى كان جا حدا
 للوطنية عدوا للعزيم. وهكذا قام الانكليز بوفاء وعودهم وعملوا على تقوية
 السلطة الخديوية وتوطيد دعائم العرش الخديوي :

ولكن مصالح الامة المصرية صارت اليوم منفقة مع مصالح الخديوية
 وصارت آمال الامة وأمانها منفقة مع آمال سمو الخديو وأمانيه فيستحيل
 على بني مصر ان يتعدوا عن سمو العزيز (عباس حلمي باشا) لحظة واحدة بل
 انهم سيحافظون على ولائه أبدا الدهر وسيكونون على الدوام أنصاره وأعوانه
 . وكلما اعتدى الانكليز على حقوق سموه أو أظهروا كراهتهم لمقامه العالي
 ازداد تعلق المصريين بعرشه وتمكن من أفئدتهم الا خلاص لجناحه الرفيع

ولما رأيت انكثرتا ان إعادة الأمن والسلام الي ربوع مصر لا تحتاج
 لزمن طويل وان أوروبا استطاعتها بعد الاحتلال بالجملاء خلقت المسئلة
 السودانية ليطول احتلالها في مصر وليبقى السردان خزان الاضطرابات
 والقلاقل . وقد عرف القارئ من أول هذا الفصل ان (اسماعيل باشا)
 قد عين بعض الانكليز حكاماً على السودان فكانت وظيفتهم تنحصر
 في إيجاد دواعي الاضطراب وتنفير السودانيين من المصريين
 ومن حكومة مصر . فآلتوا بأيديهم بذور الثورة والهيجان في السودان
 بمال مصر نفسها حتي قامت الثورة العربية واختلت أحوال بلادنا ودخلها
 الانكليز فرفع السودان راية العصيان في وجه مصر كما ابتغت انكثرتا
 . ولما كان في مصر كثير من الجنود المصرية الأشداء وقت احتلال الانكليز
 لبلادنا العزيزة رأى سواس بريطانيا ان أول واجب عليهم هو اعدام

هؤلاء الجنود وحرمان مصر من أعز أبنائها فأرسلوا الحملات على السودان ودبروا هزيمة تها حتى هزمت وفقدت مصر في ثلاث سنين أكثر من ستين ألفاً من جنودها الاعزاء والذين نجوا من هاته الحملات المشؤومة يصرحون جهاراً بأن الخطة التي سار عليها القواد الانكليز للجيش المصرى تدل دلالة لا ريب فيها على انهم كانوا يقصدون الهزيمة وسقوطه في قبضة الدراويش

وقد طلب الانكليز من الحكومة المصرية تقرير سلخ السودان عن مصر في يناير عام ١٨٨٤ حيث كانت مصلحتهم تقتضي ذلك وقتئذ فرفض (شريف باشا) قبول هذا الطلب بكل شمم ورفعة نفس وقدم استعناؤه تاركا المنصب للوزير الارمنى (نوبار باشا) الذى قرر فصل السودان عن مصر . ولما اقتضت المصلحة الانكليزية تسيير حملة على السودان استصدر الانكليز أمراً عالياً بذلك وأشركوا الجنود الانكليزية مع جنود مصر لتزداد المسئلة السودانية والمسئلة المصرية اشكالا وتعقيداً وبالجملة فان انكلترا جعلت السودان خزاناً لسياستها في مصر تخرج منه القلاقل والاضطرابات كلما رأت ضرورة لذلك وكلما نوديت بأن الامن استتب في مصر وأن لا لزوم للاحتلال الانكليزي

ولما كان سلاح أوروبا ضد المسلمين هى مسئلة الدين وكانت انكلترا تهول دائماً على أوروبا بأن المسلمين متعصبون في الدين كلما اقتضت ذلك حاجتها فانها أذاعت في كل أوروبا بان المصريين متحفزون للقيام بالثورة ضد المسيحيين وان سلامة الاوروبيين في مصر متعلقة بدوام الاحتلال

الانكليزي . وهي وشاية سافلة ينفىها تاريخ مصر ويدحضها ماشتهر
 عن المصريين من التساهل والاعتدال وإكرام الغرباء والنزلاء . ومذبحة
 الاسكندرية التي تذكرنا بها الصحف الانكليزية ليست بنت التعصب
 الديني عند المصريين بل هي ثمرة دسائس انكلترا نفسها وانه يستحيل على
 التاريخ أن يلقى على المصريين مسؤولية هذه المذبحة بل المسؤول عنها انما هي
 انكلترا دون غيرها

وكذلك أشاعت انكلترا في كل أوروبا أن المصريين قوم لا يصلحون
 لاستلام زمام أمور بلادهم وليسوا باكفاء لأن يحكموا أنفسهم بانفسهم
 وانهم في حاجة لمعونة ومساعدة الاحتلال الانكليزي . أي ان انكلترا
 لشفقتها على المصريين تركت أبناءها في مصر يديرون أمورها ويتردون
 المصريين من الوظائف والادارات ! وإن تاريخ مصر في عهد العائلة
 الخديوية لمملوء بالبراهين الداحضة لدعوى عدم كفاءة المصريين فان
 أبناء مصر هم الذين نظموها ورتبوا اداراتها وقادوا زمامها قبل الاحتلال
 الانكليزي . والذين تعلموا وتهذبوا من أبناء مصر هم ولا محالة أكثر
 بكثير من الذين كانوا متعلمين من أبناء بلغاريا وصربيا يوم فصلت أوروبا
 هاتين الامارتين من الدولة العلية وأعلنت استقلالهما . وقد بني الانكليز
 على دعوى عدم كفاءة المصريين أن مصالح الدائنين تكون في خطر اذا
 سلمت مصر لابنائها وان في الاحتلال الانكليزي خير كفالة وأحسن
 ضمانة لرعاية هذه المصالح . وهو قول تكذبه الشواهد والحقائق فان
 المصريين لا يرفضون قبول المراقبة الدولية على المالية المصرية ، والحزب

العراقي نفسه كان يعلن في كل فرصة انه لا يريد المساس بحقوق الدائنين
وانه يقبل المراقبة الثابتة . واذ كان هناك خطر على مصالح الدائنين فهو
في بقاء انكترا في مصر فان اطعماءها وأغراضها سولت لها وضع يدها
بواسطة الحكومة المصرية على جزء من أموال صندوق الدين للانتفاع
به في الحملة السودانية واضطرت أن ترده ثانية عند ما حكمت عليها
المحاكم المختلطة . ولكن بعد أن تحقق الدائنون وحملة القراطيس من ان
انكترا لا يتخدم في مصر سوى مصالحها وانها تضحى مصالحهم في سبيل
سياستها ومآربها

*
* *

رأى القارىء مما سبق ان انكترا دبرت مذبحة الاسكندرية
وتركت هذه المدينة الزاهرة ميدانا للاشراار والاصوص فنهبت المخازن
والاسواق واضطرت الحكومة المصرية لدفع التعويضات الطائلة بعد دخول
الانكيز في مصر . ولما رأت الحكومة المصرية انها في عوز شديد للمال
اقتضت في عام ١٨٨٥ مبلغ تسعة ملايين من الجنيهات ودعت الحكومة
الانكليزية الدول الأوروبية للاشتراك معها في تقرير المسئلة المالية في
مصر . فاجتمعت لجنة دولية بلوندره وقررت في ١٧ مارس عام ١٨٨٥
جعل مصاريف الادارات المصرية في كل عام خمسة ملايين من
الجنيهات .

واتفقت الدول على عقد لجنة دولية أخرى بباريس في ٣٠ مارس
عام ١٨٨٥ نفسه لتقرير جعل قنال السويس على الحيادة وتقرير حرية

المروور فيه لكل دولة وفي كل وقت . فاجتمعت اللجنة الدولية في باريس وتداولت في المسئلة وانفقت على جعل قنال السويس على الحيادة وختمت جلساتها في ١٣ يونيو عام ١٨٨٥ ولكنها لم تنفق على نقطة واحدة وهي طريقة تنفيذ قرارها . فمندوب فرنسا عرض على اللجنة اناطة تنفيذ هذا القرار بلجنة مشكلة من مندوبين من كل الدول العظمي ومن مندوب مصري يكون له رأي استشاري وجعل هذه اللجنة تحت رئاسة مندوب عثمانى . ولكن مندوب انكلترا رفض هذا الاقتراح وعرض على اللجنة تكليف الحكومة المصرية (التي للانكليز فيها الكلمة النافذة) بتنفيذ هذا القرار الدولي المختص بقنال السويس

وهذا الاختلاف في طريقة تنفيذ القرار الدولي جعل عمل اللجنة لاغياً بالمرّة لان المسئلة وقفت عند هذه النقطة . ويتضح للقاريء جلياً من اقتراح المندوب الانكليزي في اللجنة الدولية أن انكلترا تريد مد سيطرتها على قنال السويس وجعله ترعة انكليزية واستعماله وقت الحرب ضد الدولة أو الدول التي تكون محاربة لها . وماعلمته انكلترا في قنال السويس أيام الحوادث العرابية مع وعدها السابق للمسيو (دى لسبس) بعدم المساس به وعدم ارسال جنودها اليه يدل بأوضح بيان على ان انكلترا لا تحترم عهدا ولا ترعى ميثاقا متى اقتضت مصلحتها انتهاك حرمة العهد والميثاق

وانه لا يمكن للدولة الاوروبية ان تأمن خطر استئثار الانكليز بقنال السويس الا اذا حررت مصر وسلمتها لابنائها وجعلت « حيادة قنال

السويس وحرية المرور فيه لكل دولة وفي كل وقت ، تحت رعاية الحكومة المصرية الاهلية الحرة لا تحت رعاية حكومة مصرية زمامها بأيدي الانكليز . فمسئلة قنال السويس هي من أهم المسائل التي تحتم على اوربا الالتفات لمسئلة مصر والعمل على حلها . وان تقدم المانيا في الاستعمار وانتشار تجارتها في الشرق الاقصى لمن الامور التي تحتم على هذه الدولة في المستقبل ان تكون اول الدول اهتماماً بمسئلة مصر وأكثرها عملاً على تخليص بلادنا العزيزة من تحت نير الانكليز

*
* *

لقد عمل الانكليز في عام ١٨٨٥ على أن يخذعوا تركيا مرة جديدة وينتفعوا بها ضد روسيا بدون ان ينفعوها ، وذلك انه لما اشتد الخلاف بين انكلترا وروسيا بسبب مسئلة افغانستان أرسل اللورد سالسبورى الى الاستانة السير { درومندولف } بحجة عقد اتفاقية مع الباب العالي بشأن مصر تحل فيها عقد المسئلة المصرية . وكان المقصد الحقيقي من مأمورية السير { درومندولف } هو استمالة تركيا الى انكلترا والعمل على عقد اتحاد معاهضد روسيا وتغييرها بأن انكلترا مستعدة للجلاء عن مصر حتى تقبل عقد هذا الاتحاد . ولكن الخلاف بين روسيا وانكلترا سوى في لوندرة أثناء وجود السير { درومندولف } بالاستانة واتفقت الدولتان في ١٠ سبتمبر عام ١٨٨٥ على استيلاء روسيا على « البندجية » وترك « ميروسحاق » و « ذوالفقار » الى افغانستان . فانتهت بذلك مأمورية السير (درومندولف) في الاستانة ولكنه بقي في العاصمة العثمانية زمناً لكي

لا تظهر حقيقة اغراض انكثرا . وقد اتفقت معه الحكومة العثمانية على ارسال مندوب عثمانى عال بصحبته الى مصر لدراسة أحوالها معاً ووضع اتفاقية بالاشتراك تمرض بعدئذ على تركيا وانكثرا للتصديق عليها . فسافر الى مصر مع دولة الغازي (مختار باشا) وأخذ يماطله طول عام ١٨٨٦ بدون فائدة ثم عاد فجأة الى لوندرة وترك المندوب العثماني وحده ، وقد وضع عندئذ دولة الغازي { مختار باشا } تقريراً جليلاً على تنظيم الجيش المصري واسترداد السودان

ولما علمت الحكومة العثمانية والحكومة الفرنسية بسفر السير (درومندولف) الى لوندرة سألتا الحكومة الانكليزية عن سبب هذا السفر فأجابتهما وزارة لوندرة بارسال السير (درومندولف) الى الاستانة للمخاطبة مع الحكومة العثمانية مباشرة . ولما وصل السير (ولف) الى الاستانة — وكان ذلك في عام ١٨٨٧ — عرض على الحكومة التركية مشروع اتفاقية بشأن مصر تتضمن انجلاء العساكر الانكليزية من مصر بعد ثلاث سنين من عام ١٨٨٧ (أي في عام ١٨٩٠) ولكن على شرط انه لو حصل قبل انجلائها اضطراب في مصر يدعو الى استمرار الاحتلال بقيت الجنود الانكليزية وأطيل أمد الاحتلال وأنه اذا حصل في مصر بعد خروج العساكر الانكليزية منها أي هيجان أو أي اضطراب يكون لانكثرا وحدها دون سواها الحق في ارسال جنودها الى مصر

وقد قبلت الدولة العلية هذه الاتفاقية وأمضي عليها المصدر الأعظم في ٢٢ مايو عام ١٨٨٧ ولم يبق الا تصديق جلالة السلطان الاعظم عليها

. ولكن فرنسا المعاملة بها عارضت تصديق جلالة السلطان عليها كل المعارضة واستعانت بالروسيا على مساعدتها لدي الحضرة السلطانية . وهذه هي المرة الاولى التي اتفقت فيها فرنسا والروسيا على مسألة سياسية بعد مؤتمر برلين .

وقد أرسل المسيو (فلورانس) وزير خارجية فرنسا وقتئذ منشور السفراء فرنسا في الخارج أبان لهم فيه ان اتفاقية (درومندولف) تجعل احتلال انكلترا لمصر احتلالاً أبدياً إذ انه يمكنها خلق الاضطرابات والقلاقل متى شاءت خصوصا وان المسئلة السودانية لا تزال قائمة . وأبان ان هذه الاتفاقية من شأنها محو سلطة الدولة العلية عن مصر . ومما جاء في هذا المنشور قول المسيو (فلورانس) :

« واننا { أى فرنسا } بصفتنا دولة اسلامية في البحر الابيض المتوسط لانقبل ابداً المساس بحقوق جلالة السلطان الاعظم . فان هذا المساس يكون ذا نتيجة خطيرة جدا . فكانت سياسة المسيو (فلورانس) ترمى الى احترام حقوق الحضرة السلطانية واستمالة المسلمين الخاضعين لفرنسا بالتقرب من جلالة السلطان و باحترام حقوق الدولة العلية

وقد نجحت فرنسا والروسيا في اقناع جلالة السلطان الاعظم بسوء نية انكلترا وباضرار معاهدة (درومندولف) فرفض جلالته التصديق على هذه المعاهدة وغادر المنسوب الانكليزي الاستانة عائداً الى لوندرة ولم تحدث بعد ذلك مخبرات بشأن مصر الا في عام ١٨٩٠ ولكن اللورد سالسبورى رفض صراحة في هذه المرة تحديد أجل للجلاء

* *
*

لقد اعتمدت دائماً انكلترا في سياستها في المسئلة المصرية على ألمانيا والنمسا وإيطاليا أي على دول التحالف الثلاثي. وقد صرح اللورد (غرانفيل) بعد احتلال الانكليز لمصر بأن البرنس (بسمارك) هو الذي نصح انكلترا بأرسال جنودها الى وادي النيل . فالبرنس (بسمارك) كان يرى ان احتلال الانكليز لمصر يشغل فرنسا عن مسئلة الازراس واللورين ويخلق العداوة بينها وبين انكلترا ويجبر الدولة العلية على مصافاة ألمانيا والعمل على استماتها ضد انكلترا . ولذلك ساعد الانكليز في مصر كثيرا وبقيت دول التحالف الثلاثي زمنا طويلا عضداً قويا لانكلترا في مصر . وكان من دهاء سواس بريطانيا أنهم خدعوا إيطاليا وأظهروا لها المودة والمحبة وسلموها بعض شواطئ البحر الاحمر وأوقعوها في شباك الاستعمار فاضطرت لمساعدتهم في مصر . ولما انهزمت جيوشها أمام الاحباش استغاثت بانكلترا وتوسلت اليها بألمانيا فاهتمت انكلترا بالأمر وتظاهرت بالميل لمساعدة الايطاليين واتقاهم وجبرت الحكومة المصرية على إرسال حملة دنقلة بحجة نصره إيطاليا وتخليصها من أيدي الاحباش والدرأويش !! وبدهاء السياسة الانكليزية أفلحت انكلترا في الاعتماد على ألمانيا ودولتي النمسا وإيطاليا حليفتيها في مسئلة مصر وحقت كثيرا من أمانها . وقد أفهم سواس بريطانيا رجال السياسة الألمانية ان فرنسا تنوي الاستيلاء على مصر وان جنودها تحتل مصر اذا خرجت هي منها . فانخدع لهذه

الاباطيل سواس ألمانيا واعتقدوا — أو تظاهروا بالاعتقاد — بأن المسئلة المصرية مسئلة فرنساوية وأن السمي في الجلاء يكون خدمة كبري فرنسا . وما تحدثت مع سياسي ألماني في برلين الا وصرح لي بأن ألمانيا تعتبر المسئلة المصرية مسئلة فرنساوية وانها لذلك تفضل مساعدة انكلترا على مساعدة فرنسا

وهذا الاعتقاد الفاسد الراسخ في أذهان الكثيرين من الالمانيين هو ولا شك من أهم أسباب مساعدة ألمانيا لانكلترا في مصر . فبينما نرى السياسة الالمانية تعضد الدولة العلية كل التمضيد وتساعددها على إحباط مساعي انكلترا ودسائسها في أرمنيا وكريد واليونان نرى هذه السياسة نفسها نصيرة لانكلترا في مصر !! كأن المسئلة المصرية غير مرتبطة بالمسئلة الشرقية وكأن مصر ليست بجزء من الدولة العثمانية !

ولكنه يمكننا أن نجزم بأن السياسة الالمانية لا تستخدم المصالح الانكليزية في مصر الي النهاية . فان علاقات ألمانيا مع انكلترا تكدرت كثيراً عن ذي قبل والمنافسة تزداد كل يوم بين الدولتين في التجارة والاستعمار . ولا ريب عندي ان السياسة الحميدية النبيلة تجذب اليها ألمانيا في المسئلة المصرية كما جذبتها نحوها في المسئلة الشرقية . ولكن بلوغ هذه الغاية لا يكون الا اذا جاءت الظروف المناسبة وحانت الفرص . وفضلا عن ذلك فان مستعمرات ألمانيا في أفريقيا وفي آسيا تقع تحت خطر عظيم اذا وقعت بلاد النيل في قبضة انكلترا وصارت ملكاً لها . فان مصر مفتاح افريقية وآسيا وماضيها وحاضرها ينذران الامم كافة بأن الدولة الحاكمة لها تكون

أقوي الدول بطشاً ويكون في استطاعتها أن تضر بمصالح العالمين
فمسئلة مصر ليست كبقية المسائل الافريقية والاسيوية بل هي المعضلة
الكبرى في سياسة هذا العصر . ولا يفرن القراء تقدم انكثرا في مصر
وازداد سلطتها فيها وفي حكومتها فذلك لا يؤثر مطلقا على جوهر المسئلة
المصرية نفسها . وسواء كان الانكليز في مصر ثلاثة أشخاص أو ثلاثة
ملايين وسواء كانوا بغير سلطة أو أصحاب السلطة كلها فالمسئلة المصرية
واحدة لا يؤثر عليها قلة عدد الانكليز في مصر أو كثرتهم . وكما أن مصر
كانت في الماضي كنانة الله في الارض فهي كذلك لا تزال قبرا
للأمم الطاغية . وأفراد الانكليز الذين يحكمون على المستقبل بالماضي
ويرفون أن أدوار التاريخ تجدد ولا تنذر حكوا صريحا بان دوام
الانكليز في مصر خطر على الدولة البريطانية وأنه يكون سببا لدمارها . ولقد
قال اللورد (سالسبوري) أخيراً في إحدى خطباته : ان سياسة الطمع هي
سبب خراب الممالك العظمى . فليعتبرهونفسه وليعتبر سواس بريطانيا جميعا
بهذه الحكمة العالمة . فان سياسة بريطانيا في مصر سياسة طمع وشرة لا مثيل
لها . كيف لا وهي ترمي الى تأسيس مملكة افريقية بتديء من الاسكندرية
وتنتهي عند رأس الرجاء الصالح وتمل لهذا الغرض غير ملتفتة الى حقوق
الأمم التي تستعبدوها ولا الى المصائب التي تسقطها عليها ولا الى الدماء التي
تسيلها فيها

ولقد أبنا في رسالة (اخطار الاحتلال الانكليزي) النتائج الخطيرة
التي تنتج عن بقاء الانكليز في مصر وأوضحنا ان وراء المسئلة المصرية

جملة مسائل سياسية من الخطارة والأهمية بمكان، فورهاها مسألة تجارية دولية . ومسألة البحر الابيض المتوسط . ومسألة افريقية . ومسألة اسيوية . ومسألة مسيحية . ومسألة اسلامية

فاذا استولت انكلترا على مصر صار من المستحيل على الاوروبيين القاطنين بها أن يعيشوا فيها فان انكلترا تضيق عليهم مسالك الحياة لينفرد أبناءها بمكاسب مصر وخيراتها وتكون أبواب مصر مفتوحة للتجارة الانكليزية دون سواها. وهذه سياسة انكلترا في كل بقعة ترفع عليها رايها ويقضي عليها - وء الحظ بالوقوع في قبضتها . ذلك فضلا عن ان التجارة الاوروبية يستحيل عليها عندئذ ان تصل الي السودان أو الى أواسط افريقيا فان طريق النيل البديع يكون محتكراً للانكليز وللتجارة الانكليزية ليس الا . فامتلاك انكلترا لمصر هو في الحقيقة موت للتجارة الاوروبية في مصر وفي السودان وفي افريقيا الوسطى وقضاء على الاوروبيين القاطنين بمصر

واذا امتلكت انكلترا مصر صار البحر الابيض المتوسط بحيرة انكليزية وضاعت الموازنة بين الدول الاوروبية . فان انكلترا يمكنها بواسطة جبل طارق ومالطة وقبرص وموانئ مصر وقنال السويس ان تقتل بحرية كل دولة وأن تبقى وحدها سيدة البحر الابيض المتوسط . وهو خطر لا محالة عظيم على الدول الاوروبية لا يمكن لها دفعه بغير تحرير مصر وتركها مستقلة في إدارتها مستقلة بالسيادة العالية للدولة العلية

وامتلاك انكلترا لوادي النيل يجعل مستعمرات الدول الاوروبية

بأفريقيا عديمة النفع ويضيع التوازن الدولي من أفريقيا . فان بقية المستعمرات الدولية منفصلة عن داخل أفريقيا بصحاري واسعة وجبال صخرية وعرة لا كوادى النيل يجرى فيه نهر عظيم يوصل التجارة وأصحابها الي أواسط أفريقيا ويسهل لأصحابه الوصول الي أي جهة من الجهات الأفريقية

وكما ان الموازنة بين الدول في أفريقيا تضيع تماماً باستيلاء الانكليز على مصر فان هذه الموازنة تضيع أيضاً من آسيا اذا تمت لانكاترا الكلمة في وادي النيل . فان السياحة في الشرق الاقصى وفي المياه الآسيوية تكون متعلقة باهواء انكاترا ورغائبها ومستعمرات الدول في آسيا تكون تحت رحمة انكاترا . فبريطانيا التي أنزلت جنودها على شواطئ قنال السويس في عام ١٨٨٢ واستأثرت بمنافع القنال وقتئذ هي بعينها بريطانيا التي يمكنها متى اقتضت حاجتها ذلك أن تغفل قنال السويس في وجه الدول كافة وتفصل بينها وبين مستعمراتها الآسيوية

وقد علم القاري مما كتبناه عن (مسألة الشام بين مصر والدولة العلية) أن المغفور له (محمد علي باشا) كان يريد الاستيلاء على الشام لتقوية ملكه في مصر عملاً برأي نابليون من أن الشام ضروري لمصر ومصر ضرورية للشام . فاذا استولت انكاترا على مصر هل تكون الشام وقتئذ في مأمن من اعتداء الانكليز عليها ؟ وفي أية حالة تكون الدنيا اذا صار بيت المقدس والاماكن المقدسة في أيدي بريطانيا البروتستانتية ؟ وماذا يعمل الكاثوليكيون والارثوذكسيون حين ذلك ؟ بل وماذا

يعمل المسلمون ؟

إن استيلاء انكلترا على مصر لخطر عظيم على العالمين وحادث يجر على
بني الانسان اكبر المصائب واشد النوائب ، وقد يقول بعض الناس
باستحالة تحقق هذه النتائج التي آتينا عليها أو بعد إمكانها . ولكن رجال
السياسة يجب عليهم أن ينظروا الى النتائج البعيدة وأن يتداركوا الاخطار
الآتية ولو كان وقوعها بعد قرن أو بعد قرون

وقد قلنا ان وراء المسئلة المصرية مسئلة إسلامية وأو ضحنا في مقدمة هذا
الكتاب ان انكلترا تعمل من يوم احتلالها لمصر على تقسيم الدولة العلية
ولا تري لوجودها في مصر سلامة الا بهدم السلطنة العثمانية ووضع
يدها على مصر بصفة نهائية وضم بلاد العرب اليها وجعل الخلافة عربية
في قبضة رجل يكون آلهها . فلذلك كانت مسئلة مصر روح المسئلة
الشرقية وكان وجود الانكليز في مصر خطرا كبيرا على المملكة العثمانية .
ولذلك يجب على سواس الدولة العلية ان يهتموا بمسئلة مصر أشد
الاهتمام وان يجعلوها في مقدمة المسائل الحيوية للدولة والملة . وكما أن
انكلترا خدعتهم في الحوادث العربية أعظم خديعة دونها التاريخ فانه يجب
عليهم ان يعملوا على إخراجها من مصر إرضاء لشرف الدولة العلية وانقاذاً
لها من أشد الاخطار

ولا ريب ان أنظار المسلمين في سائر أنحاء الارض موجهة الى مصر
فهى بعد الحجاز البلاد التي يحج اليها المسلمون أكثر من سواها . ولقد
ذكرت بلادنا العزيزة في القرآن الشريف ثلاثة وثلاثين مرة استلفاناً

لأنظار المسلمين اليها ودلالة على أهميتها الخاصة بها بين البلاد الاسلامية .
وسماها الرسول عليه الصلاة والسلام بالرباط الاكبر لانه بواسطتها يمكن
للخلافة الاسلامية ان تدافع عن المدائن المقدسة { بيت المقدس ومكة
والمدينة }

وقد اعتبر المسلمون من عهد النبي الكريم ان بلاد الشام وبلاد مصر
وببلاد العرب يجب أن تبقى الي الابد ملكاً للإسلام . فهذه البلاد هي التي
سكنتها سلالة سيدنا الخليل (ابراهيم) عليه السلام الذي جري رسولنا
الكريم على سنته وجاء متمم الدينه وشريعته . ولما دخل الصليبيون الشام
أيام الحروب الصليبية قام المسلمون أجمعون لاسترجاعها وما هددت أحوال
العالم الابرجوعها في قبضة الاسلام . فكذلك مصر لا يطمئن المسلمون بها
وبأحوالها الا اذا خرج الانكيز منها وعادت تحت السلطة الاسلامية الحقيقية
وإذا أضفنا الي ما تقدم أن مصر مشرق الانوار بين المسامين ومهد
العلوم والعرفان وأنها محط رحال الذين يريدون التعلم والتحصيل علمنا مقدار
اهتمام العالم الاسلامي بأحوال بلادنا المحبوبة وعلمنا خطورة المسئلة المصرية
بالنسبة للمسلمين خصوصاً

ولا غرابة اذا كنا تكلمنا على المسئلة المصرية من الوجهة الدينية
الاسلامية فان السياسة لانفصال لها عن الدين . وبالاحساسات الدينية
تقاد الامم أسهل مما تقاد بالاعتبارات السياسية . وقد أرتنا أمم أوروبا
التمتدنة نفسها أن الدين أساس السياسة وانها مهما بلغت من الحضارة والمدنية
فان الشعائر الدينية هي عامل من أهم العوامل في حياة الامم بل أهمها وأعظمها

· وأوضح دليل على ذلك تداخل أوروبا في شؤون الدولة العلية باسم الدين
ومعاداة المسيحيين لليهود في كل بلاد أوروبا وتظاهرهم ضدهم في مجالس
النواب وفي الشوارع وفي المنتديات

وبالجمل فمسئلة مصر تعتبر أول مسئلة حيوية للدولة العلية وللخلافة
الاسلامية . ودسائس انكسار ضد الدولة في المسئلة الارمنية وفي غيرها
من المسائل تظهر للقاري . بأجلى بيان أهمية المسئلة المصرية وضرورة اهتمام
العالم كله بها

واذ كانت مسئلة بلادنا بهذه الأهمية وكان خروج الانكليز منها مما
لا بد منه عاجلاً كان أو آجلاً فيجب على سائر المصريين أن يمسكوا بحقوقهم
المقدسة أشد التمسك وان يطالبوا بها بكل الوسائل وفي كل وقت وآن
فأصحاب الحقوق في مسئلة مصر عديدون ولا يمكن أكثرهم حقوقاً
واكبرهم نصيباً هم ولا محالة المصريون

وقصاري القول انه يجب علينا أن نعمل لتقريب ميعاد الجلاء وان
ننشر المعارف في أنحاء البلاد وفي سائر القرى حتي يعرف كل مصري حقوقه
وواجباته نحو الوطن والامة وحتى لا يعتدى لصوص الحرية على بني الوطن العزيز
وان الوطني الحقيقي هو الذي يظهر وطنيته في وقت الشدائد ويقول
ويعمل بهذا القول : « انى لو استطعت ان أغير وجه البسيطة لانتاخذ
بلادى لغيرته بدون تردد »



اللزعة السادسة

(المسئلة البلغارية والمسئلة اليونانية)

من عام ١٨٨٥ الى عام ١٨٨٧

علم القارىء مما سلف ان الروسية اسالت دماء ابناءها في حرب عام ١٨٧٧ مع الدولة العلية وصرفت الاموال الطائلة لاجراج بلغاريا من تحت سلطة الدولة وتشكيها اإمارة قائمة بنفسها وانها في معاهدة سان اسطفانوس اشترطت جعل البلاد التي يسكنها البلغاريون اإمارة واحدة اى عدم تقسيم بلغاريا الى قسمين . وعلم القارىء ايضا ان مؤتمر برلين قرر فصل الاراضي البلغارية الى قسمين وتسمية القسم الجنوبي منها بالرومالي الشرقى وجعله تحت سلطة تركيا مباشرة . وقد ابنا ان الروسية بذلت غاية جهدها في تحريض أهالى الرومالي الشرقى على رفع لواء العصيان فى وجه الدولة العلية والانضمام الى بلغاريا . وكان ذلك عقب مؤتمر برلين اى لما كانت الروسية تؤمل استعمال بلغاريا آلة لها فى البلقان وتسيير أمورها حسب مرادها . ولكن البرنس بسمارك اوجد الشقاق بين الروسية والنمسا فى بلاد البلقان وعلى اأخصوص فى بلغاريا حيث اسال هذه الامارة الناشئة الى النمسا وجعلها فى دائرة نفوذها

ولما كانت العداوة بين الروسية والنمسا اشديدة وكانت الروسية تتقرب من فرنسا رأى سواس بريطانيا ان خير وسيلة تضمن لهم استمرار الاحتلال الانكليزى فى مصر هي خدمة التحالف الثلاثى فى البلقان ومساعدة النمسا ضد الروسية . فلذلك ارسل اللورد سالسبرى الى البرنس (الكسندر

دي باتنبرغ) أمير بلغاريا رسائل التودد وأظهر له الميل الشديد حتى جعل هذا البرنس وجهته انكلترا واربط بالعائلة المالكة الانكليزية ارتباطاً أكيداً وعقد قران شقيقه البرنس { هنري دي باتنبرغ } على البرنس { أليس } احدى بنات ملكة الانكليز . ومن ذلك الحين صار أمير البلغار آلة في أيدي سواس انكلترا والنمسا . فأعزوا اليه باحداث انقلاب في الروملى الشرقى يكون بالقبض على الحاكم العثماني واعلان انضمام الروملى الي بلغاريا تحت امارته . فعمل بهنذه الآراء والاياعازات . وفي يوم ١٨ سبتمبر عام ١٨٨٥ قبض رجال الشرطة في الروملى الشرقى على (جافريل باشا) الحاكم العثماني وتشكلت لجنة ثوروية دعت الامة للانضمام الى بلغاريا فأجابت الامة الدعوة وفي ثاني يوم لهنذه الثورة ذهب البرنس (ألكسندر) الى { فيلبوبوليس } وأعلن انضمام الروملى الشرقى الى بلغاريا وتولى زمام الأمور .

وفي يوم ٢٤ سبتمبر أرسل البرنس (ألكسندر) مذكرة رسمية لكافة الدول الاوروية أخبرها فيها بحادث ١٨ سبتمبر وسألها اعتبار الروملى الشرقى جزءاً من بلغاريا والتوسط لدي الدولة العلية لكي تعترف بهذا الانقلاب الجديد

وما انتشر خبر انضمام الروملى الشرقى الى بلغاريا في أوروبا حتى ظن الكثيرون ممن يجهلون أسرار السياسة في البلقان ان الروسياهي المحرصة على هذا الانقلاب وانه يسرها أن تري كل البلغاريين تحت حكومة واحدة وان تؤسس { بلغاريا الكبرى } . ولكن الحقيقة

مناقضة لذلك فان روسيا رأت بعين السخط انضمام الروملي الشرقي الى بلغاريا وساءها تأسيس (بلغاريا الكبرى) لانها كانت تود تأسيسها وهي ربيبة لها لا وهي عدوة تعمل بآراء النمسا وانكلترا . فلذلك احتجت على هذا الانقلاب واستعفي ضباطها الذين كانوا في الجيش البلغاري وطلبت من أوروبا عقد لجنة دولية بالاستانة للنظر في مسألة بلغاريا لما في انضمام الروملي الشرقي اليها من مخالفة لقرارات مؤتمر برلين فأجابت الدول سوؤها وقررت عقد لجنة دولية بالاستانة

أما الدولة العلية فقد رأى وزراؤها انها مضطرة لقبول قرارات أوروبا وانه لا يمكنها استرداد الروملي الشرقي بالقوة . ولكن جلالة السلطان الاعظم كان يرى ضرورة استعمال القوة والمحافظة على حقوق الدولة بكل الوسائل فأسقط وزارة (سعيد باشا) وأمر (كامل باشا) الذي كان وقتئذ سفيراً للدولة العلية في سان بطرسبورغ بتشكيل وزارة جديدة وعينه صدراً أعظم . وقد كان جلالة السلطان الاعظم يؤمل مساعدة روسيا له ضد دول التحالف الثلاثي وضد انكلترا غير ان رجال السياسة الروسية أفهوا (كامل باشا) أنهم لا يرون بداً من الانصياع لقرارات اللجنة الدولية المزمع عقدها بالاستانة . فاضطرت الدولة العلية لقبول تعيين مندوب من قبلها لحضور هذه اللجنة

ولقد كانت نتيجة انضمام الروملي الشرقي الى بلغاريا ان اليونان و صربيا قامتا مطالبين بتخصيمهما من أملاك الدولة العلية مقابل ما نالت بلغاريا وأخذت كل واحدة من هاتين المملكتين تجهز جنودها وتستعد للحرب . وقد حشدت

بلغاريا كذلك جيشها على حدود صربيا وعلى حدود الدولة العلية وكان يتخيل لكل انسان وقتئذ ان نيران الاضطراب في البلقان ستمتد الى اوروبا وتشمل الحرب فيها . فلما رأت ذلك دول اوروبا أرسلت في ١٥ اكتوبر عام ١٨٨٥ مذكرة الى الدولة العلية والى بلغاريا أبانت فيها انها غير موافقة على عمل بلغاريا وانها تحترم معاهدة برلين وحقوق جلاله السلطان ونصحت فيها بلغاريا بعدم حشد جنودها على الحدود التركية

وقد اجتمعت اللجنة الدولية بالاستانة في ٥ نوفمبر وبعد اجتماعها بتسعة أيام أعلن (ميلان) ملك الصرب الحرب على بلغاريا . ولما وصل اعلان الحرب الى البرنس (الكسندر) أمير بلغاريا استغاث هذا الامير بالدولة العلية بصفتها صاحبة السيادة العالية على بلغاريا واستأذنها في رد الصربيين عن بلاد بلغاريا . وبعد اصطلاء نيران الحرب بزمن قليل انتصر البلغاريون على الصربيين في (سليفينيتزا) وردوهم على أعقابهم خاسرين . وقد هاجت أوروبا لهذه الحرب وخافت عواقبها فأرسلت في ٢٤ نوفمبر عام ١٨٨٥ مذكرة الى الحكومة الصربية طلبت منها ان تسأل بلغاريا عقد الهدنة وعدم الاستمرار على إسالة دماء «الاشقاء» أي الصربيين والبلغاريين

فقبلت الصرب ذلك ولكن بلغاريا لم تقبل بحجة أنها المعتدى عليها وانها مضطرة لطرد الصربيين خارج حدودها . فاستمر البرنس (الكسندر) يحارب الصربيين وينتصر عليهم حتى وصل مدينة (بيرو) وعندئذ أذرتة النمسا بعدم التقدم الى الامام فوققف وقبل عقد الهدنة

أما روسيا فقد بقيت على الحيادة أثناء الحرب ولكنها بالرغم عن

احتجاجها ضد ضم الروملى الشرقى الى بلغاريا هنأت البلغارين على انتصارهم وشكرت شهامتهم . وهذا يدل على ان العواطف الدينية تغلب دائما على الاميال السياسية وان الدين هو فى أغلب الظروف رائد الامم والدول فى سياستها

وقد استمرت اللجنة الدولية بالاستانة فى مناقشاتها ولكن المندوب الانكليزي اجتهد فى جعل هاته المناقشات بغير نتيجة فرفض تعيين حامى عثماني للروملى الشرقى وإجبار البلغارين على احترام معاهدة برلين ولما رأت أوروبا ان جيش بلغاريا لا يزال واقفا أمام الجيش الصربى قررت ارسال لجنة دولية مشككة من بعض رجال العسكرية فى أوروبا لفصل الخلاف بين المتحاربين فسافرت اللجنة الدولية وقررت انجلاء العساكر الصربية من ضواحي (فيدين) — وهى مدينة بلغارية — قبل انجلاء العساكر البلغارية من (بيرو) بيومين

وقد أرسلت الدولة العلية مندوبين الى الروملى الشرقى لدراسة أحوالها واستمالة الاهالى الى الدولة ولكنهم لم يفلحوا فى مأموريتها . وبعثت كذلك مندوبا عالياً الى البرنس (الكسندر) ليرشده فى مخبراته بشأن عقد الصلح مع الصرب . وكانت انكساراً فى ذلك الحين تظهر لتركيا المحبة والولاء وكان السير (درومندولف) فى الاستانة يفهم رجال تركيا بان بريطانيا ترغب الاتفاق مع الدولة العثمانية وتقرر الجلاء عن مصر معها . فانخدع رجال السياسة التركية لاقوال السير (ولف) وازداد نفوذ انكساراً فى تركيا وقتئذ ازيداً عظيماً . وكانت نتيجة هذا النفوذ

غبن تركيا في مصر وفي الروملى الشرقى غبنا فاحشا . فان الدولة العلية رضيت
 أن تضحى الروملى الشرقى في سبيل خروج العساكر الانكليزية من
 مصر وتساهات مع انكلترا فقبلت طلبها بشأن تعيين البرنس (الكسندر)
 أمير بلغاريا حاكما على الروملى الشرقى

*
 * *

وقد أخذت اليونان تجهز معدات الحرب وتسلح جنودها وتستعد
 لمحاربة الدولة العلية . وفي ٣١ ديسمبر عام ١٨٨٥ أرسلت الوزارة اليونانية
 — التي كان يرأسها وقتئذ المسيو (ديانيس) — منشورا لوكلائها لدى
 الدول الأوروبية أمرتهم فيه بتبليغ هاته الدول بان اليونان لم تستول على
 كل ماقرته لها اللجنة الدولية بالاستانة في عام ١٨٨١ وانها مستعدة لأخذ
 نصيبها من أملاك تركيا بالقوة والسلاح . فنصحت أوروبا كما نصحت صربيا
 وبلغاريا بالقاء السلاح وبالكف عن حشد الجنود فلم ترسخ لنصيحة الدول
 واستمرت على غيها . ولما رأأت أوروبا ان الحرب اذا قامت بين اليونان وتركيا
 كانت الطامة الكبرى على اليونان عملت على انقاذ هذه المملكة بالرغم عنها
 وقررت ارسال سفنها وأساطيلها في مياه اليونان لارهابها واجبارها على
 الخضوع والامثال لارادتها . وقد تجنبت فرنسا الاشتراك مع بقية الدول في
 هذه المظاهرة البحرية لما لليونانيين من المكانة في قلوب الفرنسيين
 أما صربيا وبلغاريا فقد أنذرتهما أوروبا بمذكرة تاريخها ٣١ يناير
 عام ١٨٨٦ بأنه اذا اعتدت احدهما على الاخرى ساعدت أوروبا المعتدى
 عليها ولا تسمح للمملكة المعتدية بالاستيلاء على شيء ما من أراضي

المعتدى عليها. وقد كان البرنس {كاراجورجنفيتش} صهراً أمير الجبل الأسود يطوف وقتئذ عواصم أوروبا ويعمل لخلق الملك (ميلان) وتوليته مكانه ملكاً على صربيا فاضطر الملك ميلان الى عقد الصلح مع بلغاريا بمدينة (بوخارست) في ٢ مارس عام ١٨٨٦ لكي لا تتغير عواطف أوروبا من جهته وقد طلبت روسيا من دول أوروبا النظر في المسئلة البلغارية وجعل تعيين البرنس (الكسندر) حاكماً على الروملى الشرقى لمدة خمس سنوات فقط كما تقتضيه قرارات مؤتمر برلين. فرفض البرنس قبول هذا الطلب وعزم على معارضة روسيا غير حاسب لتأج هذه المعارضة حساباً. ولكن روسيا توصلت الى تحقيق ماعرضته على أوروبا فقررت اللجنة الدولية بالاستئانة في ٥ ابريل عام ١٨٨٦ جعل تعيين البرنس (الكسندر) حاكماً على الروملى الشرقى لمدة خمس سنوات وتعيين لجنة مشتركة من مندوبين من الدولة العلية ومن مندوبين من أمير البلغار لدراسة أحوال الروملى الشرقى والوقوف على احتياجاتها وعرض النظام الذى يتفق عليه المندوبون على اللجنة الدولية. فرضخ البرنس (الكسندر) لقرار اللجنة الدولية بالاستئانة وشكل مجلساً أهلياً مشتركاً من مندوبى الروملى الشرقى ومن مندوبى بلغاريا جعله بمثابة مجلس نواب ولم تنكف اليونان في هذا الاثناء عن حشد جنودها على حدود تركيا ومعاداة الدولة العلية. فلما رأى الباب العالى ان هذه الحالة التى ليست بالسلم وليست بالحرب تضر بالدولة كثيراً وتحملها النفقات الباهظة والمبالغ الطائلة سأل الدول الاوروبية ان تجبر اليونان على سحب جنودها من

الحدود او أن تترك الدولة العلية تؤدبها بالحرب . فاهتمت اوروبا بالامر
 وقررت منع الحرب بين الدولة واليونان بكل الوسائط الممكنة وارسلت
 لهذا الغرض انذاراً للحكومة اليونانية بالقاء السلاح والسكف عن الاعتداء
 على حدود تركيا والمضوع لرغائب اوروبا وأخبرتها في هذا الانذار بانها
 تجبرها على احترام رغائبها بالقوة ان لم تحترمها من نفسها وبمحض إدارتها
 . وقد أظهرت فرنسا من بادئ الامر ميلها لليونان ولم ترض الاشتراك
 مع بقية الدول في عمل مظاهرة بحرية . فلما اندرت الدول اليونان رأت
 من واجباتها ان تنصحها بصفتها نصيرتها الوحيدة بالرضوخ لاوامر
 اوروبا . فقدم الوكيل السياسي لفرنسا في أثينا مذكرة للسيو (دليانيس)
 بتاريخ ٢٣ ابريل عام ١٨٨٦ نصحه فيها بعدم اعلان الحرب على تركيا وعدم
 مخالفة رغائب الدول الاوروبية فتظاهر السيو (دليانيس) بقبول هذه
 النصيحة وفي ٢٥ ابريل من السنة نفسها بعث الي وكيل فرنسا بأثينا
 يخبره بانها قبل نصيحة الحكومة الفرنسية وأنه سيمثل بها

ولكن الدول الاوروبية لم تقتنع بهذا الجواب لعلها بان اليونانيين
 لا يصدقون في أقوالهم وأنهم يريدون اصطلاء نيران الحرب في كل بلاد
 البلقان ليختطفوا شيئاً من أملاك تركيا فارسلت الي الحكومة اليونانية
 في مساء ٢٦ ابريل عام ١٨٨٦ انذاراً شديداً للجمعة طلبت منها إعادة عدد
 الجيش الي ما كان عليه من قبل والسكف عن كل عمل عدائي ضد تركيا
 والقيام بتنفيذ ارادة اوروبا في مدة لا تزيد عن أسبوع واحد . ولا ينس
 القاري أن اوروبا كانت تعمل لخير اليونان ومصالحها فان الدولة العلية

كانت تهزم اليونان شرهزيمة لو كانت أعلنت الحرب . فلذلك كان تهديد أوروبا لليونان بمثابة انقاذ لها من الوقوع في مهواة الخطر والاضمحلال .

وقد رفضت اليونان قبول الانذار الدولي وسافر وكلاء الدول بأثينا من عاصمة اليونان الا وكيل فرنسا فانه بقي بها بعدهم قليلا ثم غادرها بحجة انه يريد المداولة في الامر مع المسيو (فريسينيه) وزير خارجية فرنسا . ولما رأت الدول ان اليونان تظهر الكبرياء والترفع عن الانصياع لرغائبها أمرت قواد أساطيلها في مياه اليونان بمحاصرة الثغور اليونانية محاصرة شديدة حتى تتمثل الحكومة اليونانية لأوامر أوروبا الشفوقة عليها . فحوصرت الثغور اليونانية واضطرت وزارة (دليانيس) الاستقالة وفي ٢١ مايو عام ١٨٨٦ استلم المسيو (تريكويس) مقاليد الوزارة اليونانية فأعلن الدول الأوروبية بأنه مستعد للرضوخ لأمرها ولكنه في أثناء ذلك أوعز الى فرقة من الجيش اليوناني بالهجوم على طليعة الجيش التركي وادعى ان جيش جلالة السلطان هو المعتدي على جيش اليونان لتساعدته الدول ضد الدولة العلية وترفع الحصار عن الثغور اليونانية . ولكن الدول تبنت للحيلة وطالبت الحكومة اليونانية بالقاء السلاح وإعادة عدد الجيش الى ما كان عليه من قبل وسحب الجنود من الحدود . فامتثل اليونانيون للأمر وفي ٨ يونيو عام ١٨٨٦ رفعت الدول الحصار عن ثغور اليونان

وإن استعداد اليونان للحرب وتظاهرها بالمداء اتركيا في عام ١٨٨٦

ليدلان جيداً على ان هذه المملكة كانت تستعد من عهد بعيد لمحاربة تركيا وأنها لم تغفل لحظة واحدة عن تسليح جنودها وتجهيز جيشها . فانضمامها في الحرب الاخيرة دواء شاف لها من مرض غرورها . ولا أقول انه يشفيها الى الابد فان المرض كامن في النفس وعداوتها للعثمانيين والمسلمين قوية لدودة . ولكن انتصارات { أدهم باشا } تشفيها من غرورها زمناً طويلاً وقد اجتهد في ذلك الحين البرنس (الكسندر دي باتبرغ) أمير بلغاريا في تحقيق انضمام الروملي الشرقي الى بلغاريا فانشأ الجمارك على حدود الروملي أمام حدود تركيا وصارت البضائع التركية لا تدخل في هذه المقاطعة التركية الا اذا دفعت رسوم الجمارك . وصرح أمام الجمعية العمومية التي شكلها كمجلس نواب لبلغاريا والروملي بان الوحدة البلغارية تكونت وانه لا يستطيع انفصامها . فلما علمت بذلك روسيا ازداد حنقها على بلغاريا وأميرها وأرسلت في آخريونيه عام ١٨٨٦ مذكرة الى الباب العالي سألته فيها أن يؤدب بلغاريا ويوقفها عند حد محدود فأجابها الباب العالي معتذراً بان بلغاريا معضدة من أغلب دول أوروبا . فعند ذلك أعلنت روسيا أنها عازمة علي جعل ثغر (باطوم) ثغراً حربياً روسيا لا ثغر حراً . ولا يخفي ان ذلك يخالف المادة ٥٩ من معاهدة برلين ولكن روسيا لما رأت ان معاهدة برلين غير محترمة من البلغار أرادت أن تنتقم من الدول المعضدة لها وعلى الخصوص من انكلترا بجعل ثغر (باطوم) غير حر للتجارة . وقد احتجت انكلترا على عمل روسيا ولكن احتجاجها لم يفد شيئاً مذكوراً

وقد اجتمع مندوبو تركيا مع مندوبي أمير البلغار للنظر في شؤون
الروملي الشرقي للاتفاق على وضع دستور لها ولكن الخلاف استحکم
بينهم بشأن تابعيتها فنندوبو تركيا كانوا يطالبون بجمعها كما كانت تابعة مباشرة
للدولة العلية مع جعل البرنس (الكسندر) حاكما عليها ومندوبو البلغار
كانوا يطالبون بضمها تماما الى بلغاريا

ولما كانت كراهة الروسيا للبرنس (الكسندر) تزداد كل يوم فان
هذه الدولة دبرت له دسيسة عظيمة وعملت على خلعها من امارة بلغاريا. وذلك
انها أوحث الي صنائعها في صوفيا ان يلقوا القبض عليه ويخرجوه من بلغاريا
ويؤسسوا حكومة مؤقتة. فعملوا بايعاز الروسيا وفي يوم ٢١ أغسطس
عام ١٨٨٦ تمت المسكيدة وقبض على البرنس (الكسندر) وأرسل على باخرة
لجهة غير معلومة. وزج المسيو (كارا فلوف) وزيره الاول في السجن وأسس
أصحاب المسكيدة لجنة منهم للنظر في الامور لحين تعيين أمير جديد لبلغاريا.
ولا شك ان هذا الحادث الخطير كان ضربة قاضية على سياسة انكلا ترا في الشرق
وكان من شأنه ان يزيد في النفور بينها وبين الروسيا. وقد حسبت انكلا ترا
انه يمكنها مقاومة الروسيا في بلغاريا بمساعدة ألمانيا والنمسا واعادة البرنس
(الكسندر) أميراً على بلغاريا ولكن ألمانيا التي كانت بيدها سياستها وسياسة
النمسا تخوفت من معاداة الروسيا الي هذا الحد وتركت مسألة البرنس
(الكسندر) للظروف والحوادث. وكان الكثيرون من رجال السياسة
يحبسون ان الامة البلغارية تقابل خلع البرنس (الكسندر) بغير حراك
وتتمثل لارادة اللجنة الثورية التي خلعتة بايعاز الروسيا ولكن الامة البلغارية

كانت متعلقة بالبرنس (الكسندر) ولم تنس انه نصرها على صربيا نصرآ
 ميناوا أنه ضم الى بلغاريا (الروملى الشرقى فهاجت وماجت وتظاهرت فى
 الشوارع والمنتديات العمومية بالميل للبرنس (الكسندر) طالبة اعادته أميراً عليها
 . وفى يوم ٢٤ أغسطس عام ١٨٨٦ أي بعد ثلاثة أيام من خلع البرنس {الكسندر}
 قبض الاهالى على أعضاء اللجنة التى خلعت البرنس وزجوههم فى السجن
 وشكلوا لجنة مكونة من المسيو (ستامبولوف) والمسيو {مارافرف}
 ومن آخرين بهيئة حكومة مؤقتة وكلفوهم باخبار البرنس (الكسندر)
 رسمياً بأن الامة البلغارية تريد رجوعه أميراً عليها ، فأخذوا يبحثون عن
 مقر البرنس حتى علموا أنه فى المانيا فأخبروه تلغرافياً بالامر ودعوه
 للعودة الى صوفيا فاسافر اليها فى ٢٩ أغسطس عام ١٨٨٦ واستلم من الحكومة
 المؤقتة زمام الامور

وقد احتفلت أهالى بلغاريا بعودة البرنس {الكسندر} الاحتفالات العظيمة
 ولكن الروسيا بقيت على نيتها الأولى فلما رأى البرنس ان سلامته وسلامة
 ملكه فى يد الروسيا ارسل الى القيصر تلغراف عرض عليه فيه خضوعه لاوامره
 واستعداده لقبول كل مطالبه فأجابه القيصر بأنه لايعتنى بأمور بلغاريا
 الا اذا غادرها هو (أى البرنس الكسندر). فكانت نتيجة اتباع هذا
 الامير لارشادات انكتراتعصب الروسيا ضده وعدم مساعدة المانيا
 والنمسا له وابتعاد انكترانفسها عنه كل الابتعاد حتى أن وكيل وزارة
 الخارجية الانكليزية صرح فى ٦ سبتمبر عام ١٨٨٦ أمام مجلس العموم
 بأن انكترالتم تعهد بشيء نحو بلغاريا وان ليس لها مصالح فيها

فلم يبق بعد ذلك كله للبرنس (الكسندر) الا أن يتنازل عن إمارة بلغاريا . وقد تنازل بالفعل رسميا في ٦ سبتمبر عام ١٨٨٦ وغادر في ذلك اليوم نفسه صوفيا تاركا زمام الامور لمجلس مكون من الميسو (ستامبولوف) والميسو (كارافلوف) والميسو (موتكوروف) . وقد تخوف هؤلاء الاعضاء من احتلال الروسيا بالبلغاريا احتلالا عسكريا فاستلتموا أنظار الدولة العلية للامر بصفتها صاحبة السيادة على بلغاريا فخبرت الدولة دول أوروبا ولما تحققت من انها لا تسمح لاية دولة باحتلال بلغاريا أخبرت الحكومة البلغارية المؤقتة بأن لاخوف على الامارة من احتلال الروسيا لها وقد أرسلت الروسيا الي صوفيا بعد تنازل البرنس (الكسندر) الجنرال «كولبار» بصفة مندوب من قبلها لدراسة أحوال بلغاريا وارشاد الحكومة المؤقتة في سيرها . وما وصل الجنرال (كولبار) الي عاصمة بلغاريا حتى عامل الحكومة المؤقتة والامة البلغارية معاملة الامير لرعاياه فطلب من الحكومة المؤقتة : أولا الافراج عن أعضاء اللجنة التي قبضت في ٢١ أغسطس على البرنس { الكسندر } وخلعته من إمارته . ثانيا إبطال الحالة العرفية . ثالثا تأجيل عقد مجلس النواب - الذي كان يجب أن يجتمع في ١٠ أكتوبر عام ١٨٨٦ لانتخاب أمير جديد - الي أجل غير محدود وفي أثناء هذه الحوادث كلها كان الناس كافة يتساءلون في أوروبا عن سبب مساعدة البرنس { بسمارك } لروسيا في بلغاريا بعد مساعدته للنمسا وانكسارها فيها . وقد اختلفت الملل التي نسبوها لمساعدة البرنس « بسمارك » لروسيا . ولكن الحقيقة هي ان رجل السياسة الالمانية رأي ان

الروسيا مستعدة لمحاربة النمسا اذا عارضتها هذه الدولة في البلقان وان المانيا تكون مضطرة لمساعدة النمسا اذا قامت الحرب فعمل على تأييد السلام . هذا فضلا عن ان الروسية كانت تحبب الي فرنسا وكان البرنس « بسمارك » يخشى انه اذا ساعد النمسا في بلغاريا ضد الروسية تحالفت هذه الدولة الاخيرة مع فرنسا

وقد بذل الجنرال (كوليبار) غاية جهده في استمالة البلغاريين اليه ضد الحكومة المؤقتة فصار يطوف البلاد والقري ويخطب في كل ناد ولكنه لم يفلح ورفضت الحكومة طلباته وحاکمت الذين قبضوا على البرنس (الكسندر) في ٢١ أغسطس ولم تؤجل ميعاد انتخابات أعضاء مجلس النواب الذي كان محددًا في يوم ١٠ أكتوبر عام ١٨٨٦ كما قدمنا . ولما جاء هذا اليوم جرت الانتخابات ففازت الحكومة المؤقتة بأغلبية ٤٥٠ صوتا ضد ٥٠ صوتا وقررت عقد المجلس في آخر شهر أكتوبر بمدينة (تيرنوا) العاصمة القديمة لبلغاريا . اما الجنرال (كوليبار) فانه اعتبر الانتخابات لاغية بدعوى ان الحكومة المؤقتة لم تترك الحرية التامة للأهالي وأعلن أعضاء الحكومة بأن الروسية تعتبر محاكمة الذين قبضوا على البرنس (الكسندر) بمثابة إهانة لها . وقد عمل الجنرال (كوليبار) على خلق الاضطرابات في بلغاريا ليجند سببا لتداخل الروسية فيها تداخلا عسكريا فخرض الروسيين المقيمين ببلغاريا على مشاحنة البلغاريين ومخاصمتهم فحصلت بسبب ذلك مشاجرات كثيرة أفضت الى زيادة النفور بين الجنرال الروسي وأعضاء الحكومة المؤقتة . ولم يقبل أعضاء الحكومة المؤقتة الا طلبًا واحدا من

طلبات الجنرال (كولبار) وهو منسج مجلس النواب من اعادة انتخاب
البرنس (الكسندر دي باتنبرغ) أميراً على بلغاريا
وقد اجتمع مجلس النواب البلغارى فى ٣١ اكتوبر عام ١٨٨٦ وانتخب
فى ١١ نوفمبر البرنس (فالدماردى دانمارك) أميراً على بلغاريا . وكان
هذا الانتخاب موافقا لمصالح بلغاريا وغير مخالف لرغائب الروسيا فان هذا
البرنس هو شقيق قيصرة الروسيا (زوجة القيصر اسكندر الثالث ووالدة
القيصر الحالى) . ولكن ملك الدانمارك رفض بتأقبول تعيين نجله أميراً
على بلغاريا فاضطر مجلس النواب البلغارى لتعيين المسيو { جيفكوف }
حاكماً مؤقتاً لبلغاريا

ولا ريب ان الروسيا كانت تود احتلال بلغاريا وجعلها فى قبضة يمينها
ولولا ذلك لكانت سألت ملك الدانمارك أن يقبل تعيين ابنه أميراً
على بلغاريا . ولما عرفت انكلترا رغبة الروسيا ونواياها الحقيقية سمعت
لدى النمسا للاتفاق معها ضد الروسيا وسافر لهذا الغرض اللورد
(راندولف شرشل) الى فيينا بعد ان زار برلين . وفى ٩ نوفمبر عام ١٨٨٦
وقف اللورد سالسبورى فى لوندرة خطيباً ووجه الملام الشديد الى
الروسيا وانتقد على سياستها وخطتها فى بلغاريا وأعلن ان انكلترا استعدادة
للاتفاق مع النمسا فى المسئلة البلغارىة ، فهاجت الجرائد الروسية وقابلت
مطاعن الوزير الانكليزى بمثلها وطلبت من الحكومة الروسية قطع
العلائق مع انكلترا واستدعاء السفير الروسى من لوندرة
وفى هذا الاثناء قطعت الروسيا علائقها مع بلغاريا المخالفة الحكومة

المؤقتة لرغائبها وفي ٢٠ نوفمبر عام ١٨٨٦ غادر الجنرال { كوليبار } صوفيا واستصحب معه كل قناصل روسيا بعد ان علق في الشوارع احتجاجاً ضد أعمال الحكومة المؤقتة التي سماها بحكومة اللصوص، وترك الرعايا الروسيين في بلغاريا تحت حماية قنصل ألمانيا وفي الرومللي الشرقي تحت حماية قنصل فرنسا

وقد عرض الباب العالي في ٣ ديسمبر عام ١٨٨٦ على الدول الأوروبية تعيين البرنس (دي منجريلي) أميراً على بلغاريا ولكن الدول رفضت تعيينه بحجة أنه مبعوض من البلغاريين ومحجوب من روسيا . ولما طال الامر وطال انتظار البلغاريين لتعيين أمير لهم أرسلت الحكومة البلغارية المؤقتة لجنة الي عواصم أوروبا لسؤال الدول التعجيل بالاتفاق على تعيين أمير لبلغاريا . فسافرت اللجنة الي فيينا حيث قوبلت فيها باحترام عظيم ثم قصدت برلين ولكنها لم تقابل فيها بمثل ذلك الاحترام وبعد ذلك سافرت الي باريس ولوندره . ومن الصدف الغريبة أنها تقابلت في محطة { كولونيا } مع البرنس (ألكسندر دي باتنبرغ) فحيتته أجل تحية وأبلغته بقاء الامة البلغارية على ولائها له ولكن البرنس كان يعلم أن عودته الي بلغاريا صارت أمراً مستحيلاً . وبعد ان أتمت اللجنة رحلتها قصدت الاستانة العلية ورفعت الي مقام جلالة السلطان الاعظم فروض التابعية وأخذت تتخبر في عاصمة الدولة مع رجال تركيا ومع سفير روسيا ولكن الاتفاق لم يحصل بينها وبين السفير الروسي . فارسلت عندئذ الدولة العلية في آخر شهر مارس عام ١٨٨٧ (رضا بك)

الى صوفيا بصفة مندوب عال من قبلها لايجاد الوفاق بين الاحزاب
 البلغارية وبعضها وبمشت بمذكرة للدول الاوروبية ابانت لها فيها ان بقاء
 بلغاريا بهذه الحالة مضر بها وان التعجيل بحل المسئلة صار واجبا
 ولما ياس البلغاريون من اتفاق الدول الاوروبية على تعيين أمير لهم
 عرضت الحكومة المؤقتة على مجلس النواب البلغاري انتخاب البرنس
 (فرديناند دي ساكس كوبور) فانتخبه المجلس في يوم ٧ يوايو عام ١٨٨٧
 أميراً على بلغاريا وأبلغه ذلك بصورة رسمية فأرسلت عندئذ الدولة العلية
 لدول أوروبا تسألها رأيها في الامر فأجابت كل دولة على حدتها بانها تقبل
 تعيين البرنس (فرديناند) اذا وافق ذلك رغبة الدول كلها. الا الروسية فانها
 أجابت بانها لا تقبل أي قرار يصدره مجلس النواب البلغاري. فامتنع بذلك
 اجماع الدول على تعيين البرنس (فرديناند). أما البرنس نفسه فانه بعد ان بقى
 متردداً بين القبول والرفض بضعة أيام قبل اماره بلغاريا وسافر الى صوفيا
 في ١٠ أغسطس عام ١٨٨٧ وعند وصوله اليها أرسل للحاضرة السلطانية
 تلغرافاً أعرب فيه عن صدق اخلاصه وعن أمله في مساعدة الدولة العلية له. وفي
 ١٤ أغسطس أدي امام مجلس النواب البلغاري يمين الاخلاص للامنة
 البلغارية والعدل في الاحكام. وفي ١٨ أغسطس زار مدينة (فيليوپوليس)
 عاصمة الروملى الشرقى مظهراً بذلك انه لا يرضى بترك هذه المقاطعة
 للدولة العلية. وقد شكل الوزارة البلغارية بعد ذلك تحت رئاسة المسيو
 (ستامبولوف) أشد أعداء الروسية في بلغاريا
 وقد سأل الباب العالي الحكومات الاوروبية عن رأيها بشأن جلوس

البرنس (فرديناند) علي كرسى إمارة بلغاريا فأجابت روسيا بان الدولة العلية يجب عليها التداخل في بلغاريا وطرده البرنس منها وأجابت بعض الدول الاخرى بضرورة الاتفاق مع روسيا في الأمر . فمرضت روسيا على الدولة العلية ارسال الجنرال الروسي (ارزوت) الي بلغاريا لتوطيد الامن فيها وخلص البرنس (فرديناند) فقبلت الدولة العلية ذلك ولكنها اشترطت على روسيا اشتراك مندوب عثمانى مع (ارزوت) في مأموريته . وفي هذا الاثناء كلفت انكلترا والنمسا واطاليا قناصلها في صوفيا بمقابلة البرنس { فرديناند } واعتباره أميراً على بلغاريا . فكان هذا العمل بمثابة اعتراف من هذه الدول الثلاث بتعيين البرنس { فرديناند }

ومن حسن حظ البرنس { فرديناند } ان المخبرات لم تنجح بين الدولة العلية وروسيا وبقيت اذالة على ماهي عليه وسارت بلغاريا في عهد وزارة المسيو { ستامبولوف } على سياسة مناقضة لسياسة روسيا بالمره . ولم تعتدل سياستها وتحسن علاقاتها مع روسيا الا بعد سقوط { ستامبولوف } وقتله واعتناق البرنس (بوريس) ولي عهد بلغاريا وابن البرنس { فرديناند } للدين الارثوذكسى في هذه السنين الاخيرة . ولم يعترف جلاله السلطان الاعظم بتعيين البرنس (فرديناند) أميراً على بلغاريا الا بعد تحسن علاقاته مع روسيا . وقد دل ذلك على ان بين روسيا والدولة العلية ألفة ومودة . وبعد اعتراف الحضرة السلطانية بتعيين البرنس { فرديناند } أميراً على بلغاريا اعترفت به الدول جماء . وبذلك انتهت

ومن الامور المحزنة ان كل أزمة من أزمات المسئلة الشرقية تنتهي
بسلب جزء أو أجزاء من أملاك الدولة العلية فقد فقدت الدولة
في هذه الازمة الروملى الشرقى وأضاعت نفيس أوقاتها في مخابرات
لا نفع فيها ولا جدوى



(الأزمة السابعة)

(المسئلة الأرمنية)

لقد اعتمد بعض سواس الدولة العلية زمناً طويلاً ان الدولة الوحيدة التي يجب مصافاتها والتقرب منها والعمل بارشاداتها هي دولة انكلترا دون سواها من الدول الاوروبية . ورسخ هذا الاعتقاد في أذهان الكثيرين حتى انه كان يستحيل على أحد سواس الدولة العثمانية ان يتنبأ بمصير هذه المودة الانكليزية القديمة وبالعداوة الشديدة التي أصبحت تجاهر بها انكلترا نحو الدولة العلية . ومن يطالع على مذكرات وزراء تركيا السالفين ووصاياهم يجد ان أكثرهم كانوا ينصحون سلاطينهم باخلاص الود للدولة الانكليزية وباتخاذها الصديقة الوحيدة بين دول أوروبا . ولا ريب ان ثقة الدولة العلية بانكلترا أضرت بها ضرراً بليغاً وكانت سبباً لحروب عديدة فقدت فيها تركة المال والرجال والبلدان . وان كل عارف بتاريخ انكلترا وبسياستها في ماضيها وحاضرها لا يرتاب لحظة واحدة في ان الدولة الانكليزية لا صديق لها وان صداقتها المزعومة للدولة العلية لم تكن سلاحاً للاضرار بالدولة العلية نفسها وآلة تكسبها من المكاسب بقدر ما تجر على تركيا من الخسائر

وما السياسة في عرف الانكليز الا علم الكذب والنفاق والحيل فهم لا يعرفون مع السياسة شرفاً ولا بمحترمون عهداً ولذلك كانوا في الحقيقة ألد أعداء الدول التي يتظاهرون لها بالصداقة والولاء وكانت الدول المعادية لهم سالمة من مكائدهم ومن خداعهم

ولم يرتفع الستار تماماً وتكشف حقيقة آميال الانكليز نحو الدولة

العلية الا في عام ١٨٩٣ عند ما ظهر سمو العباس انه لا يعرف له متبوعا
 غير الحضرة السلطانية ويمم دار السعادة لتأدية فروض التبعية والاخلاص
 لصاحب الخلافة العظمي . فان الانكليز مادخلوا مصر الاسبب الشقاق
 بين المتبوع الاعظم والتابع وما توطدت سطوتهم فيها الا بذلك الشقاق
 المشؤوم . فكان من الامور البديهية ان تقرب عزيز مصر من الحضرة
 السلطانية يضر بمصالحهم في مصر ويخرج مركزهم فيها ويلبس المسئلة
 المصرية ثوبا جديداً في أعين الناس كافة . ولذلك هم بذلوا الجهد الجهد
 في تنفير سمو العزيز من السلطنة السنية ولما لم يفاجوا اخذوا ينفرون
 صاحب الخلافة من أمير مصر فخطت كذلك مساعيهم في هذا السبيل .
 وبعد زيارة سمو الخديو للاستانة في المرة الاولى انتشرت الاشاعات في
 كل دوائر أوروبا السياسية بأن الانكليز يسعون لدي الدولة العلية في خلع
 سمو الخديو الحالي وان جلالة السلطان الاعظم يقابل هذه المساعي بزيادة
 الانعطاف نحو أمير مصر وزيادة اظهار الرعاية له واشعبه وبلاده .
 وقد تكررت هذه الاشاعات واكدها الكثيرون من رجال السياسة
 الاوروبية وانتظر الكل عندئذ حصول فتور وجفاء في العلائق بين
 الدولة العثمانية ودولة بريطانيا . الا انه لم يكن يخطر على بال أحد وقتئذ
 ان انكلترا تعمل على هدم السلطنة العثمانية انتقاماً منها وتحقق الاضطرابات
 والثورات في قلب المملكة التركية تشفياً من صاحب الخلافة الاسلامية .
 ولكن انكلترا اشتهرت بانها لاتقف أمام عائق بلوغ غايتها وإدراك
 بغيها فقد ساحت الارمن البروتستانت وألقت عليهم التعليمات باحداث

هيجان عام في كافة أنحاء المملكة العثمانية والاعتداء على المسلمين في كل بلد عثمانية ووعدهم بالمساعدة والتدخل وإيجاد مملكة أرمنية مستقلة. وبالجملة لم تجد انكلترا وسيلة لوضع يدها نهائياً على وادي النيل سوي خلق المسئلة الارمنية

وكان لانكلترا في الثورة الارمنية جملة مقاصد . فهي كانت تريد قبل كل شيء زعزعة أركان الامن والسلام في تركيا وإضعاف سلطة الحكومة العثمانية وإرهاب جلاله السلطان الاعظم وإجباره على الخضوع لرغائبها والعمل بأوامرها . وكانت انكلترا تعلم علم اليقين ان اضطراب الاحوال في تركيا وقيام المسيحيين ضد المسلمين والمسلمين ضد المسيحيين وما شاكل ذلك من الامور يدعو حتماً إلى تدخل أوروبا في الامر وتحزبها ضد الدولة العلية إذ الحقائق تنشر في أوروبا . فلو بته وطالما اعتدي المسيحيون على المسلمين وادعت جرائد أوروبا ان المسلمين هم المعتدون وانهم وحدهم المقترفون لكل الآثام . وكان الانكليز يعلمون أيضاً ان تدخل أوروبا في مسائل تركيا وتحزبها ضدها يملآن قلوب المسلمين غلا وكراهة للمسيحيين ويشجعان المسيحيين على الاستمرار في خطتهم الثورية فيزداد بذلك البلاء ويم الدمار والفناء وتنزل المصائب على تركيا وتحمل البلايا بالسلطنة العثمانية . وازدياد كراهة المسلمين لاوروبا كان من شأنه ان يجعل المصريين في بأس من نجاة وطنهم وتدخل الدول في صالحهم فيستسلمون للانكليز ويعتدل سمو الحديد مع المحتلين . وهذا جل ما كان يتمناه الانكليز من تحزب أوروبا ضد الدولة وضد الاسلام

وغير ذلك فان انكلترا كانت تعمل بتحزيبها لاوروباء ضد الدولة العلية
 وضد الاسلام على تفهيم المسلمين كافة بانها القائدة لزاماً اوروبا وانها صاحبة
 الامر والنهي في سياسة الدول ليمتلاً بذلك المسلمون رهبة منها وترداد
 سيطرتها في العالم الاسلامي . وكانت السياسة البريطانية ترمى الي أحد أمرين
 اما رهاب جلالة السلطان الاعظم وتسييره حسب أهولها وأغراضها واما
 خلعها وتولية من يكون بالطبع صنعة لانكلترا وأسير آ لها . ولا ريب ان
 خلع جلالة السلطان الاعظم كان يكون سبباً للقلاقل لاعدادها وداعية
 لاضطراب عام في كافة انحاء العالم العثماني والاسلامي . فمن ذا الذي كان يرضى من
 العثمانيين ان تسقط اوروبا السلطان العثماني وتتداخل في شؤون الدولة العلية
 لهذا الحد ؟ ومن ذا الذي كان يرضى من المسلمين ان تنزل اوروبا المسيحية
 خليفة الاسلام عن عرش خلافة ؟ ومن ذا الذي كان يري من العثمانيين
 والمسلمين هذا الامر الخطير بعين الرضا والسكون ؟ ومن ذا الذي كان يقبل
 الخضوع لسلطان عينته اوروبا وخليفة أجلسه على عرش الخلافة دول
 المسيحية بعد ان خلعت خير سلطان وأشرف خليفة ؟ بل وماذا كان
 يعمل الكاثوليكيون لو توصل جلالة السلطان الاعظم الى خلع حضرة البابا ؟ ...
 أي الي عمل ما تريد انكلترا أن تعمله معه

ان تحقيق أمنية انكلترا بخلع جلالة السلطان الاعظم كانت تكون تحقيقاً
 للشروع والمصائب والبلية التي لم ير النوع البشري مثيلاً لها في تاريخه
 وقد أوضحنا في مقدمة هذا الكتاب ان انكلترا تريد هدم السلطنة
 العثمانية وتقسيم الدولة العلية ليسهل لها امتلاك مصر وبلاد العرب

وجعل خليفة الاسلام تحت حمايتها وآلة في أيديها . وهي تقصد بتقسيم الدولة العلية غير ذلك إحداث حرب عمومية في أوروبا وإضعاف فرنسا والروسيا . فان الموازنة الاوروبية لا تتم الا ببقاء الدولة العلية وسلامتها . واذا قسمت هذه الدولة (لا قدر الله) قامت الثورات في كل أنحاء الشرق وهاجت أمم البلقان وصار كل يطالب بشيء فيعم الهيجان وتقوم الحرب العمومية ولا محالة . وبما ان الانكليز كانوا يؤملون نوال مصر وبلاد العرب فانهم كانوا يرضون ترك الشام لفرنسا والاستانة للروسيا ولا يخفى ان إستيلاء فرنسا على الشام والاماكن المقدسة من شأنه ان يقيم في وجهها كثيراً من الائم المسيحية ويشير المسلمين كافة ضدها ويجعل مستعمراتها الافريقية والاسيوية التي أهلها مسلمون مشتتة نيران الثورة في سائر أنحاءها . كذلك استيلاء روسيا على الاستانة فانه كان يغير بالمرّة وجه الوجود ويفقد الموازنة الاوروبية ويقيم ضد روسيا كل المسلمين التابعين لها وغير التابعين . فان الاستانة تعتبر في نظرنا معاصر المسلمين قلعة الاسلام وحصنه الحصين والمدينة التي يجب المحافظة عليها أكثر من سواها بدمكة والمدينة . فقد وعد الرسول عليه الصلاة والسلام الفاتح لها بالجنة دليلاً على ما لها من الشأن والاهمية

ومن ذلك يري القارىء ان انكثرت اعمالها بمجاهدتها للمسئلة الارمنية على تدمير ملك آل عثمان وضعضة السلطة الاسلامية وإذلال العثمانيين والمسلمين وإحداث حرب عامة في الغرب وفي الشرق

وقد انكثرت الارمن بالتشجيع والتحرير على متابعة الثورة والهيجان وما فنتت ترسل اليهم الذخائر والاسلحة وتحضهم على الاسترسال في التمرد والعصيان فعملوا بتحريضها وتلطفوا بدماء الجرائم والفظائع متسلحين في كل أعمالهم بالاسلحة الانكليزية. ورأى العالم هذه الطائفة التي كانت عائشة في مجبوحة السعادة والرفاهية والتي كان يسميها العثمانيون « بالملة الصادقة » واتي لها في مناصب الحكومة والادارات وفي التجارة والصناعة الشأن الاول ثور ضد الدولة العلية هذه الدولة العادلة المعتدلة التي اراد أحد ملوكها اجبار المسيحيين على اعتناق الدين الاسلامي فعارضه العلامة أبو السعود وأرجعه عن عزمه . هذه الدولة التي تركت للارمن وغيرهم حرية دياناتهم وتقاليدهم واحترمت رجال دياناتهم كعلماء المسلمين

ولما جرت محاكمة ثوار الارمن في عام ١٨٩٣ أمام محاكم (انقره) ظهرت الحقيقة التي لا ريب فيها وتبين للعالمين ان انكثرتا هي الموعزة لهمم بالثورة والمحرضة لهم على شق عصا الطاعة للدولة العلية . فقد ضابط رجال البوليس العثماني كاتب أسرار الجمعية السرية المدبرة لحركة الثورة وبين يديه أوراقه المشتملة على أكثر أسماء الاعضاء واتضح أن الارمن البروتستانت هم وحدهم القائمون بالثورة دون الكاثوليك وان لهم جمعيات سرية داخل الدولة العلية وخارجها وان هذه الجمعيات تمد بالمال الجرائد الارمنية الثوروية وعلى الخصوص جريدة (هنتشك) التي هي أهمها . وقبض كذلك رجال البوليس العثماني على بعض المبعوثين الامريكان البروتستانت الذين كانوا يشتركون مع الارمن في تدبير الدسائس فاحتج سفير الولايات المتحدة على القبض

عليهم وطلب الافراج عنهم فتعظفت الحضرة السلطانية وسمحت له بارسال مندوب من قبله للتحقيق في أماكن الواقعة فسافر المندوب ولما عاد قدم تقريراً قال فيه ان التحقيقات التي أجراها الحكام العثمانيون منطبقة على العدل وان الذين قبض عليهم من مبعوثي البروتستانت لا يستحقون المساعدة ولا الرأفة

وقد أبان التحقيق في قضية ثوار الارمن أمام محاكم (أنقره) أنهم كانوا يجمعون الاموال باسم المستشفيات المراد انشاؤها وكانوا ينفقونها على شراء الاسلحة ونشر الافكار الثورية وترويجها بين سفلة الارمن وان رجال الدين من الارمن والرهبان كانوا يساعدونهم ويسكنون بعضهم في الكنائس وان مدينة (مرسيان) جعلت مركزاً لا كبر جمعية . واستدل من التحقيق على ان بعض رجال السياسة الانكليزية كالمستر غلادستون شجع سراً بكتابات خصوصية بعض رجال الدين من الارمن على الثورة واحداث القلاقل في تركيا ووعدهم بمساعدة انكلترا وتعضيدها وتشكيل امارة أرمنية مستقلة

وأبان التحقيق كذلك أن ثوار الارمن كانوا يخطبون في جمعياتهم السرية ضد الدولة العلية ويحرضون سفلة قومهم على السلب والنهب وقطع الطريق وارتكاب الفظائع والجرائم حتى تعتقد أوربان الارمن أمة حية وتعمل لاجراجها من تحت ساطة الدولة العلية . وأبان التحقيق أيضاً أنهم كانوا متفقين على رموز واشارات للتعارف بها كرفع الشوارب ومس الآذان وتعطية الوجه وما شا كل ذلك وانهم كانوا يتزبون بزى الاتراك والاكراد

والجراكسة ويفتكون بالمسلمين و ببعض الارمن أنفسهم لتشييع الجرائد في أوروبا ان المسلمين متعصبون وأن الارمن يقاسون العذاب اشكالا وألوانا . واتضح من التحقيق أن ثوار الارمن كانوا يسرقون الخيول ويسلمونها لراهب اسمه (دانيال) اشتهر بالمهارة الفارقة في صبغ الخيول وتغيير ألوانها ثم يبيعونها بعد ذلك وانهم كانوا يهددون من لا يريد الانحراط في سلك جمعياتهم بالقتل وكانوا يقتلون كل من يفشي أسرارهم وأثبت التحقيق جلياً ان ثوار الارمن كانوا ينشرون في أنحاء المملكة العثمانية اعلانات باسم المسلمين تحرض الامة على اشهار العداوة لجلالة السلطان الاعظم والمناداة بخلمه . وقد عثر المحققون في هذه القضية المهمة على نصوص هذه الاعلانات مطبوعة في جريدة (هنتشك) الارمنية التي تطبع في لوندرة

وقد جرت المرافعات في هذه القضية أمام محاكم أنقره وأظهر حضرة المفضل محمد عارف بك أفندي المدعي العمومي بأجلي بيان أن المحرك لهذه الفتنة هم أعداء الدولة العلية وأنه يجب القصاص من هؤلاء الثوار المجرمين الذين خانوا عهد الدولة والوطن . ومن أصدق العبارات التي قالها في مرافعته قوله :

« ان رعايا جلالة مولانا السلطان الاعظم من الارمن الذين هم من مدة ستمائة سنة مغمورون في بحار تفضلات الدولة العلية واحساناتها والذين هم برعاية مولانا العادل ممتعون بالراحة والعدل محافظون مثل بقية الرعايا العثمانية المخلصة على وطنيتهم وحريةهم الدينية وآدابهم وادبهم

وظلوا كل هذه القرون لم يمرض لهم أحد بسوء لا اخلاقهم ولا لحيثاتهم
 المدنية ولا لاموالهم ولهم في كافة الولايات والمدن والنواحي كنائس
 كبري شائقة شاهقة ومدارس عليا آهلة عامرة ومجالس روحانية حرة
 . فنحن بغاية الاسف نرى أشخاصا منهم ينصاعون للتأثيرات الشيطانية
 التي يلقونها عليهم أعداء المملكة فيرتكبون من وقت الى آخر وفي كثير
 من الجهات والنواحي جرائم لا توافق شروط الامانة والصدقة

وهذه الاعمال الفظيعة التي يراها الرأي العام منافية للانسانية وشريعة
 المروءة ومن نتائج الكفران بالنعم ونكران الجميل استوجبت بالطبع تلبه
 الحكومة الشاهانية وتكدر جلالة السلطان الاعظم وأثارت عواطف
 الاسف والحزن بل والحجل عند جميع العقلاء من طائفة الارمن .

وقد صدرت على المجرمين احكام مختلفة فخكم على بعضهم بالاعدام
 وحكم على البعض الآخر بالسجن . وصاروا عبرة لغيرهم من الاشرار
 والمفسدين . ولا يحق المكر السيء ، الا بأهله

وقد تلطف جلالة السلطان الاعظم وعنا عن بعض المجرمين وعدل
 الحكم على الآخرين فكان ذلك منه منتهي الرحمة قصارى الاحسان ودليلا
 ساطعا على ان خليفة المسلمين رؤوف بكل رعاياه على السواء لا كما يدعيه
 كتاب الانكليز وخطباؤهم زورا وبهتانا

وان قضية { انقره } لمؤظة كبرى لسائر المسلمين فهي تين مقدار
 عداوة الانكليز للدولة العلية وللاسلام وتظهر خبايا السياسة البريطانية
 وتكشف النقاب عن حقيقة الصداقة المزعومة التي كانت تتظاهر بها

انكلترا نحو الاتراك والمسلمين . فلم يبق بعد هذه القضية الشهيرة شك ولا ريب في ان الانكليز يعملون على تدمير المملكة العثمانية واثارة عواطف المسيحيين في كل بقاع الارض ضد المسلمين أى انهم يعملون لارجاع أزمان الحروب الصليبية . فليتذكر من يريد أن يتذكر من بنى الدولة العلية ومن بنى الاسلام

*
* *

ما ارتفعت نيران الثورة الارمنية وقام الارمن باظهار ثمرات تدبيراتهم وثمرات التلقينات الانكليزية حتي هبت الجرايد البريطانية موجهة الى الدولة العثمانية سهام الشتائم والقبائح طاعنة على جلالة الخليفة الاعظم الطن السافل البذىء مدعية كذباً ان جلالة الخليفة هو الموعز للاكراد بالفتك بالارمن وقتلهم هم ونساءهم وأطفالهم . وهي اكدوبة لم ير التاريخ لها مثيلاً . فان كتاب الانكليز الذين كانوا يسطرون هذه الشتائم والمطاعن الساقطة كانوا يعلمون حق العلم ان رجال السياسة البريطانية هم الموعزون للارمن بالثورة وان الارمن هم المعتدون . وفي أغلب الاحيان كان كتاب الانكليز الذين يطعنون على الدولة العلية وسلطانها الاعظم هم أنفسهم من الموعزين للارمن بالثورة ومن المحرضين لهم على الاسترسال في شق عصا الطاعة والعصيان . وهي رواية غريبة في بابها يجب على التاريخ أن يدونها بغاية الاعتناء ليعرف الاعقاب كيف تستخدم انكلترا الانسانية وكيف تحمي المسيحيين في الشرق

ولم تكن حركة الخواطر في انكثرا بشأن الارمن الاحركة سياسية
وحركة دينية في آن واحد. فرجال السياسة كانوا يؤملون الوصول بالثورة
الارمنية الى هدم المملكة العثمانية والاستيلاء بصفة نهائية على مصر
بلاد العرب ، وبما انه كان يستحيل عليهم أن يفهموا العامة من قومهم
هذه الغاية البعيدة فقد أهاجوا خواطر الشعب الانكليزي بعوامل الدين
. فكنت ترى الكنائس ميدانا لاعداء تركيا ولاعداء الاسلام وكانت
منابرها مهبطا لاذن الشتام الموجهة للدين الخيني وخليفة المسلمين وكان
رجال الدين البروتستانتى من ا كبر العالمين على تهيج الافكار في مسألة الارمن
وكانت أغلب المجتمعات التي تعقد لمساعدة الارمن تعقد تحت رئاستهم
حتى انه كان يخيل للانسان ان الامة الانكليزية بسواسها ورجال دينها
ليست من أمم القرن التاسع عشر بل أمة من أمم المسيحية أيام الحروب
الصليبية بعثت لتذكير المسيحيين بوجوب معاداة المسلمين ومطاردتهم ..
ومن أكبر الدلائل على تعصب الانكليز ضد الدولة العلية وضد الاسلام
ان المستر (غلاد تون) زعيم حزب الاحرار في انكلترا قام نصيراً للأرمن
وطعن على صاحب الخلافة الاسلامية الطعن المر واتهمه بأنه هو السافك لدماء
الارمن الآمر بقتلهم وبالتفك بهم وكان في كل خطابه يعان بصوته الرنان
انه لا ينتصر للأرمن بصفتهم مسيحيين بل انه ينتصر لهم بصفتهم من النوع
الانسانى ويصرح جهارا بأنه يخطب في صالح المسلمين اذالم ينصف
المسيحيون المسلمين في بقعة من بقاع العالم. ولما كان بعض السذج من المسلمين
الذين يعجبون بكل شيء في أوروبا حتى بسياسة دولها ضد العثمانيين وضد

المسلمين يظنون ان المستر (غلاستون) صادق في دعواه فتصد كتبت الى هذا السياسي الانكليزي العظيم في صيف عام ١٨٩٦ كتاباً ذكرته فيه بأنه كتب لي في يناير عام ١٨٩٦ نفسه « ان زمن الجلاء عن مصر قد وافي منذ سنين » وبأنه صرح في كل خطابانه بأنه مستعد لمساعدة المسلمين وللدفاع عنهم اذا رآهم في حاجة لمساعدته ولدفاعه وسألته القاء خطبة في انكلترا على مسمع من سواس بريطانيا وكتابها لتذكير بني قومه بضرورة الجلاء عن مصر والوفاء بالوعد واحترام شرف جلالة الملكة وشرف التاج الانكليزي فاجابني المستر { غلاستون } بجواب مدهش للغاية وهو « اني نصير للجلاء عن مصر ولكني لا استطيع التدخل في مسئلتها لاني لاسلطة لي في بلادى ولست الا احدا بناتها الخوصيين »

فكيف يدعي المستر غلاستون انه عديم السلطة في بلاده عند ما يطالب بالدفاع عن المصريين وبمطالبة انكلترا بالجلاء عن مصر وهو بعينه المثير لعواطف الانكليز ضد الدولة العلية وضد المسلمين ؟ أليكون قوي السلطة على الصوت في مسألة الارمن وعديم السلطة خافت الصوت في مسألة مصر ؟ أين اذن صدق المستر (غلاستون) في قوله انه مستعد للدفاع عن المسلمين اذا رآهم في حاجة للدفاع عنهم ؟ اوليس الواجب على المستر (غلاستون) ان يذكر حكومة بلاده بوجود احترام التعهدات العلنية الصريحة والمعاهدات الدولية المتحتمة بمصر قبل ان يطالب الحكومة العثمانية باحترام المادة (٦١) من معاهدة برلين ؟ ألا يعلم المستر (غلاستون) انه يجب على انكلترا أن تحترم وعودها وعهودها

قبل أن تطالب الحكومات الاخرى باحترام مادة من مواد معاهدة دولية؟
 أو ليس رفض المستر (غلادستون) قبول المدافعة عن مصر والمطالبة
 بالجللاء عنها بمثابة اعلان لتعصبه ضد الدولة العلية وضد المسلمين؟ ألا يدل
 هذا الجواب الذي بعث به الي المستر (غلادستون) دلالة صريحة على
 ان سواس بريطانيا يقولون بالسذنتهم ما ليس في قلوبهم؟

ان تعصب المستر (غلادستون) وأصحابه ضد الدولة العلية وضد
 المسلمين واضح لا ريب فيه . وقد أظهره لاوروبا بعض الكتاب المنصفين
 . ولكن أجدر هؤلاء الكتاب بالذكر هو (الفيكونت دي كورسون)
 القرنساوي فانه وضع رسالة (١) أبان فيها دسائس الانكليز في المسئلة
 الارمنية وأعمال ثوار الارمن وفضائهم . وانا نقتطف من هذه الرسالة
 الجلية بعض شذرات للاستشهاد بها في هذا المقام :

أوضح الكاتب في أول رسالته ان الجرائد الانكليزية كانت تتبأ بكل
 الحوادث الارمنية وقال في صحيفة (٦) بهذا الصدد

« والواقف على مسئلة الارمن بحذافيرها يتحقق لديه انه ما من حادثة
 وقعت في البلاد التي اصطلح الانكليز على تسميتها بآرمينيا الا وتكون
 الجرائد الانكليزية في لندرة قد أنبأت بها قبل حدوثها بزمن طويل جدا
 فتراها تين لقرلها نوع الحادثة التي ستقع ومكان وتاريخ وقوعها كما فعلت
 في حادثة وادي (تالوري) ولا يجدر بالعاقل ان يتخذ هذا الانباء بالمستقبل
 ضربا من ضروب التبصر الذي امتازت به الجرائد الانكليزية بل لا بد أن

(١) وقد اعنتي بتعريبها حضرة الفاضل محمد أفندي مسعود

يذهب في تفسير معناه الى مافسره به من قال ان الثورة الارمنية اشبه
شيء ببضاعة جهزها الانكليزي في مجتمعاتهم السياسية وأخذوا في تصديرها
حسب الطلبات الى جهات معلومة ،
واستدل الكاتب على كذب الجرائد الانكليزية بأقوال بعضها حيث
كتب في صحيفة (١٠):

« ولقد اعتنينا اعتناء تاما بجمع مانشرته الجرائد المشار اليها في هذا الموضوع
وثابرننا على هذا العمل مدة طويلة ثم أمعنا النظر فيه وضاهينا بين أجزائه
فظهر لنا من المناقضات بين أقوال الجريدة الواحدة ومن الاختلافات
الواضحة ما يدع القارىء في ذهول واستغراب. مثال ذلك أن بعض الجرائد
كانت ترى لحال الارمن وتصف ما نابهم من انذل والمهوان وما حاق بهم من
المصائب والنواب بعبارة يضطرب لها ذرو الشفقة والحنان ثم تورد عقب
هذا الوصف أشعاراً حماسية قديمة هي عين الذي نشر حينما استقلت بلاد
اليونان إثارة للخواطر وتمهيجاً للنفوس. أما الجرائد الأخرى وفي مقدمتها
جريدة (الغلوب) فكانت تنسب الي زوياً لاتها الغش وتضليل الرأى العام بما
تنشره من الأكاذيب بشأن المسئلة الارمنية وقد قالت في بعض أعدادها
الصادرة في شهر يناير سنة ١٨٩٥ بالحرف الواحد ما يأتي:

« ان القطائع التي اسند الي الاتراك اقتراها ضد الارمن هي اكبر ما غشت
به الجرائد الانكليزية الرأى العام الانكليزي ،
وأثبت الكاتب أن عقلاء الارمن سخطوا على انكثرا واعتبروها عدوتهم
الحقيقية التي ألت بهم في مهواة الهلاك وكتب بهذا الشأن في صحيفة (١٢):

«وانالم نكلف خواطر نابراز الحقائق من مكانها الاشفاقا بأرمني الاقاليم
الاسيوية الذين رضخوا لايماز الاجنبي لهم بشق عصا الطاعة فسيبوا بذلك
ضياغ حياة الكثيرين منهم وانتشار الفقر والفاقة في جميع أنحاء البلاد
الارمنية واستيلاء الوسوس والقلق على قلوب الافراد وعقولهم. وفي يقيننا
ان العقلاء منهم أخذوا الآن يعضون على الاصابع ندماً على ما فرطوا فيه
ويسخطون على الذين بتغير اراهم الخبيثة كانوا سبب وقوعهم في هاوية
لاقرار لها وما ذلك الا لكون أولئك العقلاء يعلمون علم اليقين ان دعوة
الحكومة العثمانية لاصلاح شؤون الارمن وترتيب أحوالهم لا تكون
بالقيام عليها وتمهيد الطريق لتداخل الاجبي في أمورها الداخلية كما
يعلمون ان الثورة تستدعي الحكومة الى اتخاذ الوسائل اللازمة لقمعها
وهو ما يستغرق زمنا طويلا يمكن اعتباره عقبة في طريق التقدم وحائلا
دون ارتقاء العمران»

وقد أبان (الفيكونت دي كورسون) ان المسيحيين في الدولة العلية
ممتعون بجميع الحقوق التي يتمتع بها المسلمون وانهم ممتازون عنهم بعدم
دخول العسكرية. ومما كتبه في هذا الموضوع قوله :

« تقضي قوانين الحكومة التركية ونظاماتها العمومية على التركي
المسلم بمهاجرة بيته ومفارقة أهله وخلانته للانتظام في سلك العسكرية
حيث يلبث ضمن العاملين في الجيش ست سنوات متوالية وثمان سنوات في
الجيش الاحتياطي ريثما يكون صاحبه أو رفيقه أو جاره الارمني أنشاء
كل تلك السنوات متمتعا بحريته المطلقة قائما بأعماله المعيشية عاملا على

ترقية نفسه في سلم الهيئة الاجتماعية لانه يكون قد عوفي من الدخول في الجيش بدفع بدل تقدي طفيف لا يجوز للمسلم أن يفدى نفسه به ولا بأمثاله أضعاف الأضعاف

وبديهي ان هذا الامتياز الممنوح للمسيحيين دون غيرهم من الاهالي قد ألحق بالمسلمين اضراراً كثيرة أقلها تناقص النسل وعدم التأهل لتولي الوظائف والمناصب في الحكومة .

وأثبت السكاتب كذلك بالبرهان الدامغ والحجة القاطعة انه يستحيل تشكيل مملكة أرمنية . وقال في هذا الصدد ما تعريبه :

« أيجهل الانسكايز الذين تداخلوا في المسئلة الشرقية وقالوا بضرورة انشاء مملكة أرمنية تكون بلاشك تحت رعايتهم وفي ظل حمايتهم . أن الاكراد هم بلا جدال ولا ارياب اصحاب البلاد بالنظر لكونهم اكثر عدداً من جميع الامم التي تعيش فيها . وهذه احصائية صريحة لسكان الولايات الاثني عشر التي يسكنها الارمنيون والاكرد منقولة عن كتاب (تركية آسيا) للمسيو (فيتال كينه) :

مسلمون	أرمن	غيرهم	المجموع	اطنه
١٥٨٠٠٠	٩٧٤٥٠	٧٤٩١٨٠	٤٠٣٤٣٠	
٧٩٢٤٥٠	٤٩٠٣٠	١٥٤٢٧٠	٩٩٥٧٥٠	حلب
٧٦٣١٢٠	٩٤٢٩٠	٣٥٤٦٣	٨٩٢٨٧٠	أقره
٢٥٤٠٠٠	١٣١٣٩٠	١٣٢٣٠	٣٩٨٦٢٠	بتليس
٣٢٨٦٤٠	٧٩١٣٠	٦٣٦٨٠	٤٧١٤٥٠	ديار بكر

٦٤٥٦٩٠	٩٩٥٠	١٣٤٩٦٠	٥٠٠٧٨٠	ارضروم
١٠٨٨٠٠٠	٨٩٠٠٠	٩٨٠٠	٩٨٩٢٠٠	قونيا
٥٧٥١١٠	٦٥٠	٦٩٠٢٠	٥٠٥٤٤٠	معمورة العزيز
٣٠٠٢٨٠	٥١٩٠٠	—	٢٤٨٣٨٠	الموصل
١٠٨٦٠٠٠	٧٦٠٦٠	١٧٠٤٣٠	٨٣٩٥١٠	سيواس
١٠٤٧٧٠٠	١٩٣٨٠٠	٤٧٢٠٠	٨٠٦٧٠٠	طرابزون
٤٣٠٠٠٠	١٠٩٠٠٠	٨٠٠٠٠	٢٤١٠٠٠	وان
٨٣٣٤٩٠٠	٩٤٤٩٨٠	٩٦٢٠٠٠	٦٤٢٧٢٢٠	المجموع

وقدر المستر اكزمنيس عدد الاكراد الحقيقيين ١٦٤٤٨٦٠ فيكون
 مجموع المسلمين في الولايات الاثني عشر غير الاكراد ٤٧٨٢٣٦٠ والاكراد
 وحدهم ١٦٤٤٨٦٠ والارمن من غريغوريانيين وكاثوليك وبروتستانت
 ٩٦٢٠٠٠ والاقوام الاخر من يونانيين ولاتين وكلدانيين وأقباط ويزيدية
 ٩٤٤٠٨٠

أما في الولايات السبعة وهي طرابزون وسيواس وارضروم وانقرة
 ووان وديار بكر وبتليس التي تأمل الجرائد الانكليزية تأليف المملكة
 الارمنية منها فيبلغ عدد سكانها كما يأتي

٣٧٣٣٧٥٠	مسلمون
٨٤٧٧١٠	أرمن غريغوريانيين
٦٠٧٣٤	بروتستانت
٥٨٤٧١	كاثوليك

٣٥٢٥١٢	يونان ارتوذكس
٣٨٠	متحدون
٩٢٠٠٠	نسطوريون
٤١٤٤٠	كلدانيون
٥١٢٩٨	يعقوبيون
٩٩٨٠	سوريون
٩٤٦٢	يزيديون
٣٧٢	اقباط
٣٧٣٣٧٥٩	مجموع المسلمين
١٤٩٧٣٥٩	أرباب انديانات الاخرى

أي ان نسبة مجموع المسلمين في الولايات السبعة السانفة الذكر الى عدد الاهالي الكلي كنسبة ١١ الى ١٥ وعليه فتكون نسبة المسيحيين اليه هي ٤ الى ١٥ ليس الا والأرمن نصف هؤلاء فتكون نسبتهم الي عدد الاهالي الكلي كنسبة ٢ الى ١٥

فكيف يمكن والحالة هذه انشاء مملكة أرمنية يكاد العنصر الارمني فيها أي الذي سيقبض على أزمة الوظائف في الحكومة لا يوازي الثمن من مجموع عدد الاهالي. لاريب ولا شك في انه اذا تحققت أماني القائلين بانشاء تلك المملكة تمزقت احشاؤها وتكسرت ضلوعها بتواتر المنازعات المليية والحروب الاهلية. والا فكيف يتصور عاقل منصف ان الامن يكون سائداً والطمانينة موطدة الدعائم في فرنسا مثلاً اذا كان لا يوجد

فيها من الفرنسيين سوى ستة ملايين ومن الالمانيين والانكليز الذين هم أشد أعداء فرنسا لدادة وخصومة نحو ٣٠ مليوناً

يؤخذ بالبداهة مما سبق بيانه أن مسألة انشاء مملكة أرمنية يقوم بأمرها أحد أبناء البلاد هي أمنية برقشها الانكليز بألوان تجذب قلوب الارمنيين اليهم . وليس يبرح عن أذهان القراء الواقفين على ما وقع من الحوادث أثناء انعقاد مؤتمر برلين ان مندوبي الكنيسة الارمنية عرضا على نواب الدول في هذا المؤتمر بارشاد والهام (نوبار باشا) مشروعاً يؤخذ من مغزاه طلب تعيين « حاكم أرمني » لبلاد أرمنيا أى للولايات السبعة التي سبق بيان أسماؤها وتحديد شروط تعيين الموظفين وانتخاب المجالس العمومية وتشكيل عساكر الجندرية الي غير ذلك من المطالب التي تعتبر كافلة لاستقلال أرمنيا استقلالاً تاماً وبعبارة أخرى لجعل ٣٧٠٠٠٠٠٠ نفس من الساميين تحت سيطرة ٨٠٠٠٠٠٠ أرمني مسيحي .

أما الحاكم العام الذي كان يريد المندوبان الارمنيان تعيينه فهو كما يتبادر لذهن القاري (نوبار باشا) الذي كان يمينه الانكليز بتغيير لقبه وتحويله من حاكم عام الى والي أو أمير (برنس) وهذا هو السر في كونه لبث نحو ستة عشر عاماً يوالى الانكليز بخدماته ومساعدته ويجعل نفسه آلة لهم يستعينون به على قضاء مآربهم ونوال أغراضهم في البلاد الشرقية وكونه وضع القطر المصري في قبضتهم وساعدتهم على الاستئثار بالسلطة والاحكام فيه شيئاً فشيئاً بالرغم عن آميال سمو الخديو الشاب وعواطفه الوطنية

ومما لا بد من تذكير القاريء الكريم به هو أن بين المسئلة المصرية

والمسئلة الارمنية علاقة كيدة ورابطة وثيقة تاه عنها كتاب الجرائد الاوربية ورجال السياسة فان (نوبار باشا) طامح الي الجلوس على منصة الامارة الارمنية الموهومة وقد اتخذ الانكليز هذا الطموح وسيلة لبلوغ مرامهم من وضع البلاد المصرية تحت حماية دولتهم وليست الحوادث الاخيرة التي كانت بلاد الاناضول ميدانها الاحجابا كشيئا يستمر مقاصد الانكليز من الاستئثار بالسلطة في وادي النيل ويخفي مساعيهم ودسائسهم المقصود بها وضع هذا الوادي في طي آملاكهم الشاسعة الاطراف

وقد شعر المؤتمر البرليني بما كان يحاول الحزب الارمني الحصول عليه منه الا وهو الاقرار بتعيين (نوبار) حاكما على ارمينيا فاكثر اعضاءه من الوقوع في حبال ذلك الحزب بتحرير ما كان موضوعا للمادة الحادية والستين من العهدة البرلينية وهذا نصه « يتعهد الباب العالي بأن يجري بلا ابطاء ولا تأخير التعديلات والاصلاحات التي تستلزمها الحاجات المكانية والضرورات المحلية في الاقاليم والولايات التي يسكنها الارمن وبأن يكفل لهم الامن والطمأنينة من الجرا كسة والكرد . ويتعهد كذلك بأن يوافق الدول من وقت الى آخر بما يتخذ من الوسائل اللازمة لذلك كي تراقب تنفيذها »

والمأمل في ظاهر هذه المادة يجده مناقضالما كان يخالج صدور نوبار باشا واصحابه الانكليز من الاماني والآمال ولكن الدولة الانكليزية تمكنت بواسطة هذه المادة من احتلالها القطر المصري ومن الحصول على جزيرة قبرص ومن التداخل في شؤون آسيا الصغرى

ولقد نشر الماحور (عثمان بك) في جريدة غازات، مونيخ العمومية مقالة

شائعة أماط فيها اللثام عن أسرار الاجتماعات التي حصلت في شهر سبتمبر سنة ١٨٨٧ بمدينة جنيفه «جنبره» قاعدة بلاد سويسره بين نوبار باشا ولوريس ميليكوف وتكران باشا وبوغوص باشا وكان نوبار باشا . عاداً وقتئذ من لوندرة حيث تهاطلت عليه الوعود من أصدقائه الانكليز بمعاونته وشد ازره في مشروع انقاذ البلاد الارمنية من الاحكام العثمانية الصارمة فقرروا بينهم ارسال جماعة ممن لاشأن لهم سوي إثارة الخواطر وغرس بذور الفتن ورفع لواء العصيان والاضطراب الى بلاد الاناضول وأوعزوا اليهم ان لا يتوانوا عن السلوك في هذا المسلك حتى تضطرب الاحوال ويختل نظام الامن وتجد الدولة البريطانية فرصة للتداخل بحجة المراقبة والاشراف على تنفيذ مضمون المادة الحادية والستين من عهدة برلين . وتم الاتفاق أيضاً على ان الجرائد الانكليزية في لوندرة والمبعوثين البروتستانت في ارمينيا يوالون زعماء هذا الاضطراب بالمساعدة والتعزيد مبالغة في الحض وزيادة في التنشيط

ولمناسبة ذكر المبعوثين البروتستانت نقول ان المرسلين الدينيين في البلاد التي يخترقونها أو يقيمون فيها هم رواد التدابير السياسية والمهدون للدسائس القنصلية ولهذا ترى ان مساعيهم نجحت بين الارمن وبلغ عدد الذين اعتنقوا المذهب البروتستانتى من هؤلاء أكثر من ٦٠٠٠٠ نفس وقد استعمل القسوس للوصول الى هذه الغاية الفريدة وسائل وأساليب غريبة منها . انهم كانوا يفرون الارمن بقولهم انكم اذا اعتنقتم هذا الدين شملتكم الحماية الانكليزية التي تمتد بلا مرء على جميع الامم

البروتستانتية وأمكنكم حينئذ أن تهزوا بموظفي الحكومة العثمانية اذا حاولوا
تشديد الوطأة عليكم وتخلصوا من دفع الضرائب والرسوم الفادحة
التي أثقلوا بها كاهلكم ،

وقد أتى الكاتب على أسماء اللجنة الانكليزية التي شكلت لمساعدة
الارمن حيث قال :

« ونذكر من الانكليز الذين شدوا أزرهؤلاء الاخلاط وعاونوهم
على نوال مطامعهم المسترستفنون أحد أعضاء البرلمان ورئيس اللجنة
الارمنية الانكليزية والمستر اتكين أمين صندوق اللجنة والمستر برايس
أحد أعضاء البرلمان ووكيل احدي الوزارات في وزارة المستر غلادستون
والدوق درجيل والدوق دي وستمنستر والورد روندل والورد كمبرلي
وزير خارجية انكلترا ، والسر هاتير والمستر شفون والسر سيتول والسر
جون كينافاي والمستر شانغ وجميعهم من أعضاء مجلس البرلمان والمسترستين
غلادستون مدير مدرسة هواردن والقس ماكول والمستر جون كليفورد الخ
ولا حاجة الى اعادة القول في هذا المقام بان المستر غلادستون المشهور
بحقده المزمع على تركيا وضعه للاتراك هو المدير الاعظم للحركة الارمنية
وانه لم يدع فرصة تقوت بدون أن يجاهر فيها بمداونه للدولة العلية
وتحريض الجمهور على كراهتها والسعي في هدم أركانها ،

وأوضح الكاتب السالف الذكر تاريخ اللجنة الارمنية الثورية الهنتسكياكية فقال
« وفي سنة ١٨٨٧ شكل القوضيون من الارمن وهم روبن هان اسديان
الملقب بكمبور ونيشان مجاوريان وهمايك كوشبازيان جمعية سرية منسوجة

على منوال الجمعيات العمومية الروسية (نهاست) جعلوا مقرها حارة هفليان بمدينة تفليس وقد سميت هذه الجمعية باسم هنتشاك ونيط بها انشاء جريدة بهذا العنوان عهد بادارتها وتحريرها الي نزار بكيان ايون الذي كلف بالعودة الى مدينة جنيف (جنبرة) حيث ابتدأ في نشر هذه الوريقة الثوروية . وبعد مدة طائلة نقل ادارة الجريدة الى مدينة أينا لكي تتوفر لديه الطرق والوسائل اللازمة لادخالها في البلاد العثمانية بالنظر لقرب تلك المدينة منها غير أن الحكومة اليونانية لم تستطع بقاء جريدة فاسدة المبادئ في بلادها وتحت حمايتها فطردت محرريها وأربابها الذين هاجروا عاصمة اليونان قاصدين مدينة لوندرد ولا يزالون فيها الى اليوم ينشرون تلك الصحيفة الثوروية

ولكي يقف القارىء وقوفاً تاماً على الغرض الذي يسمي أعضاء لجنة هنتشاك لنواله لا نري بداً من ترجمة بعض لوائحهم ومنشوراتهم ترجمة حرفية نراعى فيها مطابقة الاصل من جميع وجوهه وللقارىء أن يستنتج من خلال معانيها ما يلائم الصدق من الاحكام الصائبة فنقول: نشرت لجنة هنتشاك في سنة ١٨٨٩ بمدينة لوندرد رسالة قسمتها شطرين الاول منهما عنوانه « التيار الجديد » والثاني « خطاب مفتوح » يقع نظر القارىء فيها بالصحيفة ١٩ على ما يأتي :

« من الواضح قبل كل شيء أننا فوضيون وان لنا رغبة وطيدة مبنية في لوائحنا ألا وهي نشر مبادئ الفوضى في بلاد الاناضول . هذا هو الغرض الاساسي وللوصول اليه قد عقدنا الخناصر على انشاء حكومة وطنية

مستقلة في تلك البلاد و احدث الاضطراب بلاتوان ولا امبال للحصول
على الحرية السياسية الواسعة النطاق ،
وقد اورد هذا الكتاب الجليل مواد لأئحة الجمعية الهنتشاكية واننا
نأتى على ترجمة بعضها :

« المادة ٦ هي : من الغرابة بمكان وهذا نصها « يجب على كل لجنة
أن تعين رئيساً للجواسيس من بين أعضائها على شرط ان يكون من موظفي
الحكومة أو تكون له رابطة وعلاقة بموظف أرمني في الحكومة ليتمكن
من نقل اسرارها ونواياها الى اللجنة ويشترط في تعيين ذلك
الرئيس ان يكون من ذوى الشهامة والقدرة على كتمان الاسرار. وينبغي
ان يكون تحت ادارته عشرة جواسيس ينتخبون من اصدق رجال الجمعية
ليقوموا باخبارها أولاً بأول بما يكتنفها من المخاطر وعليهم أن يدخلوا
في كل مكان متكرين بحيث يكون زى التنكر للواحد منهم مختلفاً عنه
للآخر ويهيؤوا مشروعاتهم في الخفاء وتكون المخابرات المختصة بهم
منحصرة بين اللجنة وبين رئيسهم »

« وتقتضى المادة السابعة بتعيين خطباء يخطبون بين الجمهور لحضهم على
الثورة والاضطراب . أما المادة الثامنة فاليك نصها : « يجب ان يكون لكل
لجنة منفذ يكون تحت امرته جماعة من المساعدين والواجب المفروض على
هذا المنفذ على مساعديه أن يقوموا باعدام من ترى فيهم اللجنة أنهم يضررون
بها سواء كانوا من الحزب أو من الاجانب وذلك متى صدر قرار اللجنة قاضياً
باتخاذ هاته الوسيلة . وأنواع العقاب ثلاثة التوبيخ والضرب بالعصي والاعدام

وهذا النوع الاخير ينفذ اما بالحجر أو بالرifle أو بالفتق واما بالسم . ولاجل
نسف المنازل والمباني على العموم يجب استعمال : أولا . القنابل الديناميتية
ثانيا . الديناميت السائل . ثالثا . قنابل الحريق المملوءة بالبارود

المادة ٩ : يجب أن يكون لدي اللجنة واحد تتخصص اختصاصاته في
غرس بذور الفتن وتحميض الضمائم على الاقوياء حتى تم الفتنة ويتنشر
الاضطراب وليس لهذا الشخص ان يعمل الا بأوامر اللجنة وارشاداتها ،
المادة ١٠ : ينبغي ان يوجد حارس على الاسلحة موصوف بالنباهة
والشهامه اذ لا ينبغي ان هذه الوظيفة أهم الوظائف وأخطرها والواجبات
التي ينبغي عليه مراعاتها هي العناية بحراسة الاسلحة والحرطوش والبارود
وعدم اطلاع أحد على مكانها ويجب ان يكون بين يديه دفتر ليسهل
بواسطته عمل المراقبة كل ثلاثة أو أربعة شهور كما يجب أيضا ان لا يوضع
مكان الاسلحة والذخائر على أكثر من مسيرة ساعتين أو ثلاث من المدينة
وان تكون العناية بحراستها شديدة جدا كي لا تقع بين أيدي الحكومة ،

وقد أفاض (الفيكونت دي كورسون) في رسالته القريده في الكلام
على دسائس الارمن وفضائهم وتكلم عن حادثة (كوم قبو) التي حدثت
قبل محاكمة الارمن بانقره وقبل اشتغال الرأي العام الاوروبى بالمسئلة
الارمنية . ومن ضمن ما كتبه بشأن دسائس الارمن ما تعريبه :

« وقد تبين للقاري ان الغرض من احداث الاضطرابات انما هو اثاره
خواطر الارمن الذين كانوا اليوم وقوعها مخلدن الى السكينة راغبين عن
مشاركة اللجنة المنتشاكية في أعمالها الثورية الخبيثة والانتقام ممن اشتهروا

بتقييح هذه الاعمال وتشجيعها. وعملا بهذا المبدأ قتلوا هتشك افندى أحد
معتبرى المحامين الارمن أمام محاكم الاستانة العلية وقد اعترف القاتل
له وهو ارمنك الذى لا يتجاوز عمره ١٨ ربيعاً ان همبرسوم بويادجيان رئيس
اللجنة المنتشاكية في الاستانة العلية والمسبب الاصلي لواقعة كوم قبو قد
أعطاه خمس ليرات عثمانية أجرة قتله لذلك الرجل المستقيم . وكثيراً ما كاد
قسوس الكنيسة الارمنية والبطريق ارشكيان نفسه يقعون في مناب
الثورويين لولا اسعاف العناية الربانية لهم وتيقظ رجال الحفظ لحركات
الاشقياء الذين قبض على البعض منهم فاعترفوا صراحة بأنهم وكلاء
اللجنة المنتشاكية

وقتل الثأرون أيضاً أحد أغنياء المضارين من بنى جلدتهم واسمه
سيمون بك مكسود وقد قبضت الحكومة على المجرمين وهم استبان أحد
تجار الجوهرات وهمبرسوم القهوجي وكاروك وتايوس فاعترفوا صراحة
بأنهم لم يأتوا ذلك الجرم الا باغراء ذكران أحد صناع الاحذية المنتظم
بصفة عضو في اللجنة الثوروية. وقد حصل حديثاً في ٢٦ يونيو سنة (١٨٩٥)
ان اثنين من أعضاء تلك اللجنة تجاسرا على قتل أرمني اسمه توتونجيان
موظف في قلم المطبوعات

وقد تمكن كل من همبرسوم بويادجيان ومهران دماديان من مقادرة
الاستانة عقب تلك الحوادث التي تقشمر من ذكرها الابدان قاصدين
مدينة جنيفه حيث كانت تنشر وقتئذ جريدة هنتشاك التي نقلت فيما بعد الي
مدينة أينا وقد تمكن بعدئذ بويادجيان بالتذكر والتخفي من الدخول في بلاد

الاناضول حيث التقى باخيه مردديروس جراير المشهور باسم مروك وبلاشتراك مع بعضهما احداثا الاضطراب في يوزجات وموش وتلورى وعقب سفر بويادجيان استلم رئاسة اللجنة الهنتشاكية في الاستانة العلية شخص روسي الانتماء يدعي وارد برادر يكوف ولكنه لم يلبث في الرئاسة زمنا طويلا حتى قبضت عليه الحكومة وقتشت منزله بحضور مندوب من قنصلية روسيا الجنزالية في دار السعادة واستولت على ما وجد فيه من الاوراق والولوح والمنشورات المتعلقة باللجنة الهنتشاكية وبعد ان سجلت سفارة روسيا عندها بيان هذه الاوراق وختمت عليها بطابعها ارسلت الى المحاكم النظامية لمحاكمة المتهمين قضائياً:

وبعد ان اتى حضرة الكاتب القمري نسواوي بالدلائل اليقينية التي تثبت ارتكاب الارمن لاسفل الفظائع استشهد بأقوال بعض أماجيد الكتاب الاوروبيين على اختلاف الجرائد الانكليزية للاخبار الكاذبة ونشرها الخزعبلات عن احوال تركيا فكتب في صحيفة { ٦٤ } من رسالته البديعة: «تعريبه :

« وكتب المسيو دانوسو الذي أمضي ثلاثة شهور ببلاد أرضروم في رسالة مهمة بتاريخ شهر مايو سنة ١٨٩١ أن حماية الدولة العلية شاملة للارمن والمسلمين بدرجة واحدة وان لاتفاوت في الحرية الممنوحة للطرفين. الى أن قال: ولرجال الثورة في أرمينيا زعماء ترد لهم الاوامر من رؤسائهم بالاستانة العلية طبقاً لما يتوارد على هؤلاء. من لوندرة من التعليمات الخصوصية المهيأة في دخل ادارة جريدة الدالي نيوز. وقال في الختام

واقعد اندهشت من تماثل الحوادث وتشابه الوقائع في أرمينيا وكريد فالذين يدعون أنهم أصبحوا فريسة لظلم الدولة العلية واجحافها بحقوقهم نراهم يتمتعون في كلا البلدين بامتيازات لم يفز بها مواطنوهم المسلمون أفلها عدم دفع الضرائب والاعفاء من الخدمة العسكرية ولا يسعنا تلقاء هذا التماثل سوى الحكم بأن اليد التي أثار التفتنة في أحدهما هي التي أثارها في الآخر ،

وكتب في صحيفة ٦٧ و ٦٨ ما تعريبه :

« أما اللجنة الارمنية الانكليزية في لوندرة فقد انتهزت فرصة ذلك الانقلاب السياسي وبعثت بعض نصرائها الى آسيا الصغرى وأوعزت اليهم تفريق منشورات يدعون فيها الاهالي علنا الى الثورة والاضطراب وقد جعلوا مرسيوان ميدان دسائسهم التي امتدت منها الى قيصرية ويوزجات وتشورن وجمشخانه وعزيزيه وغيرها من الاماكن وقد توجه رجل اسمه (اندون رشتوني) أحد أعضاء لجنة لوندرة الى قيصرية ليقاظ التفتنة فيها فلما قبضت عليه الحكومة وجدت معه منشورات ولوائح جمعية هنتشالك الثوروية وطابع الجمعية وقتشت الحكومة بارشاد أحد المجرمين في كنيسة ديفونيك القريبة من (قيصرية) فوجدت كمية وافرة من الاوراق كان رشتوني السالف الذكر وضعها عند أحد القسوس ومن مطالعة هذه الاوراق علم ان للشخصين المسميين طومايان وكايايان الارمنيين البروتستانتين المعلمين في مدرسة مرسيوان البروتستانتية ضمماً في تلك الحوادث وانهما أسما طبعة سرية في داخل تلك المدرسة واستغرقا

الوقت في تعليم التلامذة مبادئ الفوضى وقراءتها
 اما حوادث يوزجات وقيصرية فكانت ثمرة دسائس مرديروس
 جراير المشهور باسم موروك شقيق همبرسوم بويادجيان وتوضيحها أنه
 دعي الى الحضور بجهة بيك جملة من الارمن وبعد ان وزع عليهم
 الاسلحة والنقود الواردة برسمهم من انكلترا أمرهم بالاستعداد عند أقل
 اشارة لنهب القرى التي يسكنها المسلمون وذبح هؤلاء . وقد ارتكبوا
 جملة جرائم بجهات مختلفة وعلى الخصوص في قيصرية وكلها أفضت الى القبض
 على المذنبين ومحاكمتهم بمحكمة أنقره التي صدر حكمها بالاعدام على ١٧
 من المتهمين وبالشاقعة لمدة ١٥ سنة على ستة منهم وبها لمدة سبع
 سنوات على عشرة منهم وبرأت ساحة ١٤ متبها ولكن أبت مكارم الحضرة
 الشاهانية الا للشفقة على أولئك المذنبين اذا صدر السلطان أمره الكريم ببدال
 عقاب الاعدام بالطرد من بلاد الدولة العلية . وبالرغم عن هذه المواطف الكريمة
 التي قل أن تتوفر في أمير من أمراء أوروبا وفي حكومة من حكوماتها فان
 الجرائد الانكليزية أسرفت من الطعن والسب في مقام جلالاته ولم تدع نعتاً
 من النعوت القبيحة الا ألصقته باسمه وامتازت الجرائد البروتستانتية على
 غيرها في انتهاج هذه الخطة وذلك لكون طومايان وكايايان هما من الارمن
 الذين اعتنقوا الديانة البروتستانتية . وبمجرد صدور الامر الكريم بتخفيف
 تلك العقوبات بادركل منهما الى مبارحة بلده لانهما كانا من ضمن المحكوم
 عليهم بالاعدام . أما طومايان فقد ذهب مباشرة الى لوندرة حيث صار من
 اكبر أعضاء اللجنة الارمنية الثورية واكثرهم نفوذاً وهو الذي كان

الانكليز يعرضونه على الانظار في المجتمعات وفي ادارات الجرائد بمثابة مثال
من الامة التي وقع عليها الضغط والظلم من الحكومة العثمانية
وكان بطريق الارمن بالاستانة العلية في هذا الاثناء يبعث بالمشورات
تباعا الى الاساقفة واكابر القسوس (مارس سنة ١٨٩٥) كي يحرضهم
على منع الاجانب من التعبير بالاهاالي الداخليين في دائرة اختصاصهم الديني
وقد جاء بأحد تلك المنشورات ما يأتي :

« محضو النصح للطبقة الجاهلة من رعاياكم كي لا يقعوافي شرك المهيجين
. أما الذين ينشرون عن الطاعة ولا يأترون بأوامر الحق فالتسوا العفو
والصفح لاجلهم لدى الحكومة باعتبار انكم المدافعون عن وحدة
المصداقة الوطنية »

وهي عبارة غاية في الحكمة والصواب ولكن لم يكن لها ذرة من
التأثير على العقول تلقاء ما نشره الجرائد الانكليزية والارمنية التي تصدر
بمدينة لوندرة من التحريض واثارة الخواطر وشرح المواقع « التي فاز
فيها الثأرون الارمن بالانتصار على الجيوش العثمانية » الي غير ذلك مما
أفضي الى مذبحه ساسون التي تقشع الابدان من ذكرها

ومن الخطأ المبين أن يعتقد القارىء بمحصول هذه المذبحه عفواً وجزافاً
فلقد ثبت أن الانكليز هيؤها منذ زمن طويل كما يتضح صراحة من
تلاوة الشذرة الآتية المقتبسة من جريدة { الكونجر بجاسيونا لست }
الصادرة في ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٣ بمدينة بوستن من امريكا بقلم المستر
هيروس همان أحد المبعوثين البروتستانت وهي : « اكد لي شاب من

الارمن تظهر عليه مخاض الذكاء والنباهة ويتكلم الانكليزية بنفس
السرعة التي يتكلم بها اللغة الارمنية وهو من أفصح المدافعين من
مبدأ الثورة بان الحزب الثوروي يأمل الاتيان بعمل يمهّد لاحدى الدول
الاجنبية وسائل الدخول في آسيا الصغرى والاستيلاء عليها . فلما سألته
عن كيفية ذلك أجاب قائلاً : تألفت عصابات من المهنتشاكين في جميع
انحاء الدولة العلية وهي تتربّب الفرص المناسبة لقتل الاكراد والترك
واحراق قراهم ومساكنهم ثم تعصم بعدئذ بالجبال فينشأ عن ذلك
وقتيئذ ان المسلمين يملكهم الغضب فينقضون على الارمن ويفتكون بهم
فتكاً سريعاً تضطر معه احدى الدول الاجنبية الى التداخل في أمور آسيا
الصغرى والاستيلاء عليها باسم الانسانية والتمدن المسيحي . فقلت له
ان هذا المشروع وحشي وفي أقصى درجات القسوة فأجابني بكل سكينه
: لا ريب في انه يبدو لك كما تقول ولكننا معشر الارمن قد وطنا النفس
على نوال الحرية . فلقد تحركت عواطف أوروبا لفظائع بلغاريا ففتحها
الحرية وهي لا بد أن يصل اليها نداؤنا فتمنحنا أيضاً هذا الامتياز .

وبعد نشر هذه المحادثة في الجريدة المشار اليها بسنة تقريبا وقعت فتنة
بوادى تالورى (ساسون) واتضح ان المحرك لها هو همبرسوم بويادجيان
الذي تمكن من العودة الى الاناضول بعد ان سمي نفسه مراديان ووطد
رابطة العلاقة بينه وبين الارمن البروتستانت في ولايات بتليس ووان
وأقره وأدنه وكان ذلك الرجل يغرر بمقول ذوي الاحلام الطائشة
بدعوتهم الى حمل السلاح ومهاجمة المسلمين ويمينهم بمساعدة انكلترا

وتدأخلها في شؤونهم بالقوة الحربية ولكي يموه عليهم بهذه الاكاذيب كان يبرز لهم خطابات ادعى انها واردة اليه من اكابر رجال السياسة في لوندريه . وقد طبع منشورا في هذا المعنى أرسله الى أعضاء الاكليروس الارمني القس وهابديان رئيس أساقفة ادنه سابقا وقد نشرته في شهر مارس سنة ١٨٩٥ أغلب الجرائد الفرنسية

وقد قال المستر كزمنيس الذي سلف ايراد أقواله مرارا في أوائل هذه الرسالة ما يأتي : ان الباعث على حصول الاضطرابات المذكورة هو رجل اسمه بويادجيان أحد تلامذة المبعوثين الاميركان . وهو الذي كان له ضلع في حادثة كوم قبو وصدر أمر جلاله السلطان الاعظم بالعفو عنه . ويقول الارمني ان هذا الرجل قد حرضهم على الثورة بعد ان أقنعهم بمساعدة انكلترا لهم واسعاف اياهم بمساكرها وانهم سألوه كيف تتمكن المساكرا الانكليزية من الوصول الى هذه الجهات البعيدة عن الشواطئ فضلا عن تعذر السير فيها فأجابهم بان أولئك العساكر سيصلون الى هذه الجهات بواسطة بالونات (قباب تيار) جسيمة الحجم حمراء اللون وهي آخر اختراع في العلوم العسكرية الجديدة . واعتقاد الاهالي بهذا الكذب الفاحش دليل على مقدار سذاجتهم وسرعة تصديقهم وبساطة فطرتهم وقد أخذ بويادجيان هذه الفرصة الطبيعية آلة لاستمالة سكان الاحدى عشرة قرية المكون منها مركز ساسون وكانوا يبلغون ثلاثة آلاف نسمة تقريبا فتحصنوا في جبال انطون داغ بعد ان تسلحوا بالبنادق المتكررة الطلقات الواردة اليهم من لوندريه وتغليس .

وكتب (الفيكونت دي كورسيون) في صحيفة ٧٢ وما بعدها من رسالته
الجليلة ما ترجمته :

« أما الحادثة نفسها فنحنى عن ايراد شرحها بمقتضى ما وصل الي علمنا
من الاخبار والمعلومات بل نقتنع بتقلها عن جريدة النيو يورك هيرالد التي
لا يجسر أحد على اتهامها بالتحيز للاغراض أو الميل للاتراك
وها هي :

« ان الثارين الارمن الذين ظهروا في جبال نالورى الواقعة بين ساسون
في الجنوب الشرقى من موش (ولاية بتليس) وبين مركز كال (من
متصرفية جوانج) قد اجتمعوا في تلك الجهة بارشاد وتحريض شخص اسمه
همبرسوم أو مراديان لاثارة الفتنة بها. وهمبرسوم هذا ولد ببلدة هاجين
(ولاية ادنه) وتفرغ لدراسة الطب بمدرسة الحكماء في الاستانة العلية
مدة ثمان سنوات وكان له اسمع في عادية كرم قبو ثم فر الى الاستانة ومنها الى
جنيفة. وبعد ان أقام بها مدة تنكر باحد الازياء وانتحل اسما غير اسمه الحقيقي ثم عاد
الى ولاية بتليس عن طريق اسكندرونه وديار بكر وأخذ فيها يحرش الجمهور
على الثورة والاضطراب وكان يساعده على هذا الفساد خمسة آخرون من بنى
جنسه وكان همبرسوم يؤكدها الى بأن الدول الاوربية قد أناطت بمأمورية
مهمة وهى ذلك أركان النفوذ العثماني ودأب على الكلام بهذا المثال حتى
استمال اليه قلوب الارمن القاطنين في قرى سينروسماي وجلي جوزات
وأهى وهدنك وسنانك وسكند وايغار وموسون وايتك واكجسر
وقرية قالورى التي تشمل على أربعة محلات. وفي أواخر شهر يوليو سنة ١٨٩٤

بارح أولئك المغرورون بلادهم بعد ان وضعوا نساءهم وأولادهم وأموالهم
 في جهات أمينة والتقوا بالثأرين الآتين من موش ومحلى كال وسلفان في
 جبل اندوك داغ وهناك تم الاتفاق على ان خمسمائة أو ستمائة منهم يهجمون
 على بلدة موش فزحفت هذه الفرقة على قبيلة دليكان المستقرة بالقرب
 من سفح جبل كورلنك الكائن جنوبي موش فسلبت أموالها وقتلت
 كثيراً من رجالها واستعملت في قتل المسلمين منهم أساليب التعذيب
 التي لا ترد على خواطر المتوحشين والبربريين وذلك بعد ان شهرت بدين
 الاسلام وطعنت فيه امامهم ثم هاجت بعد ذلك العساكر العثمانية النظامية
 ولكنها لم تتمكن من تنفيذ مشروعها الاول ألا وهو الولوج في مدينة
 موش وذلك لاهمية الحرس العسكري الذي كان مقيماً فيها . أما بقية
 الثأرين الذين لبثوا في جبل اندوك داغ فقد انقسموا فرقا متعددة
 قصدت كل فرقة جهة معلومة للهجوم عليها . وقد اتصل بنا من أخبارها
 انها أحرقت ابن أخي عمر أغا حيا وانتهكت حرمة النساء المسلمات الساكنات
 في قرية جولى جوازات وعذبت المسلمين وألحقت بهم النكال واكرهتهم
 على تقبيل الصليب وسمت عيونهم وجدعت أنوفهم وقطعت آذانهم
 وأذاقتهم من العذاب ألوانا وأشكالا . وفي أول شهر أغسطس هجم
 أولئك الثأرون على قبائل فانينار وبكيران وباديكان واقتربوا أفضع
 من تلك الآثام مع أهلها واقتسدي بهم الثأرون في قرىتي اليغرنك
 ويرموش الواقعتين بقسم جنين فانهم هجموا على اكراد تلك الناحية وأوقعوا
 باهالى كيسر وششت و هجم الارمن في آخر شهر أغسطس على الاكراد

المقيمين بالقرب من مدينة موش فأحرقوا ثلاثة من القرى أما الثأرون في تالوري فقد فتكوا بالمسلمين والنصارى معا طلبا للغانم والسلب ولما وصلت الجيوش الشاهانية لمطاردتهم طلب رئيسهم همبرسوم التجادلنفسه ففر الى الجبل مع أحد عشر من رفاقه وقد قبض عليه العساكر بعد ان قتل منهم اثنين بيده وجرح ستة آخرين ولم يأت آخر شهر أغسطس حتى تفرق الثأرون شذرمذرى . وقد دعوا مل الاهالى من نساء واطفال وشيوخ بأحسن المعاملة مراعاة لما أمر به الدين الاسلامي و اشارت اليه الانسانية أما الثأرون الذين قتلوا فهم الذين أبوا التسليم والاذعان لاوامر الحكومة وفضلوا الاستمرار على مكافحتها .

وكتب هذا الكاتب المحقق في صحيفة ٧٦ وما يليها ما تعريبه :
 « ولكن هذه الحقيقة الواضحة قد اسدات الجرائد الانكليزية عليها الستار ثم أبرزتها في لنائف المبالغات والاكاذيب كي تستعين بها وزارة الخارجية الانكليزية على إصابة ماترنو اليه عيون مطامعها من الاغراض الذاتية . وفي الواقع فانه بعد ان عمت الخافقين تلك الاكاذيب طلبت انكارترا من الدولة العلية تعيين لجنة دولية لمزاولة تحقيق المسئلة الارمنية فقابلت الحكومة العثمانية هذا الطلب بالقبول لوثوقها بوضحة الحقائق وتوفر القرائن المثبتة لادانة الارمن

وبناء على هذا القبول شكلت اللجنة وانتظم ضمن أعضائها مندوب روسى وآخر فرنساوي وآخر انكليزى وهو تشكيل يحق للقارىء أن يندهش كثيرا منه لموافقة الروسيا وفرنسا لانكارترا عليه واشترا كهما

معها فيه ولكن لو تقب الانسان عن الخفايا واستطلع الحقائق لاستحسن هذا الاشتراك اذ لو كانت الدولة الانكليزية استأثرت بالتحقيق لكانت تمكنت من نشر الاكاذيب واذاعة المفتريات عن الدولة العلية بلا خوف من قيام احدك ككذيب مدعياتها وبرهنت على ان تركية آسيا قد أصبحت مسرحاً لتمثيل مذابح النصارى صباح مساء وأظهرت بذلك أهمية تداخل احدى الدول الاوربية العظمى ، لتأييد دعامة النظام والامن والعدالة في تلك الانحاء

وخلاصة القول لولم تشارك روسيا وفرنسا مع انكلترا في مسألة التحقيق لاحتل الانكليز أراضي الاناضول كما احتلوا مصر بحجة توطيد الامن وكبح جماح العصاة ثم طاب لهم المقام فيها الى الآن بالرغم عن طلبات الدولة العلية وفرنسا وعن الجهود العنية التي فاه بها رجالهم السياسيون مرات متعاقبة ،

« ولقد أفضت عواقب هفوتنا السياسية في البلاد المصرية الى انحطاط نفوذنا وخفوت صوتنا بمعنى انه بمجرد ما اقترحت الدولة الانكليزية علينا فتح أبواب التحقيق في المسئلة الارمنية قابلنا هذا الاقتراح بالقبول وتمام الارتياح وانما استدعينا أصدقاءنا الروسيين الى الاشتراك فيه معنا لاسيما وانه يوجد من بين رعاياهم نحو مليون من الارمن

وقد تم التحقيق على قاعدة التجرد من الاهواء وتمام الاستقلال ودل على ما كان يمر بالخاطر من ان الارمن جنحوا للاضطراب بتحريض

محرضين جاؤا من الخارج لهذا الغرض ووزعوا عليهم أسلحة انكليزية متكررة الطلقات وارتكبوا معهم بعد ذلك أقصى ما يرتكب من الجرائم والآثام في أوقات الثورة كالخرق والقتل والسلب ثم اعتصموا بالجبال الشاهقة للتمكن من مقاومة الجنود العثمانية المنتظمة وقد اثبتت لجنة التحقيق فوق هذا الاعتراف ان الحكومة العثمانية بارسالها للقوة العسكرية لاختاد الثورة قد عملت بمقتضى ما يخوله لها القانون من الحقوق

وقد كان لظهور هذه النتيجة وقع سيء لدى أرباب الجرائد الانكليزية ولذلك تراهم قد شددوا الوطأة على الدولة العلية واتسع امامهم المجال لاختلاق الاكاذيب فقالوا ان الاتراك بعد ان ذبحوا آلاف الارمن في جولي جوازت حفروا آبار عميقة ألغوا فيها جثث القتلى ثم غطوها بطبقة من الجير والحقيقة هي ان الجنود العثمانية لما التقت بالعصاة كما أسلفنا استدعتهم الى الرضوخ للطاعة فلما لم يقبلوا قتلت منهم نحو ٣٠٠ نفس تقريباً فلما انتهت الموقعة جمع العصاة جثث القتلى في حفرة أهالوا عليها الجير كي لا تكون منبعاً للعفونة وبورة للروائح الكريهة التي تعبت بالصحة وهي عادة مرعية في جميع البلاد اذا وقعت فيها فتنة داخلية أدت الى قتل جملة من العصاة. واذا كان الانكليز يجهلون مزية الجير هنا فنقول ان الغرض من وضعه على الجثث هو تعجيل انحلالها ومنع الاذى الذي ينجم عن تصاعد الروائح الكريهة ومنها. والعامل الذي لا تستولي عليه الاغراض الذاتية يحكم معناباً هذه الوسيلة الصحية لا يصح اعتبارها من الفظائع التي نسب الانكليز للاتراك ارتكابها ضد فئة الارمن العاصية

وفي أبان شروع اللجنة في التحقيق قلنا كما كان يقول كل أوروبي مجرد عن الاهواء وكل من تتبع أثر المسئلة الارمنية بنفسه ان نتيجة التحقيق ستأتى على نقيض آمال الانكليز وانها لا تثبت شيئاً ضد دولة المشيرزكى باشاقومندان الاوردى الرابع من الجيش العثمانى الذى نيط به اخمادنتنة الارمن فان جميع الاوروبيين الذين خالطوا دولته مجمعون على امتداح سيرته وطهارة أخلاقه وكرم طبعه وصدق ولأهه لجلالة السلطان وكفاءته في المسائل الحربية .

• وانرجع الى الكلام على اللجنة الانكليزية الارمنية فنقول انها لم تدع وسيلة من الوسائل الا تدرعت بها لايهايم الرأي العام في أوروبا بأن لجنة التحقيق قد توفرت لديها الشهادات والقرائن الدالة على ارتكاب تركيا ماينسب اليها من الفظائع . ولما كانت الامة الفرنسية في ذلك الحين غير مهتمة بأمور أرمينيا فقد طاف جماعة من الارمن في أنحاء فرنسا لاقاء الخطب في هذا الموضوع اثارة لعواطف أهلها وتنشيطاً لهم على التمثل بالانكليز في طلب انقاذهم من مخالب الحكومة العثمانية وقد ألقى رجل اسمه شراسيون خطبة من هذا القبيل بمدينة باريس في وسط جمهور حافل من أهلها وبالغ في وصف حوادث مرسىوان ويوزجات وتالوري وحاول طبع هذه الاوصاف في نفوس السامعين بان أبرز لهم جملة صور فوتوغرافية بعضها يمثل الاتراك وهم يذبجون الارمن أو يطعنون الاطفال والنساء في بطونهم بالخنجر أو يحرقون القرى . غير ان هذه الرسومات لم تقض الى احداث التأثير الذي كان ينتظره الخطيب على قلوبهم اذ لا يخفى ما شتهر به أهالي

باريس من شدة التحرز والتصديق بعد الامعان والروية فلنهم بمجرد القائهم
النظر على تلك الصور حكما وبأنها افتراء ومجرد اختراع لاستحالة وجود
صورين في بلاد أغلب أهلها يقطنون الجبال وأثناء فتنة داخلية لا يعلم
أحد تاريخ وقائعها حتى يستعد المعورون الذين يجب ان يكونوا في هذه الحالة
على جانب عظيم من المهارة والجرأة لاخذ صور تلك الوقائع . وهناك
سبب آخر بث هذا الاعتقاد في تخيلاتهم (اي الباريسيين) وهو استحالة
محافظة المذبوحين والقتلى على وضع يثبتون فيه أثناء ذبح الاترك لهم
ارضاء للمصورين كي يتصلوا على صور متقنة خالية من العيوب التي تنشأ
عن تحرك الذات المراد تصويرها . وقد وضع بعض أهالي أمريكا رسالة
قال فيها انه رأى صورة فتوغرافية تمثل النساء الارمنيات يلقين أنفسهن
في الهاوي العميقة فراراً من عبث الجنود العثمانية وانه علم بمجرد النظر
انها مقلدة بالتمام من لوحة رسمها مصور شهير يسمى آرى شفر ،
وقد عقد بعض أكبر الانكاز بمدينة لوندرد وفي مقدمتهم الدوق
درجيل والدوق وستمنستر واللورد حاكم مدينة ليفربول وبعض رجال
الاكليروس البروتستانتى اجتماعا حافلا في ٧ مايو الماضي عرضوا فيه
ثلاثة أشخاص زعموا انهم من ارمني ساسون مع انهم كانوا لا يفهمون
شيئاً من اللغة الارمنية أو من اللغتين التركية واليونانية الشائعتى الاستعمال
ببلاد الدولة العلية وحصل اجتماع آخر بمدينة شستر في ٦ أغسطس الماضي
التي فيه المستر غلادستون خطبة جعل حشوها الطعن بالحكومة العثمانية
وسأل من رأى العام اعدام الدولة العلية واستبدالها من الوجود السياسي

مستنداً في طلبه هذا على مقالة نشرتها جريده الديلي لتعريف عن المستر ديون مكاتبها في آسيا الصغرى ضمنها شهادة لص كردى اسمه مونتيجو لا يزال مسجوناً بعد ان صدر عليه حكم محكمة ارضروم بالاعدام لانحصار التهمة فيه بأنه قتل ونهب وهتك وارتكب من التظانح ضد الارمن والترك أجسمها . غير ان المستر غلادستون تغافل عن تعريف السامعين لخطبه بما اذا كان المستر ديون السالف الذكر يعرف اللغة الارمنية أم لا وهل جميع مصادره الاخبارية مشابهة للشقى مونتيجو . على ان هذا تفصيل دقيق لاتهم الافاضة فيه لما يعلمه القراء من تصديق الذمة البريطانية لكل المصادر والموارد الاخبارية مادامت موافقة لمصالحها بصرف النظر عما اذا كانت تستحق الثقة أم لا .

هذاما كتبه كاتب مسيحي منصف في حكمه غير متعصب ضد الاسلام . وقد اقتطفنا للقراء كثير من شذرات رسالته الجليلة ليقفوا جميعاً على الحقائق وليكونوا على بينة من أمر الحوادث الارمنية والانسائس الانكليزية وليعلم كل عثمانى وكل مسلم مقدار الكراهة الشديدة التي أظهرتها انكارتاللدولة العلية وقد عثرنا في جريدة الطان الفرنسية الصادرة في ١٠ ابريل عام ١٨٩٧ على ترجمة عبارة كتبها أحد كتاب الانكليز في جريده «التيمس» بشأن المسئلة الارمنية . لانري بدامن تعريبها :

« لقد جاء الوقت الذي يجب فيه على الامة البريطانية ان تعلم ان للمسئلة الارمنية وجهها مظلماً للغاية : فان الجمعيات الثورية الارمنية هي آفة الامة الارمنية ومصيبتها وانى لا أتردد في ان اصرح - معتمداً في ذلك

على خبرتي الشخصية - بان هذه الجمعيات هي التي يقع عليها النصيب الاوفر من مسئولية موت الارمن العديدين الذين قتلوا في الاضطرابات الاخيرة . فإذا يستطيع الانسان ان يقول عن أشخاص يبذرون بذور التعصب بين قومهم ويضجون نفوساً عديدة وأرواحاً حية من بني جلدتهم بقصد الاعلان عن المسئلة الارمنية في أوروبا؟ وفي أية بلدة من بلاد آسيا الصغرى لا يستطيع أحد من الارمن ان يكون آمناً على حياته وأمواله اذا كان أحد أعضاء هاته الجمعيات الثورية مقيماً فيها . فالأغنياء مجبورون ان يشتركوها في مصاريف الثورة الارمنية والاقتلوا . واذا تجاسر أحد على التمدح في الجمعيات الثورية أو العمل ضدها فقد حياته ولا محالة .

وإني لأعرف شيئاً عن الجمعيات الارمنية بأوروبا ولكن مارأيته وما عرفته عن هذه الجمعيات الموجودة في الاناضول وفي العجم وفي تقليد يحملني على التأكيد بان الجمعية الثورية الارمنية التي مركزها لوندرة ترمي الى احداث مذابح جديدة لكي تبقى أنظاراً وأوروبا موجهة الى مظالم الأتراك . وفي سلبها وغيرها من المدائن التي على حدود بلاد العجم يستعد ثوار الارمن للهجوم على الأتراك المسلمين ولهم هنالك من الرجال المسلحين بين الالفين والثلاثة آلاف ولكن لتركيا من الجنود هنالك نحو الخمسة عشر ألف مقاتل والحكومة العثمانية عالمة جيداً بدسائس الارمن وبنواياهم

هذه هي السياسة التي جرت عليها الجمعيات الثورية في الماضي

ومن المحتمل انها تجري عليها في المستقبل . فاعضاء هذه الجمعيات ومدبروها يريدون إجبار أوروبا على التداخل في أمور تركيا الداخلية بالسلاح والقوة والوصول الي هذا الغرض تراهم يحدثون ثورات ومذابح هم وحدهم المسؤولون عنها . وهم لا يتأخرون عن تضحية مئات وألوف من بني جلدتهم في هذا السبيل ولكنهم يحترسون غاية الاحتراس من تضحية رجل واحد منهم أنفسهم }

ولا مرء في أن ما كتبه هذا الكاتب الانكليزي في جريدة التيمس المشهورة بتعصبها الشديد ضد الدولة العلية وضد المسلمين لحققي لاريب فيه . ولكن هذا الكاتب لم يقل لنا من المسؤول عن تأسيس الجمعيات الارمنية الثوروية وعن تشجيعها . أليس ساسة بريطانيا وكتابها؟؟ ولكن ما ذكره حضرة الكاتب الانكليزي في التيمس اكثر مما كان ينتظر من مثله

* *
*

لقدودت انكتران تداخل وحدها في المسئلة الارمنية وتقف امام الدولة العلية وجها لوجه ولكن روسيا كانت مصلحتها مخالفة لمصلحة انكترا فكان من الواجب عليها ان تعرفل مساعي الانكليز وان تمنع تأسيس مملكة أرمنية تكون عدوة لها وآلة للانكليز في آسيا الصغرى ضدها . وكذلك فرنسا فان مسئلة مصر أفهمت رجال سياستها ان المسئلة الارمنية ليست الاحيلة لمنع الدول من الاشتغال بمسائل وادي النيل ووسيلة لابتلاع مصر . وقد تظاهر المسيو (هانوتو) وزير خارجية فرنسا من أول الازمة الارمنية بالميل للحضرة السلطانية . وفي فترة سقوطه

من الوزارة كتب في جريدة (ريفودي باريس) رسالة على المسئلة الارمنية
وعلى اميال جلالة السلطان اثني فيها على الخليفة الاعظم الثناء الجميل وتكلم
عن جلالته بصفته من الذين اقتربوا منه وتحدثوا معه طويلا وعرفوا
خلاله وصفاته وافكاره السياسية . وقد سمي أعداء تركيا المسيو هانوتو
بهانوتو باشا وعبد الهانوتو اظهارا لمحبته لجلالة السلطان واعتداله في سياسته
نحو الدولة العلية كما سموا جلالة الامبراطور غليوم بعبد الغليوم . ولولا
ان الرأي العام فرنساوي كان متهيجا بعض التهيج ضد تركيا بتجريعات
أعداء الدولة العلية وأعداء الاسلام لكان المسيو (هانوتو) أظهر علنا
ثقة العظمى بالحضرة الساطانية وحقيقة المسئلة الارمنية . الا انه كان مضطرا
لان يتكلم عن تركيا بلهجة فيها شيء من الشدة في بعض الظروف ولكن
سياسته العمومية كانت ترمي الى منع تداخل انكترا واحباط مساعيها .
وقد تداخلت فرنسا والروسيا وانكترا في المسئلة الارمنية عقب
حادثة (ساسون) فطلبت عمل تحقيق تام لاطهار حقيقة الحادثة فقبلت
الدولة العلية طلبها وسافر مندوبو الدول الثلاث مع المندوبين العثمانيين
وكان وصولهم الي (موش) في ٢١ يناير عام ١٨٩٥ وأثبت التحقيق ايدانة
الارمن وخروجهم عن الطاعة ولو ان المندوب الانكليزي كان يبذل جهده
في اثبات اعتداء السلطة العسكرية العثمانية على الارمن . وفي ١١ مايو
عام ١٨٩٥ قدم سفراء فرنسا والروسيا وانكترا للباب العالي مشروع
اصلاحات يتضمن العفو عن مجرمي الارمن السياسيين والعفو عمن
حكّم عليهم بالنفي من الارمن وتأسيس لجنة مراقبة بالاستانة لمراقبة تنفيذ

الاصلاحات وماشا كل ذلك. وقد أشارت فرنسا والروس على جلالة السلطان الاعظم بقبول هذا المشروع فقبله وصدق عليه في ١٧ أكتوبر عام ١٨٩٥ ولكنه رفض تأسيس لجنة مراقبة

وفي أثناء تداخل الدول الثلاث كان ثوار الارمن لا يفتلون لحظة واحدة عن تهيج نبي جلدتهم وأشغال نيران الثورة والفتنة في كل بلاد الاناضول. ولم يكن بين الدول الأوروبية (غير انكلترا) دولة تتظاهر بمساعدة الأرمن الا ايطاليا. فان (كرسبي) انخدع للانكليز في المسئلة الارمنية كما انخدع لهم في افريقيا. أما المانيا فانها كانت ضد انكلترا وضد الارمن ولما اشتدت الازمة وكثرت مطاعن الجراند الانكليزية وبعض الجراند الأوروبية على جلالة السلطان الاعظم وقف جلالة الامبراطور غليوم وأعلن امام مجلس الرشتاغ الألماني ، انه له بجلالة السلطان ثقة تامة وانه لا يمكن الاعتماد على سوي جلالته في قمع الثورة الارمنية واعادة السكينة الى ربوع آسيا الصغرى. وقد أهاجت هذه العبارة الارمن فأرسلت جمعيتهم الثورية بلوندره الى الدول الأوروبية - ماعدا ألمانيا - كتابا رفعت فيه شكواها ضد الامبراطور غليوم وقالت عنه انه يشجع الجرائم والمجرمين فجمعت بذلك الجمعية الارمنية وظيفتها غير درس الدسائس في تركيات هذب الملوك وتربيتهم وتعليمهم سياسة الممالك !!!

وقد كانت انكلترا تود كما قدمنا التداخل وحدها ولمسلم تستطع الى ذلك سييلا أرسلت الى سالونيك أسطولاً مركباً من ثمانية عشر سفينة حربية بقصد إرهاب الدولة العلية وتمديدتها. وفي ٩ نوفمبر عام ١٨٩٥ وقف

اللورد سالسبورى في جيلدهال بلوندره وأتى خطبة شديدة اللهجة للغاية
ملاًها بالمطاعن ضد الحضرة السلطانية وأندرا المسلمين بقرب خلع خليفهم
وأوهم العالم كله بان دول أوروبا متفقة جميعهم مع انكارترا في خطتها ونواياها..
ولما رأت ألمانيا أن الانكليز يريدون التداخل في تركيا مهما كانت
النتيجة سألت فرنسا والروسيا اشراك بقية الدول الأوروبية معها ومع انكارترا
في المسئلة الارمنية فقبلت وصار سفراء الدول الست بالاستانة يقررون
كل أمر بالاشتراك. وقد شعرت كل دول أوروبا وقتئذ بانها يستحيل عليها
ان تتدخل تداخلاً عسكرياً وان مثل هذا التداخل يجر على العالمين المصائب
العديدة حيث يكون سبباً لثورة عامة من المسلمين في تركيا وداعية لسفك
دماء كافة المسيحيين في الشرق وأصل الحرب أوروبية عامة. وقد اضطر
اللورد سالسبورى نفسه ان يقول: «مادامت السلطنة العثمانية قائمة فليس
لاوروبا قوة تضغط بها على تركيا وكل ما في استطاعتها ان تؤثر على فكر جلالة
السلطان». فليقارن القاري، بين هذه اللهجة وبين لهجة اللورد نفسه في خطبة
٩ نوفمبر عام ١٨٩٥ يوم قال ان دول أوروبا كلها متفقة مع انكارترا وانذرتا معاشر
المسلمين ومعاشر العثمانيين بقرب خلع صاحب الخلافة العظمى !!

وقد توالى الاضطرابات والثورات في آسيا الصغرى ولم يرضخ
أهالى (الزيتون) الا بتداخل الدول الأوروبية، ولما كان الانكليز
يوالون الارمن على الدوام بالتشجيع والمساعدة فقد هجم جماعة من
فوضويهم على البنك العثماني في أغسطس عام ١٨٩٦ ولم يسلبوا أنفسهم
الا بتداخل الدول وتعهد السفراء بعدم تسليمهم للحكومة العثمانية

وتركهم يسافرون من الاستانة الى الخارج ، وقد أحدثت هذه الحادثة هياجا عارفا في الاستانة وكانت الطامة الكبرى على الارمن . ونادى عندئذ أعداء تركيا والاسلام بالويل والشبور ووجهوا الى الدولة العلية والى جلاله السلطان الاعظم سهام الملام والشتائم ولكن هؤلاء المتصيين تجاهلوا ما حصل في كل بلاد أوروبا وما يحصل لوقامت ففة بالشورى فوجه الحكومة الشرعية . فإذا عملت انكلترا ضد ايرلندا عند ما نارت وماذا عملت وماذا تعمل ضد الهنود ؟ وماذا عملت فرنسا ضد الجزائر وماذا تعمل الآن لوثار أهالي احدي مستعمراتها ضدها ؟ بل ماذا تعمل لولا نام في فرنسا جماعة كاليهود مثلا وثاروا في وجهه حكومة الجمهورية ؟

لاجرم ولا مرء في ان أهل تركيا من المسلمين معذورون اذا كانوا أجابوا على اعتداء الارمن عليهم وقيامهم في وجه الدولة العلية بالاعتداء عليهم فهذا واجب تفرضه عليهم الوطنية الحقة . وما ثوار الارمن في نظر المنصفين الا خونة قائمون بتنفيذ أوامر الاجنبي

وقد اتفقت الدول الأوروبية على وضع مشروع جديد للاصلاحات في ارمينيا وأخذ سفر او ١٥ بالاستانة يتداولون من ٢٦ ديسمبر عام ١٨٩٦ الي ١٠ فبراير عام ١٨٩٧ . ولكن المسئلة الكردية خلقتها يد الدسائس البريطانية فأنست أوروبا ارمينيا و مسئلتها

هذا مجمل تداخل الدول في مسئلة الارمن آتينا عليه بالايجاز

لقد أنتجت الحوادث الارمنية . عدة نتائج خطيرة . فأثبتت ان انكسارا

هي أشد الدول كراهة للدولة العلية وللإسلام وأكثرها رغبة في هدم السلطنة العثمانية وتقويض أركان الخلافة الإسلامية وأبانت للذين كانوا يظنون انكترا الصديقة الطبيعية للدولة العثمانية انها العدو الحقيقية الخداعة التي تلبث ثياب الصداقة طورا وثياب العداوة طورا آخر عاملة في الحالتين على الاضرار بالدولة العلية وعلى إضعاف نفوذ المسلمين . ولم يبق ريب بعد الحوادث الارمنية ووقوف العالم أجمع على دسائس الانكيز فيها في ان انكترا كانت تريد حل المسئلة الشرقية بتقسيم الدولة العلية وانها البلوغ هذا الغرض طلبت من الدول الأوروبية دخول البوسفور بالقوة وخلع جلالة السلطان الاعظم قهراً . وقد قام بهذا التصريح الخطير المسيو (هانوتو) وزير خارجية فرنسا حيث قال في مجلس النواب الفرنسي للمعترضين على سياسته مامعناه : (ماذا كنتم تقولون لو كنا قبلنا طلب الدولة التي سألت أوروبا دخول البوسفور بالقوة وانزال جلالة السلطان من علوة مقامه وخلعه من ملكه ؟) وما انتشرت هذه الخطبة في أوروبا حتى قالت الجرائد كلها واعتقد الناس كافة ان المسيو (هانوتو) قصد بعبارة هذه انكترا . ولم يزد انكار وكيل خارجية انكترا هذا الاعتقاد الا ثبوتا

وقد برهنت الحوادث الارمنية على ان انكترا هي عدوة المسيحيين في الشرق . فهي وحدها المسؤولة عن دماء الذين ماتوا من الارمن ضحية لسياستها وفريسة لاغراضها . وإن المسئلة الارمنية لدرس مفيد للمسيحيين في الشرق يرشدهم الى ان اتباع الايعازات الاجنبية ضار بهم كل الضرر وان سلامتهم وسلامة أبنائهم من بعدهم هي في التعلق بالدولة العلية

والاخلاص في خدمتها . وان ذكرى الحوادث الارمنية تجعلنا نؤمل حصول الاتفاق اتمام والرفاق السليم بين المسيحيين والمسلمين في كافة انحاء المملكة العثمانية . فقد وجب على نبي الدولة جميعاً أن يخدموا الوطن العثماني بالاتفاق وأن يتحدوا ضد الاجنبي فالدين الاسلامي والدين المسيحي متفقان على وجوب خدمة الوطن وعلى ان كل من يعمل ضد وطنه يكون خائناً ليس أحط منه في طبقات الهيئة الاجتماعية أحد .

وكان من نتائج الحوادث الارمنية ان أوروبا تقدمت ثقتها بانكثرا ووقفت لها في كل أمر بالمرصاد . إذ تبين لها ان سواس بريطانيا يريدون اصطلاء نيران الحرب العامة في أوروبا لتبقى انكثرا على الحيادة وتستفيد كما تبغى . ولولا ارياب الدول الاوروبية في نوايا انكثرا لكانت قامت الحرب في أوروبا وانتشر لهيب الهيجاز والحرب من اليونان الى البلقان . ولا شك ان هذه النتيجة خطيرة في السياسة الدولية فبسوء ظن الدول بانكثرا تسلم أوروبا من الحرب ومن عواقبها الوخيمة وتسلم الأمم من الوقوع في شر الكالدسائس الانكليزية وبالجملة يسلم العالم بأسره وما علم المسلمون بحقيقة المسئلة الارمنية وبدسائس الانكليز ضد الخلافة الاسلامية حتى اظهروا تعلقهم الشديد بجلالة الخليفة الاعظم ونادوا جميعاً بالاخلاص لسدته والاستعداد للدفاع عن عرشه الجليل . وهذه النتيجة لم تكن للانكليز في الحسبان فقد ظنوا انهم ببعض الخوارج يستطيعون تغيير المسلمين من صاحب الخلافة العظمى فشحجوا فريقاً من أعداء جلالة السلطان يدعى رجاله انهم مسلمون وما هم في الحقيقة الا خوارج لادين

لهم ولا مذهب . ولكن المسلمين ليسوا بسذج يستطيع الانكليز ان
يخذعوهم لهذا الحد فقد ثبتوا في اخلاصهم الصادق للامام الاعظم والتفوا
أجمعين حول رايته الاسلامية وأثبتوا بذلك على ان الاعتداء على جلالة الخليفة
اعتداء على المجموع الاسلامي وان الطاعنين في جلالة الخليفة طاعنون في
الاسلام نفسه

وقد كان اللورد سالسبوري يتباهى في الخطبة التي ألقاها بجبلدهال
يوم ٩ نوفمبر عام ١٨٩٥ بأن مسلمي الهند من أصدق رعايا جلالة الملكة .
فما بال الانكليز ينسبون الآن ثورة الهند لمساعي جلالة السلطان
الاعظم ولنفوذه عند المسلمين . أهل كانوا يجهلون هذا النفوذ العظيم يوم
كانوا يطعنون على جلالاته الطعن السافل ويدسون ضد حكومته الدسائس
العديدة ويقترحون على دول أوروبا خلع جلالاته بالقوة والقهر ؟

ومن النتائج الخطيرة التي انتجتها الحوادث الارمنية ظهور جلالة السلطان
الاعظم أمام العالمين بمظهر السياسي النادر المثال والسلطان الامين على مصالح
رعاياه . فقد توالى زواج الحوادث الارمنية وصواعقها وجلالة السلطان
الاعظم ثابت ثباتا عجيبا لا يهتز كرسى ملكه لا كبر حادثة ولا لاعظم
تهديد . والذين كانوا يجهلون قدرة جلالة السلطان الاعظم وسطوته ومهارته
كان يخيل لهم عند قراءة الجرائد الانكليزية أيام الحوادث الارمنية ان حكم
جلالاته قارب الانتهاء بل ان الدولة نفسها قاربت الزوال . ولكن السياسة
الحمدية النبيلة فازت بالنجاح والفلاح واتقدت الدولة العثمانية والاسلام
من اكبر الاخطار وأشد البلايا حتي ان المستر (غلاستون) زعيم اعداء

المسلمين اعترف بأعلي صوته « بان السياسة الحميدية تغلبت على السياسة البريطانية
وقهرتها في المسئلة الارمنية »

وان عناية جلالة السلطان الاعظم بدولته العلية وبالاسلام تفرض
على العثمانيين كافة والمسلمين عامة ان يخلصوا سدته الشاهانية الاخلاص
الصاديق الاكيد وان يعاونوا اجلالته على اصلاح الاحوال ودفن النوائب
والاخطار حتى يعود للدولة العثمانية مجدها القديم ويلبس الاسلام ثياب العز
والرفعة السرمدية

اللهم احفظ جلالة السلطان الاعظم والخليفة الاكبر الغازي ﴿ عبد
الحميد الثاني ﴾ وحقق على يديه آمال العثمانيين والمسلمين وأتقدم مصر
بلادنا العزيزة من أيدي الانكليز واحفظ لها في ظل جلالة مولانا السلطان
الاعظم سمو الحديد المحبوب ﴿ عباس حلمي باشا الثاني ﴾ . انك
سميع مجيب



خطأ وصواب

صواب	خطأ	سطر	صفحة
بالاتثال	لامتثال	٠٤	١٠
يجود	يجوز	٠٦	١٣
تدبرها	تدبر أمورها	٠١	٢٢
مستقبل	مستقبل	٠٣	٢٢
فريدريك	فريدريك	٠٩	٢٤
جهدهما	جهدهم	٠٩	٢٥
في الاستانة	من الاستانة	٠٨	٢٦
كانت تشجع	تشجع	١٠	٢٩
مذكراته	مذاكراته	١٨	٣٠
أكتوبر	أكتوير	٠٣	٣٣
شوازيل	شوزيل	١٣	٣٤
في اجباط	على اجباط	١٣	٣٨
الحرب	الجرب	١٨	٤٠
الاتفاق	لا تفاق	٠١	٤٣
سيا	سيا	٠٥	٤٤
استقلال	استقلال	٠٨	٥٠
عظيم	عظيم	٠١	٥٥
الدينثة	لدينثة	١٨	٦٤

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
السرقه	السرقه	٠٦	٠٦٥
تهديدها	تهديدها	٠٣	٠٦٧
الانكليزيين	الانكليزيان	٠٦	٠٧٤
لوبلان	لوبلان	٢٠	٠٧٥
حير	حبر	٢٠	٠٨٤
ساف	ساقب	١١	٢٠٣
مالا	ومالا	٠٩	٢٠٣
عده	وعده	١٦	٢٠٣
بمدان سافرا تقابلا	لم يسافرا وتقابلا	١٣ و ١٢	٢٢١

صحيفة

٠٠٣ القاشحة

٠٠٥ المسئلة الشرقية

٠٢٤ المسئلة الشرقية في القرن الثامن عشر

٠٥٠ المسئلة الشرقية في القرن التاسع عشر

٠٥٠ الازمة الاولى - استقلال اليونان

٠٨٧ الازمة الثانية - مسئلة الشام بين مصر والدولة العلية

١٠٥ كتاب من { محمد على باشا } الى (لويس فيليب) ملك فرنسا

١١٠ الازمة الثالثة - حرب القرم

١٤٢ الازمة الرابعة - الحرب بين الدولة العلية والروسيا عام ١٨٧٧

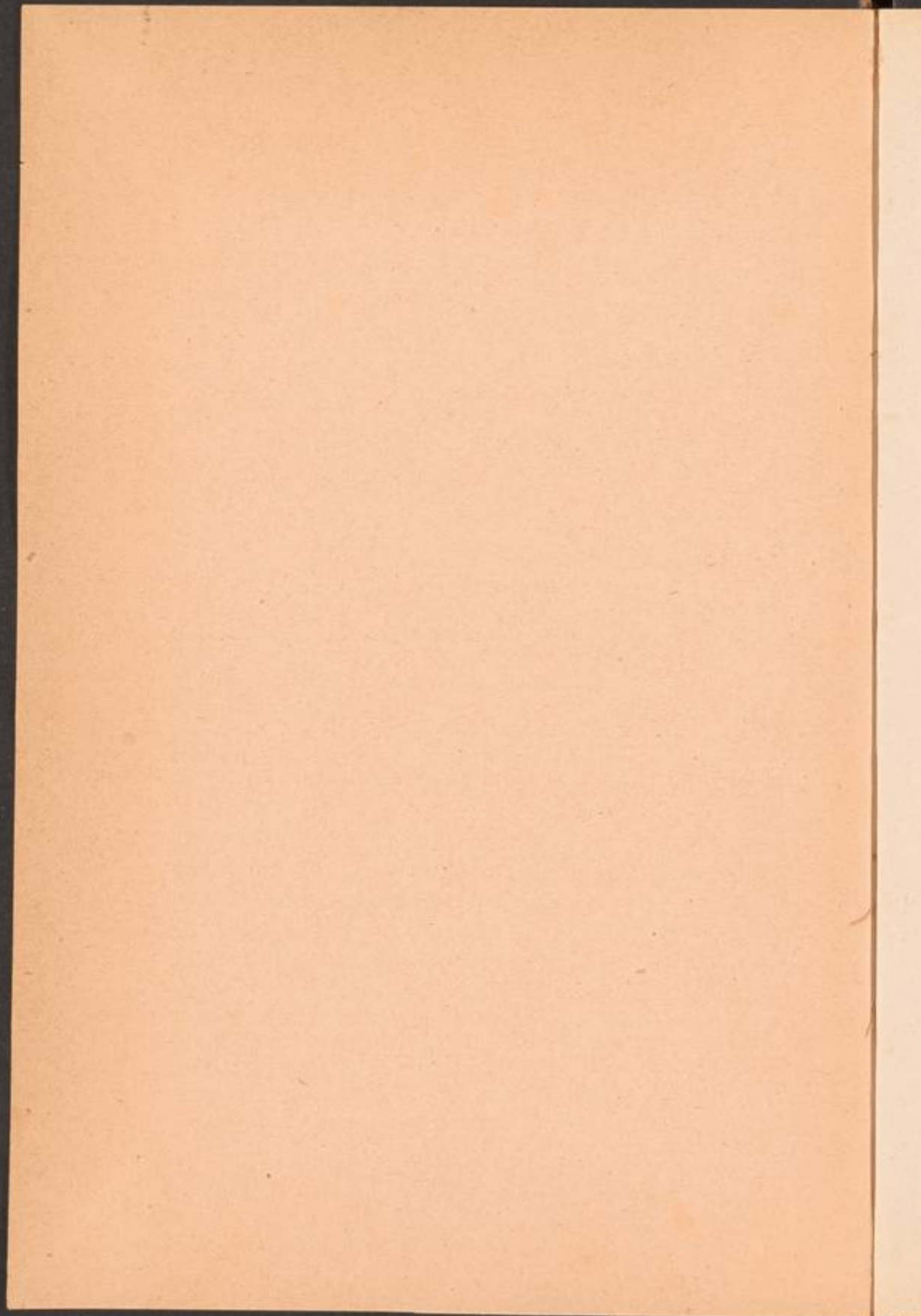
١٩١ مابعد مؤتمر برلين

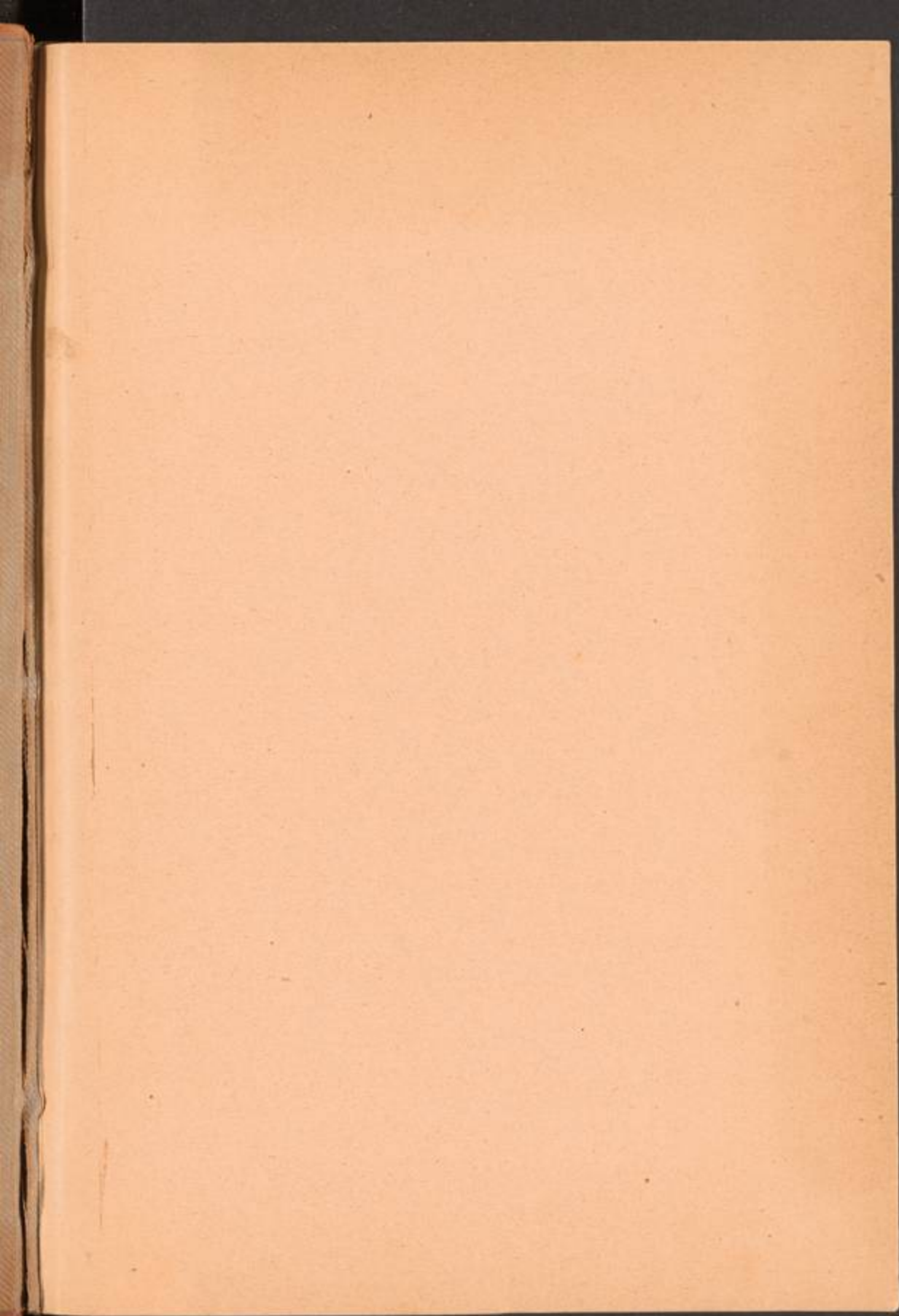
٢١٤ الازمة الخامسة - المسئلة المصرية

٢٨١ الازمة السادسة - المسئلة البلغارية والمسئلة اليونانية من عام ١٨٨٥

الي عام ١٨٨٧

٣٠٠ الازمة السابعة - المسئلة الارمنية







**Elmer Holmes
Bobst Library**

**New York
University**

NYU - BOBST



31142 02432 9404

D374 .M84

Ktab al-masalah al-Shar'iyah



NYU

BOBST LIBRARY
OFFSITE